حميد رضا شاه آبادي

ليلة الخندق

ترجمتها عن الفارسية سمر عزت



KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE



ترجمة حصرية

ليلة الخندق

الجزء الثاني من ثلاثية بوابة الموتى

الفصل الأول

أين كان موقعي على خارطة الزمان؟ أفي الماضي كنتُ، أم في الحاضر، أم في المستقبل؟! اليوم هو مستقبل الأمس، والأمس ماضي اليوم، والغد مستقبل اليوم. وما دامت الأمور تمضي على هذا النحو، فما اليوم إلا ماضي الغد، وكل شيء متعلق بموقعي الزماني.

والآن أين موقعي؟ أفي الماضي أنا أم في المستقبل؟ ربما أكون في كل مكان في الوقت نفسه. مثل لوحات الحكايات(1)؛ لوحة كبيرة تعج بصور لأحداث شتى، أحداث قد وقعت في أزمنة عديدة غير أن أحدها قد نُقِش بجانب الآخر. ها هو ذا حدث منقوش أعلى اللوحة، وحدث بالأسفل، واحد جهة اليمين، وآخر يتوسطها مائلًا جهة اليسار. ما يهم هو أن كل تلك الأحداث جميعًا موجودة في الوقت ذاته، تحدث جميعًا في الوقت نفسه. إن عين الناظر هي التي تدور وتدور ثم ما تلبث أن تثبت على أي صورة منها يريد. ثم يبدو الحال وكأنه يتذكر أن هناك صورة أخرى بجانب تلك الصورة، وبجانبها أيضًا صورة أخرى. يا حبذا لو اتسعت حدقتا المرء ما شاء لهما أن تتسعا، ليتمكن من رؤية كل تلك الصور المنقوشة على لوحة الحكايات في موضع واحد!

حينها لم يعد للماضي، أو الحاضر، أو المستقبل أي معنى. حينها أدركت تمامًا كيف كنت أعيش مع رضا قُلي ميرزا، الشخص الذي عاش قبلي بنحو مائة عام. كيف استشعرت أنفي رائحة أنفاسه في ذاك القصر القديم، بل كيف رأيت بعيني هاتين قُبَّعته؟ أين كنت في لوحة الحكايات هذه؟ ومن ذا الذي يروي غدًا حكايتنا للآخرين؟ وإلامَ ستبقى صورنا على هذه اللوحة؟!

جعلت قبعة اللباد الصبيانية قيد عيني، كذلك أبي وليلى. لا أدرى كم مضى من الوقت حتى عدت إلى صوابي. أتذكر أني رفعت رأسي، ونظرت إلى الإيوان في الطابق العلوي، حيثما سقطت منه القبعة. للحظة توهمت أذني سماع أنين رضا قُلي ميرزا الذي كان يتأوه ويتلوى إثر ركلة تلقاها من راضي في جنبه. وبلا تفكير استدرت متجهًا صوب الدرج ركضًا، حتى صعدته. لم ينطق أحد بكلمة، لا أبي، ولا ليلى، ولا حتى مأمور البلدية. كان الإيوان العلوي المُترب خاليًا، وكانت أبواب الغرف التي تنفتح عليه جميعها مُشرَّعة. وقفت ونظرت أمامي، إذ راح صوت ما يشبه أزيز الريح ينبعث عبر أبواب الغرف. فما تقدمت خطوتين ثلاثًا، إلا سمعت أصواتًا. كان ثمة أفراد يتحدثون، وكان حديثهم همسًا، ولكن بين حين وآخر كان أحدهم يعلي من نبرة صوته، فأسمع كلامًا مبهمًا ليس له من معنى. تقدمت حتى وقفت في إطار باب

أول غرفة. كانت الغرفة من الداخل مظلمة، وتفوح منها رائحة رطوبة الجبس الطري. لم يكن يتراءى لي شيء في فضاء الغرفة الذي دلفه بصيص ضوء سوى كومة من الرمل، وبضعة أشولة وكراتين. للحظة ما تناهى إلى سمعي صوت كآهة عالية. كان الصوت قادمًا من قلب الإيوان نفسه، فأدرت رأسي، ووجهت بصري نحو الإيوان العلوي. لم يكن هنالك من شيء، غير أني سمعت جلبة لأشياء ترتطم داخل إحدى الغرف الأمامية، ثم ما لبث أن خرج من الغرفة نفسها رجل رأسه أبيض، ويرتدي ثوبًا مغطى تمامًا باللون الأبيض، وقد وقف أمامي. هالتني رؤيته، غير أني سرعان ما تذكرته، إنه الأسطى عامل الجبس ذاك الذي كان يقف أمامي بوجه معفر، وينظر إليّ. انتظرت أن يقول شيئًا، بيد أنه لم يقل، كل ما فعله هو أن تناول دلوًا بيضاء كانت بجانب الباب، وعاد بها إلى داخل الغرفة. هكذا ساد الصمت والهدوء. ولما هممت بالسير، خاطبني من ورائي أحد ما قائلًا: «عمَّ تبحث؟»

هالني صوته، فاستدرت مفزوعًا ونظرت إليه، كان أبي، لما أدرك أنى خائف، قال على الفور: «لا تخف إنه أنا، كنت أسألك عن أي شيء تبحث؟»

تبلعت ريقي، وقلت: «شيء؟... لا... لا أدرى... كأنما...»

كان الكلام قد استعصى عليّ، إذ لم تعد الكلمات تتبادر إلى

ذهني. أردفت قائلًا: «للحظة تناهى إلي سمعي صوتٌ ما ... ألم تسمعه؟»

مد أبي بصره إلى داخل الغرفة التي كانت إزاءه، وقال: «نعم... أعني... كأن ثمة شيء...»

ثم بدل نبرة صوته، وقال: «هيا لننزل، إن ذلك المسكين ينتظر، إنه في عجلة من أمره، ويريد أن يذهب.»

استدرنا عائدين نحو السلم. وحينما كنا نهبط، وقعت عيني على مأمور البلدية الذي كان يقف قرب الحوض بمكان غير بعيد عن وسط الفناء، وراح يرنو إلينا. وخلافًا لتوقعاتي فإنه لم يصدر تصرفًا ينم عن غضب، بل كان واقفًا بهدوء ويطالعنا فحسب.

كانت ليلى تقف خلفه أيضًا، ومتوترة راحت تلف طرف وشاحها حول أصابعها. قال أبي للرجل وإنه يهبط الدرج: «أنا آسف للغاية، سوف نغادر في الحال.»

أسرعتُ أنا الآخر خطاي، حتى وطئنا معًا أرض الفناء، فكرر أبي أسفه قائلًا: «أرجو منك المعذرة.»

ثم التفت نحوي قائلًا: «هيا!»

أما مأمور البلدية فكان لا يزال واقفًا في مكانه، غير أن

نظرته الآن باتت مختلفة عما كانت عليه. ولم نكد ندنو منه، حتى التفت إلى أبي، وقال: «هل تعرفون شيئًا عن هذا المكان؟»

وقف أبي في مكانه، وأجابه قائلًا: «نعرف شيئًا؟!... لا، لا نحيط بالكثير عنه.»

ثم واصل سيره، حتى تجاوز مأمور البلدية، كذلك أنا وليلى. ولما تقدمنا ووصلنا إلى الحوض الفارغ، استرقت النظر إلى داخله، لألقى نظرة ثانية على القبعة اللبادية الملقاة فيه. بيد أن القبعة لم تعد هناك. كان الكرسي المكسور لا يزال في مكانه، أما القبعة التي كانت على ذراع الكرسي فقد اختفت. قلت مبهوتًا: «القبعة... القبعة ليست هنا!»

كان أبي وليلى يلقيان نظرة إلى داخل الحوض هما الآخران. قال أبي: «قد تكون سقطت.»

ثم أردفت ليلى: «توارت تحت المهملات الأخرى، ربما ذَرتها الريح.»

لكن المكان حول الكرسي كان خاليًا تقريبًا، ولم يكن هنالك من شيء يبدو كقبعة سقطت تحته. فقلت: «غريب حقًا!»

هذه المرة أجابني مأمور البلدية الواقف خلفي بسؤال: «ما الغريب؟»

فقلت: «القبعة... كانت قبعة صوفية قد سقطت هنا بالأسفل.»

فقال مأمور البلدية: «هذا المكان غريب، أحيانًا ما تسقط بعض الأشياء من فوق في الحوض، ثم تختفي... قبعة... لقد شاهدها آخرون أيضًا.»

استدرنا ثلاثتنا، وصوبنا أنظارنا تجاه مأمور البلدية الذي كان وجهه المستدير المكتنز مغضنًا بالتجاعيد. وكأنما جملة من الخواطر كانت قد هجمت على ذهنه مرة واحدة. سألته ليلى: «أتعني أن هذه القبعة سبق أن وقعت في الحوض ذات مرة ؟!»

فقال مأمور البلدية: «ليست مرة واحدة، بل عدة مرات؛ قبعة صوفية بنية اللون، أليس كذلك؟... كانت صغيرة، وكأنها لصبي.»

فقالت ليلى مندهشة: «بلى، بلى... هي نفسها، كانت لصبي.»

فقال مأمور البلدية: «هل تعلمين هذه القبعة لمن؟!»

فقالت ليلى وقد بدا عليها التوتر: «لا... كيف أعرف صاحبها؟ ولكن هل سقطت القبعة في الحوض غير مرة، ثم اختفت؟!»

«ليست فقط القبعة... أشياء أخرى كثيرة، بعض الرفائع، عيدان خشبية، أدوات من تلك التي تُستعمل في نسج السجاد، كانت تُلقى من فوق داخل الخوض وبعد بضع دقائق تختفي فجأة. كما قلت لكم، هذا مكان غريب.»

سأله أبي: «ماذا هناك أيضًا من أمور غريبة تحدث هنا؟»

«ثمة أصوات غريبة تتردد داخل القصر... من هذه الأشياء الغريبة أيضًا، ما حدث من قبل عندما أفرغوا الحوض من المياه...»

فقاطعته قائلًا: «استخرجوا منه عظامًا؟»

هز مأمور البلدية كتفيه، وقال: «الكلام على عهدة قائله، فإني لم أر بعيني؛ كانت بعض المهملات في القاع قيل أن أغلبها كانت عظامًا بشرية، وقيل كانت ثمة جماجم أيضًا. والآن سواء صحيحًا كان زعمهم هذا أم من وحي أخيلتهم، فإننا لا نملك ميزانية تكفي لتعيين حارس هنا، إذ يبدو الحال وكأنما بعض الأمور تقع هنا ليلًا. كأنَّ أحدًا يدخل القصر ويبعثر الأشياء هنا. ولما أجيء في الصباح أجد بعض الأشياء في حالة من الفوضى.»

قال أبي: «ألم تتأخر؟!»

فرد مأمور البلدية قائلًا: «لقد تأخرت جدًا، لكن يبدو

وكأنكم تعرفون معلومات عن هذا المكان، إن كنت تعرفون شيئًا، فأخبروني. هل ثمة شيء في الغرف؟!»

هممت أن أجيبه لولا أن سبقني أبي، وقال: «لا... لا شيء، إنما جئنا لالتقاط الصور فحسب.»

ثم أشار إليّ وإلى ليلى، وقال: «هيا بنا.»

اتجهنا نحن الثلاثة نحو الدهليز في نهاية الفناء. لكن مأمور البلدية باغتنا من خلفنا قائلًا: «بضع قطع نقدية ترجع إلى عصر مظفر الدين شاه ومعها خاتم.»

عندئذٍ تسمرنا في أماكننا بلا حراك. أما مأمور البلدية فأردف من خلفنا قائلًا: «أليس كذلك؟ أهذا ما كنتم تبحثون عنه داخل تلك الغرفة تحت السلم؟!»

استدار أبي ونظر خلفه مستغربًا: «وما أدراك؟!»

«كان الأمر واضحًا، وإلا فلمَ ذهبت إلى تلك الغرفة تحديدًا بدلًا من كل هذه الغرف؟ ما لم أفهمه فقط لماذا لم تدخلوها؟ ولماذا صعدتما إلى الطابق العلوي هكذا؟»

فقال أبي: «كيف علمت بوجود هذه الأشياء في تلك الغرفة؟»

تقدم مأمور البلدية خطوة، وابتسم ابتسامة تنم عن

سخرية، وما لبث أن قال: «كانت موجودة، أما الآن فلا. في أيام العمل الأولى هنا عثروا على قالب طوب غير ثابت في مكانه، فلما اقتلعوه وجدوا تحته قطع نقدية تعود إلى عصر مُظفَّر الدين شاه القاجاري، ومعها خاتم قديم. أخذوا هذه الأشياء، وأودعوها أحد المتاحف. إن كان هناك شيء آخر، فأخبروني بمكانه، لن يضيركم شيء.»

مكث أبي هنيهة، ثم قال: « كلا، ليس هناك من شيء آخر، لا شيء أبدًا.»

وعاود السير، كذلك أنا وليلى. أما مأمور البلدية فما لبث أن لحق بنا، ثم قال: «إنكم تعرفون هذا المكان، وما جئتم إلى هنا إلا لتعثروا على شيء ما، إما لكم أو لذلك الهندي الذي يضع على رأسه عمامة.»

توقف أبي مرة ثانية، والتفت إليه، وقال مستغربًا: «هندي؟! أي هندي ذاك؟!»

فقال مأمور البلدية: «ذاك الذي جاء معك. كان واقفًا خلفك عندما كنت تتحدث إليَّ.»

الفصل الثاني

لم يكد ينتصف فصل الصيف، حتى تحررت بفضل الله وعون من الميرزا حسن خان من قصر نُويان خان الموحش، وأُبْث إلى أهل بيتي. وقتئذٍ أخذ الميرزا حسن خان على أبي موثقًا أن يعاود إرسالي إلى طهران قبل حلول فصل الخريف، لكي أشرع في التحصيل والدراسة في مدرسته التي كانت لا تزال حينها في طور البناء. وإذ ذاك أخرج من صُرَّته نفقة سفري ومسيري وأعطاها أبي، وطلب منه ألا يحمل هم نُويان خان ورجاله من بعده، ذلك لأن الميرزا حسن خان بذاته سيكون يقظًا لهم ولن يدع أي خبيث منهم يمسسني بسوء. وافق أبي، وشكره شكرًا جزيلًا. وودعنا الميرزا قبل أن يغادرنا عائدًا إلى طهران.

أما الأيام التي مضت لي في سلطان آباد فنصفها كان لهوًا ومرحًا مع الصبية، ونصفها الآخر كان في معاونة أبي وأمي أوقات عملهما في أراضي وبساتين قاسم خان. أتذكر جليًا أن الصيف في ذلك العام، خلافًا لموسم الربيع فيه الذي كان حلوًا لطيفًا وأيامه مطيرة، ما لبث أن انقلب إلى موسم حار جاف. كان التنقل والعمل في ذاك الطقس الحار أمرًا يشق على النفس شقًا. ومع ذلك فمتى كنا نحن الصبية نفرغ من العمل في المزارع والبساتين لا نفتر عن اللهو والترويح عن

أنفسنا قليلًا، وتلطيف لفحات الحر، ووقدات القيظ على أجسادنا بالغطس والاغتسال في الغُدران في أطراف القرية.

كم كانت رؤية أهلي وداري، ورؤية ديار القرية، ورفاق اللعب، ورؤية الجبال والسهول والغُدران في نواحي القرية من بعد كل هذه الأهوال والمخاوف وكل تلك المعاناة والقلاقل التي شهدتها في ذلك القصر الملعون يحلو لقلبي ويطيب. فتصور كيف كانت حالتي قبل أسبوع أو قبل شهر وما آلت إليه الآن، كان يسر خاطري أيما سرور. وفي عالم طفولتي لم أنفك حامدًا لله داعيًا لأناس مثل الميرزا حسن خان وألماس ممن مدوا لي يد العون كيما أجد خلاصي من هذا العذاب. أحيانًا ما كنت أسرح بفكري في شكور، وأستذكر عهد صداقتنا. كانت رؤية شكور بعد موته، والنفاذ إلى عالم الموتى الذي قد تهيأ لي برفقته وتيسر أمر ما غاب عن بالي قط.

ومع هذا لم أفض لأحد بكلمة عما مررت به بعد موت شكور، لأنني فكرت في أنهم قد يرمونني بالكذب أو الجنون، وفيما بعد يتوهمون أن أي كلام آخر أخبرهم به لا يعدو كونه أكاذيب. لذلك ما عدت أفكر في شكور وعالم الموتى إلا عندما أخلو بنفسي، ولم أنبس بذات شفة عما شهدته. وكم من ليلة بت فيها راجيًا أن أرى طيف شكور في الكرى، على

أن من كانت ذكراه تطاردني في صحوي، لم يكن ليتذكرني في منامي. فكرت في قرارة نفسي مرارًا أني ربما أعاود الذهاب ذات يوم إلى قصر نُويان خان، وألج مياه الحوض، لأرى شكورًا مرة ثانية. لكني بعد ذلك خلصت إلى أن عودتي إلى قصر نويان خان تعني أنني سوف أقع في براثنه هو ورجاله مرة أخرى. حتى وإن لم تصل الأمور إلى هذا الحد، فما أدراني أنه أمر يتأتى لي من دون شكور، وأني إن خضت حوض القصر سأسلك منه سبيلي إلى عالم الموتى. لذلك أفرغت ذهني أبدًا من فكرة رؤية شكور مرة ثانية.

في اليوم الذي وعد فيه والدي الميرزا حسن خان أنه سوف يرسلني إلى طهران قبل أن يهل علينا فصل الخريف، لأتعلم في المدرسة، لم يكن يعي أصلًا ما المدرسة. فقريتنا، سلطان آباد، لم يكن فيها حتى كُتَّاب فكيف بمدرسة. كان لا يخفى أن والديَّ كليهما لا يدريان ما المدرسة، كذلك كنت. ولكننا جميعًا كنا نفهم ماذا تعني الدراسة، وكنا ندرك أنهم يعلمون الصبية في الكتاتيب، ليجيدوا القراءة والكتابة. لهذا خمن والدي أن المدرسة شأنها شأن الكُتَّاب، وأن الميرزا حسن خان ليس سوى مُلا الكُتَّاب الموكل إليه بتعليم طلاب العلم. أما أنا فلم أكن أعتقد ذلك، إذ كان مشهد هجوم الحشود الثائرة التي أضرمت النيران في مدرسة الميرزا السابقة ينثال على خاطري. أتذكر كيف راح أولاء الناس

يرددون أن الميرزا حسن خان ينشئ الصبية على الكُفر ويوقعهم في شراك الإثم والضلال. لهذا كنت قلقًا، غير أني ما ألمحت لأمي وأبي بشيء عن هذه المخاوف التي تقلقني، إذ كان ثمة شيء في أعماق قلبي يخبرني أن رجلًا مثل الميرزا حسن خان بكل ما خصني به من محبة ولطف، لن يقودني أبدًا إلى محل سوء. كما أني لم أخبر أحدًا بقصة إحراق المدرسة و تدميريها، فلم أكن أبتغي أن يعوقني عن أوبتي إلى طهران عائق. كانت طهران رغم كل المصاعب التي كابدتها فيها لا تزال في ناظري جميلة بهية. و يا لهف نفسي كم كانت تتوق إلى رؤية الميرزا حسن خان مرة أخرى، الميرزا، وألماس، وقنبر، والدرويش، بل وربما بعض الصبية في قصر نُويان خان. لذا فإنني رغم كل تلك المخاوف، كنت أترقب حلول فصل الخريف، لأعود إلى أرض طهران مرة ثانية.

أما والداي فكانا في شك مريب، إذ لم يرغبا في أن أبتعد عنهما مرة ثانية بعد ردح من الزمان افترق فيه شملنا وتجرعا مرارة الغصص حزنًا على فقداني. وإذا كان أبي قد أعطى الميرزا وعدًا، وتسلم ثلاثة من القِرانات كان الميرزا دفعها له نفقة مركوبي في سفري، ووضعها تحت الكليم المفروش في الغرفة، فما كان يخفى أن قلبه غير راضٍ عن إرسالي إلى طهران. كذلك كانت أمي. ولما كانت أقدامهما لم تطأ أرض طهران من قبل، فكثيرًا ما راحا يسألاني عنها

ليعلما أين سيستقر بي المقام. وكانت أحاديثي عن طهران ووصفي لها ولِما قد عانيته هنالك كل ليلة، لا تزيد أبي وأمي وشقيقتيَّ إلا عجبًا. وبقدر ما كانت شقيقتايَّ سعيدتين وتضحكان على ما أرويه عن طهران، كان والديَّ يتجهمان الوجه، ويعقدان الحاجب، ويغرقان في التفكير. حتى ذات ليلة قالت الوالدة: «رحماك ربي، كيف لي أن أرسل فلذة كبدي إلى مكان لا أدري ما سيصير له فيه؟ كيف يهدأ لي بال أن أيًا من أولاء الذين لا يخشون الله لن يتعقب أثره؟!»

فكنت كلما سمعت هذا الكلام، خشيت ألا يُسمح لي بأوبة إلى طهران. على تلكم الحال استقر الخوف في قلبي، وما كان لي حيلة سوى الانتظار حتى نهاية الصيف، لأرى ما ستسفر عنه الأمور مع بشائر الخريف.

كان الخريف يقترب، وبدأ أوار الصيف ينكسر بين آن وآخر مع هبوب الريح البادرة من الجبال، ومع قدوم هذه الرياح فهمت أن الخريف شارف التلال المحيطة بسلطان آباد. وقتذاك وبينما كنا قد فرغنا من تناول عشائنا البسيط ذات ليلة على ضوء قنديل الزيت، ثنى أبي طرفه إلى أمي قائلًا: «ها قد انتهى فصل الصيف، والآن ينبغي لنا أن نهم بإرسال رضا إلى طهران.»

على الفور صوبت في وجه أمي النظر، ومكثت لأرى بمَ

ستجيبه. كذلك فعلت شقيقتيَّ عطية ومرضية. وفي ظلام الغرفة لمحت عيونهما ألمع ما تكون في حين أخذتا تحدقان إلى أمي، لتستوضحا جوابها، ولكن أمي لزمت الصمت، ولم تجبه. ثم إنها أمسكت بجانب من السماط القماش الذي كان مبسوطًا على الأرض، واستدارت، وطلبت من أختي الكبرى أن تحضر الماء. أما أبي فلما لم يجد من أمي ردًا، تابع كلامه: «لن أرسله هذه المرة بعربة البريد، في الصباح الباكر من يوم الجمعة سوف أركبه في الطريق عربة مسافرين متجهة من ساوة إلى طهران. سوف أرافقه إلى الطريق وأركبه من هناك.»

وفي حين كانت أمي لا تزال صامتة راحت تمد يدها لطرف السماط. كان رأسها منخفضًا، وفي الظلام كان بوسعي أن ألمح في مفرق رأسها خصلات شعرها تلك التي زحف عليها المشيب. التفت أبي جهتي، وأردف قائلًا: «لقد قال ذاك الميرزا ينبغي أن تذهب في فصل الخريف، وها قد آن الأوان.»

وحالما كنت أنظر إلى أمي، قلت: «أجل، لقد قال لي لا يحل الخريف إلا و قد جئت، وقال أيضًا سوف أتولى أمر عنايتك بنفسي.»

عندئذٍ جاءت عطية ووضعت كوب الماء على الأرض

بجانب السماط. تناولت أمي الكوب، ووضعته أمام أبي. فقلتُ حينئذٍ: «إن الميرزا لرجل طيب.»

وبعد ذلك صمتنا جميعًا. تناول أبي الكوب، وتجرع الماء، ثم جعل يخلل بأصابعه لحيته المبللة، والتفت نحوي، وقال: «فلتحزم متاعك إيذانًا بالسفر يوم الجمعة.»

حينذاك طوت أمي السماط، وما لبثت أن قالت: «توكلنا على الله.»

ثم قامت. كان كلامها هذا يعني أنها تبدي على سفري موافقة، لذلك تهلل وجهي لسماع ذلك منها. وكرر أبي كلامها عينه: «توكلنا على الله.»

كما ابتسمت عطية ومرضية، وتطلعتْ حينئذٍ آملًا إلى الرحيل.

لم تكد شمس يوم الجمعة تذرّ قرنها، حتى غادرنا دارنا. لقد ألبستني أمي صديريًا جميل المنظر موشى بالنقوش كانت قد نسجته بنفسها على قميص أبيض اللون من الكرباس مع بنطال أسود واسع من الدَبيت، ثم وضعت على رأسي القبعة التي كنت جلبتها معي من طهران. وناولتني البُقجة التي كان في طيها شيء من خبز وأقراص كشك مجففة(2)، لآكلها، متى جعت في أثناء الطريق. وأعطتني كل واحدة

من شقيقتيّ عطية ومرضية قرصة فطير كانت قد خبزتها لي بنفسها، لأضعها داخل بقجتي. عرفت أنهما كانتا جمعتا دقيق تلك الفطيرتين في الأيام الماضيات حفنة حفنة من هنا وهناك. أقبلت أمي عليّ بوجهها وبه دُمَاع، وقبلت وجنتي، مثلما قبلتني عطية ومرضية. عندئذٍ أحضرت أمي مصحفًا كانت قد استعارته من جارتنا، ورفعته فوق إطار الباب، كيما أعبر من تحته. وبهذه الطقوس خرجت من البيت بصحبة والدي. وبعد أن سكبت أمي آنية ماء خلفنا، مشيت برفقة أبي في أزقة القرية الخالية شبه مظلمة، حيث كان نسيم ريح الخريف العليل يتهادى بين منعطفاتها.

وفي الطريق أمرني أبي ألا أنام في العربة، وأن أنتبه إلى بقجتي وإلى القِرانات الثلاثة التي وضعتها أمي في قُطاب جيب قميصي، وأغلقته بدبوس. قلت له إني سأفعل، ثم أمرني أبي ألا أذهب إلى أي أحد خلا الميرزا حسن خان، وألا أتسكع في أزقة طهران كثيّرا، وأن أتعلم دروسي، وفور أن أتمم دروسي أنقلب إلى البيت. أخبرني أيضًا أنه قد يستأذن مالك الأرض، عندما تخف وطأة الأعمال المكلف بها في أرضه، ليأتي إلى طهران يزورني، ويتفقد أحوالي.

وصلنا إلى الطريق وإنَّا نتكلم. كانت الشمس قد برزت من حجابها، عندما قدمت عربة خشبية قديمة متهالكة يجرها

حصانان عجوزان. كان يجلس في مقدمة العربة رجل لثم وجهه بوشاح. لما أبصرنا شد لجام خيله، وأوقف العربة. طرح أبي عليه السلام، وقال: «خذ هذا الصبي معك إلى طهران.»

رمقني الحوذي من خلف وشاحه الملفوف على وجهه، ثم ما لبث أن قال لأبي مُستنكرًا: «بمفرده؟!»

فأجاب أبي: «نعم، إنما أودعتُه يد العناية الإلهية، ويدك.»

مكث الحوذي قليلًا، ثم قال: «أما يد الله ففي محلها، وأما أنا فلا يد لي ولا رِجل لأعتني به. أهذا بوسعه أن يعتني بنفسه؟ ألن يجلب إلينا المتاعب؟»

فقال أبي: «نعم لن يجلب؛ لقد سافر إلى طهران قبل ذاك.»

مرة ثانية رمقني الرجل، وقال: «ستكون الأجرة قِرانين.»

فقال أبي: «حسنًا، أجرة الطريق معه، بمجرد أن يصل إلى طهران، يدفعها لك.»

هز الحوذي رأسه، ثم قال لي: «اصعد، واجلس.»

رافقني أبي إلى مؤخرة العربة. وحينئذٍ مسح أبي بيده على رأسي، وصلى على الرسول بضع مرات، ثم نفث في وجهي، وقال: «في أمان الله.»

وأعانني على الركوب. ولما صعدت العربة، قال أبي ثانية: «في أمان الله... مع السلامة.»

كذلك قلت: «مع السلامة.»

وبدأت العربة تقطع الطريق مهتزة اهتزازًا شديدًا. نظرت قليلًا إلى أبي الذي كان قد وقف في باحة الطريق ويحدق إليّ. بعد ذلك حاص عن الطريق، فأدرت رأسي، ورحت أقلب طرفي داخل العربة. كان يجلس في العربة بضعة أشخاص سواي. كانت ثمت امرأة بجانبها رجل يستندان إلى سياج العربة ويأخذان غفوة، وطفلتان صغيرتان تتوسدان ركبتي المرأة، وتغطان في سبات عميق. كان الرجل يرتدي قباءً رمادي اللون، ويعتمر قبعة صوفية سوداء. أما المرأة فكانت متشحة بشادور أسود، وقد أسدلت على وجهها نقابًا أبيض. كان هناك أيضًا شاب نحيف ذو شارب قيطاني(3) رفيع، وخلافًا للآخرين لم يكن نائمًا. كان يديم إليّ النظر بعينيين مفنجلتين. جلست بهدوء بجانب الرجل والمرأة، واستندت إلى سياج العربة. ضممت بقجتي إلى صدري، ونظرت قبالتي. تلاقت عيناي في عينيّ الشاب ذي الشارب القيطاني، فأشحت بنظري عنه، وصوبته إلى الطفلتين اللتين كانتا مستلقيتين على أرضية العربة. غشيني النعاس. لكنني سرعان ما تنبهت من غفوتي، ففتحت عيني. كنت أخشى أن

ينفلت زمام أمري وأجلب لنفسي المصائب مثلما حدث في المرة الفائتة. مسحت على وجهي، وفركت عيني. حينذاك قال لي الرجل ذو الشارب القيطاني شيئًا لم أسمعه في ضجيج العربة، فسالته: «ماذا؟»

رفع الشاب صوته قائلًا: «لم أنت ذاهب إلى طهران بمفردك؟»

فقلت: «إنني ذاهب إلى طهران لأدرس.»

وكأنما لم يسمعني جيدًا، فزوى حاجبيه، وسألني: «ماذا تفعل؟!»

فقلت: «أدرس... لأذهب إلى المدرسة وأتلقى دروسي.»

ابتسم ذو الشارب القيطاني ابتسامة ساخرة، وقال شيئًا لم يتسن لي سماعه هذه المرة مع تلك الجلبة التي تحدثها العربة. لكن ما قاله لم يكن ليعنيني، فتلك الابتسامة الهازئة كانت كافية لأفهم كيف يتوهم أن قطعي ذاك الطريق سفرًا من سلطان آباد ساوة إلى مدينة طهران لكي أتلقى دروسي عمل تافه لا قيمة له، فضلًا عن أنه قد يكون تصرفًا أهوج، وأنا الآن في نظره مجرد ولد صغير طائش. لذلك أشحت بوجهي عنه، ورحت أتأمل المكان حولي حيث كان يستنير لحظة بلحظة مع ارتقاء الشمس قمم الجبال في المشرق.

كان السهل الوسيع، والجبال الراسخات في نهايته، وغرسات الأشجار المتراميات في عرصاته، كان كل ذلك يجتلي العيون ويأسر الألباب سِحرًا ونحن في غَلَس الصباح.

وبَيْنَما كنت أتأمل تلك المشاهد الخلابة من حولي، راحت ذكريات سفري المنصرم تُبعث إلى الحياة. وكلما تذكرت أيًا منها، ازددت اضطرابًا. وأحيانًا ما كنت أفكر في أن فرُّوخًا وأتباعه قد يعلمون في طيّ الطريق بخبر مجيئي، فيسترقوني مرة أخرى كما فعلوا، ليسوقوني معهم إلى قصر نُويان خان. تذكرت أن فرُّوخًا كان قال لي ذات مرة أن رجال نُويان خان موجودون في كل خانة للمسافرين على الطريق وإنهم لينقلون له كل خبر أول بأول. في الوقت ذاته ألفيت الشاب ذا الشارب القيطاني يزلقني ببصره. ولوهلة قلت في سريرتي لمَ لا يكون أحد رجال نُويان خان هو الآخر. توجست خيفة، فدسست يدي داخل البُقجة، وتناولت الشال العريض الذي كانت أمي قد نسجته لي ووضعته بنفسها داخلها، ثم زملت به عنقي، ومددت طرفه إلى وجهي، ورفعته حتى لم يعد يبين منه إلا عيني، ذلك لئلا يظهر وجهي، ويُستدل عليّ...

وعلى هذه الحال مر الوقت وأشرقت الشمس على الروابي والبِطاح، وأصبح الصباح. ولما شعشع نور الصباح ولاح، فتح

الزوجان اللذان كانا بجانبي عيونهما. رفعت المرأة نقابها، وتكلما معًا قليلًا. بعد ذلك فتحت المرأة البُقجة التي كانت تحملها، ووضعتها وسط العربة. وسط السُفرة كان هنالك بعض من خبز وجبن. ومع اهتزاز رجليّ المرأة وهي تفتح السفرة وتبسطها، استيقظت الطفلتان اللتان كانتا تتوسدان ركبتيها، وجلستا. عرض الرجل عليّ وعلى الشاب ذي الشارب القيطاني أن نشاركهما الإفطار، فتقدم ذو الشارب، والتقط رغيف خبز وجبنًا عن السفرة. أما أنا فما لبثت أن فتحت صرتي، ودعوتهم ليقاسموني خبزي وفطيري، ثم هممت بالأكل. أخذت المرأة رغيف خبز عن سفرتها، وناولته الرجل حتى يقدمه إلى الحوذي. ثم بعد ذلك تجرعنا الماء كافة من الجرة الخزفية المطلية التي كانت معلقة إلى جانب العربة، وعدنا لنلزم أماكننا. عندئذٍ خلع الشاب ذو الشارب حذاءه الكِيْوَة. في بداية الأمر جعل يغلغل أصابع يده في أصابع رجله ليفرج ما بينها ويخرج وسخًا أسود من بين كل أصبعين على حدة. ثم راح يكوره، وبدفعة من إبهامه يلقيه في أرضية العربة. وعندما فرغ من تنظيف أصابعه، أخرج سكينًا من جيب قبائه، وراح يقلم أظفار قدميه الطويلة السوداء على ما فيها من وسخ.

ارتفع قرص الشمس شيئًا فشيئًا، و بدأنا نشعر بسخونة الجو. في البداية خلعت الصديري الذي كنت أرتديه،

ووضعته داخل بقجتي. ثم لم أعد أطيق الشال الذي لففت به وجهي، فما كانت حيلتي سوى أن أخلعه هو الآخر. فككت الشال، وعوضًا عن ذلك صعَّرت له خدي، بحيث لم يعد يظهر من وجهي للشاب إلا شق واحد. وما لبثت أن نظرت من خلفي، فثلج صدري لعدم قدرة ذي الشارب القيطاني على رؤيتي جليًا.

كان ذاك الشاب ذو الشارب القيطاني لا يضع على رأسه قبعة. أما الرجل الذي يعتمر قبعة صوفية فكان لا يزال يضعها على رأسه رغم حرارة الجو. فكرت في قرارة نفسي ربما لا يريد أن يُتعرف إليه هو الآخر أو ربما أصيب بجرح ما في رأسه أجبره على عدم خلع القبعة مع توهج الشمس الحارقة واصطلاء الحرور.

إبان الظُهر مررنا بخانين للمسافرين، وتوقفنا عند أحدهما كيما يقدم الحوذي لحصانيه الماء والعلف، ويملأ جرته الخزفية بالماء. ولما حانت الظهيرة كنا شارفنا مدينة شهريار. طفقت الرياح الحارة تهب، كانت رياحًا شديدة الحرارة أنست الجميع أن فصل الصيف قد انتهى وأن بشائر الخريف قد أهلت علينا. كانت واجهة خان المسافرين في مدينة شهريار خالية، وخلافًا لسائر خانات المسافرين لم تكن من عربة تقف أمامه. كذا لم نتوقف لديه، لأن الحوذي سبق

أن قضى من غيره أوطاره. على هذا النحو اجتزنا الخان، وواصلنا المضي في طريقنا. كنا على مبعدة نحو فرسخ من مدينة شهريار، وقتئذٍ رأينا رجلًا يجلس على صخرة بجانب الطريق. كان الرجل مكتنز اللحم بعض الشيء، ويلبس رث الثياب. لم تكد تقترب منه العربة، حتى قام عن الصخرة، وأخذ يحرك على رأسه قبعته السوداء المدورة المخيطة من اللباد، ويلوِّح بيده للعربة. سحب الحوذي سير الحصانين أمامًا، وتوقفت العربة. سأله الرجل: «أذاهب أنت إلى طهران؟»

فما كان جواب الحوذي إلا أن قال: «ستكون الأجرة قِرانًا.»

كان الرجل شاحب الوجه باهته، وشعره المندى بالعرق ينبثق من تحت قبعته اللبادية. عندما سمع أجرة ركوب العربة، هز رأسه، وقال: «بارك الله لك!»

وهم بالذهاب إلى مؤخرة العربة، ليركب. غير أن الحوذي قال: «ادفع الأجرة أولًا، ثم اركب.»

رفع الرجل رأسه، وقال للحوذي: «ألا تثق بي أيها المَشْدي(4)؟»

فقال الحوذي: «ليس الأمر بأمر ثقة، هذا هو العُرف، ادفع الأجرة ثم اصعد العربة.»

أوغل الرجل يده في جيب قبائه البالي، وأخذ يبحث ويبحث حتى أخيرًا عثر على مسكوكة، فأعطاها إلى الحوذي. قلب الحوذي نظره فيها، فقال: «هذه عشرة شاهيات أي نصف قِران لا غيرا»

فنشق الرجل نفسًا عميقًا، وقال: «هذا كل ما ألفيته في جيبي. دعني أركب صدقة منك على أمواتك.»

فوضع الحوذي المسكوكة في جيبه، وقال: «أرأيت؟... أرأيت كيف أن نظرتي في الناس لا تخطئ؟... هيا اركب، لأقطع الطريق من الصباح حتى المساء مع هذا العجوز المتهدم صدقة على روح أمواتي.»

مضى الرجل مسرعًا نحو العربة، ووضع يده على حافة العربة، وتشبث بها، وهم بالركوب. لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلًا، كأنما همته كانت لا تسمو به ليصعد. حاول مرة ثانية، وخفق، فما لبث أن التفت إلى الشاب ذي الشارب القيطاني، وقال: «همتك معي أيها الشاب لأصعد، لا أُعدمت خيرًا.»

افتر ثغر الشاب ذي الشارب القيطاني عن ابتسامة ساخرة، وقام، وقال: «هات يدك أيها البطل...»

ثم أخذ بيديّ الرجل كلتيهما، وأصعده العربة. صعد الرجل، وجلس بجانب الشاب الذي كان يحملق إليه بنظرة مشوبة

بالازدراء. وها قد تمكنت من أن أجتلي شحوب وجهه، وعينيه الحمراوين الملتهبتين، وشعره المبلول. التقط الرجل بضعة أنفاس متلاحقة، ثم بلع رضابه، واكفهر وجهه، وقال: «ماء... ناولني كوب ماء، حلقي جاف.»

التفت إليه الرجل ذو القبعة الصوفية الذي كان يجلس بجانبي، وسأله: «أبك داء؟!»

فأجاب الرجل المكتنز: «لا... ولكني أجد في نفسي فِترة. لقد مكثت في الطريق مليًا. وقد أعيتني هذه الريح الحارة مع حمو الشمس.»

ثم نظر إليّ، وقال: «ناولني كوب ماء... جزيت خيرًا.»

قمت، وفي حين كنت متوخيًا الحذر لئلا أسقط مع ارتجاج العربة، ذهبت إلى جرة الماء المعلقة إلى جانب العربة. أخرجت فوهة الجرة من خطافها المعدني، ثم تناولت الكوب الذي كان بجانبها وملأته بالماء. وما لبثت أن وضعت الجرة في مكانها، وناولت الرجل كوب الماء. كان وجه الرجل يرتجف، ومقلتاه محمرتين وتغصان بمائهما ويكأنه بكى فرطًا. أمسك بيديه المرتعشتين الكوب، فعبه عبًا حتى أفرغه. وبينما كنت أهم بالعودة إلى مكاني لأجلس، إذ بالرجل الهرم يدفع بالكوب الفارغ نحوي، ويقول: «كوب ماء آخر، متعك الله بالصحة وطول العمر.»

أخذت الكوب، واتجهت به مرة ثانية نحو الجرة. ملأت الكوب، وناولته. تناول الرجل الكوب بيدين مرتعشتين، وتجرعه. هذه المرة وقفت أمامه، لآخذ منه الكوب متى يفرغ. أنزل الرجل الكوب الفارغ عن فمه، ونظر إليّ بعينين لمحت فيهما طيفًا من بريق، ثم قال: «يا للراحة... يا برد الماء على كبدي!»

ودفع بالكوب نحوي. ولم أكد أمد يدي لآخذ منه الكوب، حتى انكفأ الرجل على جانبه كشوال دقيق ملآن هكذا دفعة واحدة، وانطرح على أرضية العربية، كما سقط الكوب قبل أن يصل إلى يدي، وانكسر. أما ذو الشارب القيطاني الذي كان لم يفعل شيئًا حتى ذلك الوقت سوى أن نظر واجمًا، فما لبث أن قام هلعًا، وقال: « يا للفاجعة! ما خطبه؟!»

قام الرجل ذو القبعة الصوفية، ووقف عند رأس الرجل. كانت عينا الرجل شاخصة نحو السماء لا يرتد إليهما الطرف. وضع الرجل ذو الشارب يده على كتف الرجل وهزه عدة مرات، وقال: « يا مَشْدي، يا مَشْدي انهض، لا حول ولا قوة إلا بالله ماذا حدث لك؟ انهض.»

أما الرجل فقد ظل يحدق إلى السماء دون أن يحرك ساكنًا، وفي الوقت ذاته كان شدقه لا يزال يزبد زبدًا أصفر. أدار الشاب ذو الشارب القيطاني هذه المرة رأسه ملتفتًا إلى

الحوذي، وقال: «توقف أيها المَشْدي. توقف يبدو أن خطبًا ما قد دهم.»

استدار الحوذي، وألقى نظرة داخل العربة. فلما أن رأى الرجل ملقى على أرضية العربة، أوقف الحصانين، وقال: «يا إلهي!»

ثم جاء إلى مؤخرة العربة، وقال: «ما الخطب؟!»

قال الرجل ذو القبعة الصوفية: «أظنه فارق الحياة، كان عليلًا منذ البداية، وها قد نفد أجله هنا.»

فقال الحوذي: «لا إله إلا الله! كيف جاء هكذا من تلقاء نفسه، ووقف إلى جانب الطريق، وركب، وباغته الموت هكذا.»

فقال الرجل: «لم يركب العربة من تلقاء نفسه (مشيرًا إلى الرجل ذي الشارب القيطاني) هذا أعانه على الركوب. وما أدراك أنه قد جاء بنفسه إلى جانب الطريق، لعله قد جيء به.»

فقال الحوذي: «ماذا تقصد؟!»

قال الرجل: «يقينًا أنه قد ابتلي بمرض معدٍ، وأُريد التخلص منه، فتُرك على قارعة الطريق. وحينئذٍ...»

فقال الرجل ذو الشارب: « مرض معدٍ؟... أي مرض ذاك؟!»

قلَّب الحوذي الهرم كفيه ظهرًا لبطن متحسرًا، ثم قال: «يا ويلتاه!... مع هذه الريح الحارة...»

وقال الرجل ذو القبعة: «وباء الكوليرا(5)... رياح الحرور في مدينة شهريار تجلب الوباء.»

هذه المرة ضرب الحوذي بكلتا يديه على رأسه، وما لبث أن قال: «انظر أي بلية حلت بي من وراء عشرة شاهيات.»

نظر الشاب ذو الشارب القيطاني إلى يديه، وقال واجفًا: «أنا.... أنا لمسته... أخذت بيده لكي يصعد العربة ويدخل.»

حينها تذكرت أني كنت قد أخذت كوب الماء من يد الرجل. قال الرجل بجانبي: «رياح الحرور هذه... هذه الحرور نفسها أفتك مما وقع هنا، وإني لأخشى أن نُبتلى جميعًا.»

عندئذٍ ناح الشاب ذو الشارب القيطاني: «وا حسراتاه! سنموت جميعًا!»

الفصل الثالث

عندما وصلنا إلى المنزل كان رأسي يضج بالأسئلة، وكنت مشوشًا. استرجعت في ذهني مذكرات رضا قُلي ميرزا كلمة كلمة، علني أجد إجابات عن أسئلتي. لكنها لم تكن تتعلق بما كان قد حدث أو بزمان حدوثه. كان قصر نُويان خان لا يزال قصرًا غامضًا تقع فيه جملة من الأحداث الغريبة، أحدث ليس لها تفسير منطقي. كانت أحداث القصة لم تنته بعد، وبوسعي أن أكون جزءًا منها إذا أردت.

لقد تأملت كثيرًا في معنى الماضي، والحاضر. أعتقد أن الماضي هو شيء ابتعد عنك، دون أن يترك فيك أي أثر. لقد انقضى وولّى. أما الحاضر فهو شيء لا تزال مرتبطًا به، شيء تشعر به، ولا تعرف إلامَ سيفضي في النهاية. كم من الأمور التي تحدث حولنا هذه الأيام، لكنها باتت طيفًا من الماضي، لأنها قد انتهت بالنسبة لنا. وكصديق يتنكر لصداقته بغتة وما يلبث أن يمضي لحال سبيله سيمضي هذا اليوم، ولكن عندما يمضى يبدو وكأنه قد مضى قبل مائة عام، لأن كل شيء سيكون انتهى بالنسبة لك في الحال، فتفرغ ذهنك منه، حتى يمضي بدوره إلى أيام الماضي البعيد. والآن إذا عاد لتوه، يكن ابن الماضي لا وليد اليوم. وما يوم غد وبعد غد وكل تلكم الأيام التي لم تأت بعد هي الأخرى نسبة لذلك سوى

جزء من الماضي.

أما إذا وقع شيء من أحداث يوم أمس، أو الأسبوع الماضي، أو قبل شهر أو حتى مائة سنة مضت، لكنما الشعور به لا يزال يحيا بداخلك، فإن ذلك الحدث ينتمي إلى اليوم، ينتمي إلى الحاضر، ينتمي إلى الوقت الذي اتصلت فيه به، ولم ينته. بهذه الطريقة التي كنت أنظر بها إلى الأمور، رأيت أني جزء من ذلك الماضي، ولكن يبدو الحال وكأني أبتعد عنه، أريد أن أنساه، أريد أن أقف إزاءه صامتًا.

ظللت صامتًا في السيارة معظم الوقت، كنت أجيب على قدر السؤال لا أكثر. ماذا كان يعني هذا؟ هل كنت خائفًا؟ هل تراجعت؟ أم هل كنت أفكر في يوم أتمكن فيه من النفاذ إلى الماضي؟ لم أبتعد عن نفسي إلى هذا الحد قط، لم أبد في نظر نفسي غريبًا ومجهولًا إلى هذا الحد قط. وددت لو أستفسر من أحد عن نفسي، ولكن ما كان هناك من أحد. كنت مضطرًا إلى أن أجيب عن سؤالي. كان عليّ أن أُبدي رأيًا حول نفسي، كان عليّ أن أراجع نفسي مرة أخرى.

كنت آخر من أغلق باب السيارة. وقد تخلفت عن الآخرين في الركوب، ربما لأنني كنت لا أزال ألتمس رؤية جداران القصر البيضاء التي كانت تتوارت خلف منعطف الزقاق. هذه المرة جلست ليلى على المقعد الأمامي، وأنا جلست بالخلف.

وضع أبي كلتا يديه على مقود السيارة، ونظر إلى الطريق أمامه. مرَّ مأمور البلدية من أمام السيارة، وما لبث أن مضى. كان أبي سارحًا. سألته ليلى مستغربة: «ألن نذهب؟»

أدار أبي محرك السيارة، ثم استدار، ونظر خلفه، ورجع بالسيارة إلى الوراء. نظرت خلفي، ورأيت مأمور البلدية يتقدم بخطى مسرعة. كان ظهر سُترته مكرمشًا، وصلعة رأسه الزاحفة إلى الخلف تتبدى كدائرة بيضاء كبيرة. أوشك أن يسد طريقنا، فلما اقترب أبي منه ضرب بوقًا قصيرًا، فتنحى مأمور البلدية جانبًا. وعندما مررنا بجانبه، خفض أبي زجاج السيارة، وقال: «هلاّ جئت كي نذهب معًا إلى حيث تريد؟!»

ودون أن ينظر مأمور البلدية إلى أبي، لوح بيديه، وقال: «لا داعي، تفضل أنت.»

لقد استغرقنا وقتا طويلًا حتى قطعنا طريق الخروج من الزقاق بالرجوع بالسيارة إلى الخلف، وعلى طول ممر الزقاق رحت أفكر في رضا قُلي ميرزا حينما كان يقطع هذا الزقاق ذهابًا وإيابًا مرات ومرات، كذلك فكرت في الناس الذين كانوا يجتازون الممرات المحيطة. وكلما أرهفت السمع، كان بوسعي أن أسمع صوت عجلات العربات التي كانت تمر هناك. كان بوسعي سماع ارتجافة الأرض تحت سنابك الخيل وإنها

تقطع براكبيها طريقها في الأزقة سريعًا. كنت أسمع أصوات الصبية الذين كانوا يقرأون خطط تصميم السجاد وينفذونها داخل غرف قصر نويان خان العديدة، والصبية الذين كانوا ينتحبون تحت وطأة ضربات العصا، وفي غمرة أوقات معاناتهم المريرة لم يكن ليتذكرهم أحد.

«...أليس كذلك؟»

كرر: «أليس كذلك؟!»

قال أبي: «فيمَ انشغل عقلك؟!»

- «ماذا؟»

- «سألتك عن أن مذكرات رضا قُلي ميرزا لم يُذكر فيها شيء عن الهنود، أليس كذلك؟»

- «مذكرات رضا قُلي...»

سرحت قليلًا، وتذكرت قصة المنطاد. أردفت قائلًا: «في موضع واحد فقط، وقتما تحدث عن المنطاد الهوائي...»

قال أبي: «أتذكر ذلك. ولكن الرجل الذي قد يكون جاء إلى المبنى، قصر نُويان خان نفسه، هل له علاقة بما جرى هنالك؟!»

- «لا، لم يكن هنالك مثل هذا الرجل.»

عندما وصلنا إلى آخر الزقاق، استدار أبي بالسيارة، ومضى إلى الأمام. ثم ما لبث أن كرر في نفسه: «هندي...»

قالت ليلى: «كيف لم نره؟ أيعقل أن يقف وراءنا أحد ولا نراه؟»

فقال أبي: «كنا مشغولين لذروتنا في التفاوض ليُسمح لنا بالدخول، ربما قد جاء أحدهم في ذلك الوقت ووقف وراءنا.»

فقلت: «ولماذا لم ينطق بكلمة، لم يبد أي حركة أو تصرف لكي ننتبه لوجوده؟»

فضحكت ليلى، وقالت: «أصبح الأمر مخيفًا، هل كان ثمة شبح خلفنا؟!»

فقال أبي: «قد يكون مأمور البلدية رمى بكلمة عنه، وعلى هذا النحو يستدرجنا في الحديث، ويرى ما سنفعل.»

وصلنا بالسيارة إلى شارع مكتظ بالسيارات والدراجات النارية. قالت ليلى: «وماذا عن بقية كلامه أن هنالك شخصًا ما يدخل القصر ليلًا ويثير الفوضى في المكان؟!»

ثم قالت هامسة: «ربما بعض الناس يخرجون من الحوض، أو ربما أولئك الذين كانوا قد دُفنوا في الجدار... يا إلهي...

لقد أصبح الأمر مخيفًا جدًا.»

فقال أبي: «أغلب هذا الكلام مجرد أوهام وتخيلات، عندما يُقال عن مكان أنه غريب، فإن الناس عادة ما يشيعون حوله كثيرًا من هذا الكلام.»

ثم أدار رأسه للوراء قليلًا، وقال: «ماذا تقول في هذا يا مجيد، ما رأيك؟»

أخبرته بما كنت أفكر فيه في ذلك الوقت: «ماذا بشأن تلك القبعة؟ لقد رأينا ثلاثتنا تلك القبعة عندما سقطت. ثم لم يعد لها وجود.»

فقال أبي: «ربما أنها...»

وبعد ذلك صمت. كانت السيارات عالقة في الطريق توقفت بعضها خلف بعض، ولم يعد ممكنًا التقدم في المسير. مرت بضع دقائق في صمت، ثم قال أبي: «كان هدفنا من الذهاب إلى ذلك القصر هو معرفة أما ذكره رضا قُلي ميرزا هذا صحيح أم لا. وعرفنا أنه كان صحيحًا، فكل ما ذكره كان حقيقيًا. أعتقد أن هذا كاف لنا، وإلا فهناك الكثير من الألغاز التي لم تُحل في هذه الدنيا، كمثلث برمودا مثلًا، أو أشياء أخرى كثيرة.»

وبعد ذلك، لم ينطق أحدنا بكلمة إلى أن وصلنا إلى المنزل.

عندما وصلنا كان قد نال زحام الطريق منا، والأفكار الغريبة. كان لا يزال في الثلاجة بقية من الطعام الذي كانت الجدة طاهرة قد طبخته. سخنا الطعام، وتناولناه في صمت. بعد الغذاء انصرف كل منا إلى شأنه، أما ليلى فذهبت إلى صفوف التقوية، وأما أنا وأبي فذهب كل منا إلى غرفته. استلقيت على الفراش، ورحت أفكر فيما مررنا به. لم تكد تمضي ساعة من الوقت، حتى كان أبي قد غيَّر ثيابه، وتقدم نحو الغرفة، ونظر إليَّ قائلًا: «حسبتك نائمًا.»

- «لا، كنت ممدًا هكذا.»

- «سوف أذهب إلى أحد أصدقائي، لنتناقش في أمر ما. قد أتأخر إلى ما بعد المساء.»

- «وقتًا طيبًا.»

ودعني أبي، ومضى. تمددت بضع دقائق في فراشي صامتًا، ومرة أخرى تساءلت في قرارة نفسي. تُرى ماذا تعني تصرفاتي تلك؟ أي شخص أكون؟ ثم فجأة توصلت إلى أنه ربما لا يتسنى لي أن أفهم أي نوع من الأشخاص أكون، ولكن بوسعي أن أتبع سلوك الشخص الذي أحب أن أكونه. فما كان مني إلا أن نهضت، وبدلت ثيابي، وانطلقت مُسرعًا خارج البيت، لأتمكن من الوصول إلى حي عود لاجان قبل مغيب

الشمس.

الفصل الرابع

أنزلنا جثة الرجل المتوفى من العربة. مرر الحوذي والشاب ذو الشارب القيطاني بحذر حبلًا من تحت جسده، لئلا يضطران إلى لمسه. بعد ذلك وبمساعدة الرجل المعتمر القبعة الصوفية أنزلوه من العربة. عاونتهم على ذلك أيضًا، فأمسكت بطرف من الحبل. أما طفلتا الرجل ذي القبعة الصوفية فمن دون أن تنطقا بكلمة ألصقتا رأسيهما بصدر أمهما كل واحدة من ناحية، وجعلتا تنظران إلينا في خوف. وعلى هذا راحت أمهما تلف ذراعيها حول بنتيها، وتحرك رأسها في رفق من جانب إلى جانب. لشد ما كانت الجثة ثقيلة، لذلك توعَّر علينا إنزالها، حتى وضعناها على جانب الطريق. أشار الحوذي بأن نحفر له قبرًا، وندفنه، بيد أن الرجل ذا القبعة أخبرنا أن البقاء بجانب تلك الجثة مع عصف هذه الرياح الحارة إن لم نكن قد ابتلينا بعد فإنه حتمًا سيصيبنا. لذلك حثا الحوذي على عجل قدرًا من التراب على الجثة، وطلب منا أن نغسل أيدينا. بللنا أيدينا، ثم عفرناها بالتراب، ثم شطفناها بمياه الجرة. عند ذاك ركبنا العربة، وراحت تشق بنا الطريق والحرور تلفح وجوهنا لفحًا.

ويكأنه لم يكن مستهل فصل الخريف، إذ ظل قيظ الجو يُعيِي المرء. وكما لو أن الحوذي عازم على الفرار من أحد

ما أو من شيء، لم ينفك عن ضرب الخيل بالسوط، ولم يأل جهدًا لينطلق بأقصى سرعة. لكنما العربة المتهالكة والخيلان العجوزان المربوطان إليها، لم يمكناه من أن يسرع في السير. كان ماء الجرة قد نفد، ولم يكن خان للمسافرين آخر على الطريق قبل طهران حتى نستقي منه الماء. ولم يكن الذهاب إلى إحدى القرى في النواحي يصلح أيضًا، لأنه إذا كان وباء الكوليرا قد وصل إليها، فلا غرو أن يصيبنا, لذا سلكنا الطريق بلا توقف. وإبان الغروب وقتما كان الجو آخذًا في الإظلام، سأل الشاب ذو الشارب القيطاني الحوذي: «كم تبقي لنصل يا عم؟!»

فأجابه الحوذي: «قليل جدًا، لقد شارفنا الوصول.»

وقت ذاك، لاحت أمامنا عربة كانت تقريبًا في مثل حجم عربتنا وهيئتها، وقد جلس آخرها بعض الركاب. عندما التقت العربتان، قال حوذي عربتنا لحوذي العربة المقابلة: «الله يقويك!»

أما سائق العربة المقابلة فرد عليه بأن سحب زمام حصانيه، وما لبث أن قال: «لا تذهبوا لن يسمحوا بدخول المدينة، عودوا.»

لقد استغربنا جميعًا من كلامه، فقال حوذي عربتنا: «لماذا؟! ما الأمر؟!»

فرد سائق العربة المقابل: «لأن....»

وبعد ذلك، وعوضًا عن أن يقول كلمة أخرى، وضع طرف لسانه خلف أسنانه الأمامية، وأطلق صفرة داوية، ثم هم بالمضيّ، وانطلق في طريقه دون أن ينبس بذات شفة. أما الشاب ذو الشارب فما لبث أن ذهل من تصرفه هذا، وهتف فيه قائلًا: «ماذا تقصد؟! لمَ لا يسمحون بالدخول؟!»

وراح سائق العربة المقابلة الذي كان قد ابتعد لتوه، دون أن يجيب، يرفع سوطه و يهوي به على جسد الحصانين، حتى ما لبث أن جَدَّ في الابتعاد عنا. تلبث حوذي عربتنا مُطرقًا في مكانه، ثم التفت إلى الشاب ذي الشارب القيطاني، وقال: «ألم تسمع لأن.... »

ثم فعل مثلما فعل سائق العربة السابق بأن وضع طرف لسانه خلف أسنانه الأمامية حتى كادت تسقط، وصفر صفيرًا عاليًا. أما الشاب ذو الشارب الذي كان قد استاء من فعلتهما تلك، فقال: «ماذا نفهم الآن من هذا الصفير الذي يصفرانه؟ أيهزآن بنا؟!»

حينئذٍ تدخل الرجل ذو القبعة الصوفية في الحديث، وقال: «هذا الصفير يعني الوباء، يعني الكوليرا. إنهم لا يلفظون اسمه لئلا يتفاقم، وبدلاً من ذلك يصفرون. ما دمت لم تنطق

اسم المرض، فإنه لن ينتشر.»

فقال ذو الشارب القيطاني: «حسنًا، والآن لمَ لا يدعون أحدًا يدخل المدينة؟»

هذه المرة قال الحوذي الذي كان قد ضاق ذرعًا: «إنهم لا يريدون أن ينتقل الوباء إلى المدينة، لئلا يصاب أهل المدينة، فمن المحتمل كالعادة أن تكون مدينة شهريار منشأ الوباء.»

بصق الرجل ذو الشارب في زاوية العربة، وقال: «يا لنكد الطالع! وما عسانا نفعل الآن؟»

فقال الحوذي: «لا شيء، يجدر بنا أن نعود.»

فقال ذو الشارب: «ولكن لا يمكننا العودة هكذا.»

فقال الحوذي: «ولمَ لا؟ ألم تسمع بنفسك ما قال؟ قال إنهم لا يسمحون بدخول المدينة.»

فقال الرجل ذو القبعة الصوفية الذي كانت اعترته حالة من الصمت: «الآن لا ينبغي أن نعود استنادًا إلى مزعم شخص، لنتقدم إلى بوابة دخول طهران، عسى أن يأتي الله بالفرج، ونتمكن من دخول المدينة.»

شد هذا الكلام من أزر الشاب ذي الشارب القيطاني، فراح يقول: «إنه محق، لقد أخذت منا أجرة لتوصلنا إلى طهران،

والآن حقيق عليك أن تتقدم بنا بأي طريقة كانت، لا أن تتخلى عنا وسط الطريق تحت أي ذريعة.»

أومأ الحوذي برأسه، وقال: «إن كنت تقصد الخطوات القليلات المتبقيات تلك، فلا بأس سوف أذهب بكم إلى بوابة دخول طهران.»

وانطلق بالعربة. وما لبثت أن تساءلت ماذا يجدر بي أن أفعل الآن. لم أكن أروم أوبة، وألقي كل أحلامي في غياهب النسيان. فطوال الوقت الذي أمضيته في قريتي بعدما أفلت من قبضة نُويان خان، كنت أرتجي هذا الأمر أن أعود إلى الميرزا حسن خان، لأدرس، وأصبح الشخص الذي آمل أن أكونه. وفي أثناء مجيئه معي بنفسه من طهران إلى سلطان آباد ظل يردد على مسامعي أنه لا سبيل لأن أعد لنفسي مستقبلًا واعدًا إلا بالدارسة والتعلم. والآن إن انقلبت عائدًا إلى قريتي، فلن يسعني المجيء إلى طهران مرة بعد. كنت غارقًا في هذه الهواجس حتى عسعس الظلام رويدًا رويدًا، وغشى الوجود كله. كان بوسعي أن أرى في الظلام تكدس العربات المختلفة التي توقفت أمام بوابة طهران عالقة بلا وجهة. ومع رؤية ذاك المشهد، قال الحوذي: «ها قد تعطلت كل العربات هنا، من الجلي أن ذاك الرجل كان مُحقًا.»

فقال الرجل الذي يرتدي القبعة الصوفية: «تقدم، اذهب إلى

حيث شاء الله لك أن تذهب، عسى أن تُفرج!»

فقال الحوذي: «حسنًا، ولكني على يقين من أننا سوف نعود من أي طريق نذهب إليه.»

وبمجرد أن تقدمنا، سكَّ أسماعنا صراخ وصياح، وبكاء ونحيب. قال الشاب ذو الشارب القيطاني: «ما هذا العجّ والنخ؟!»

فقال الحوذي: «إنهم جنود حفظ الأمن، وجنود النواقل(6) يهاجمون الناس.»

وصلنا إلى مجموعة من العربات المختلفة التي كانت تكدست بلا نظم بعضها قرب الآخر. وعلى مسافة منها كان بوسع المرء أن يلمح طيف بوابة طهران بمنارتيها القصيرتين، إذ ربما كانت على بعد مائتي قدم منا أو ثلاثمائة. شد الحوذي سير الحصانين، وأوقف العربة، وقال: «حسنًا، ها قد وصلنا، لِنَرَ الآن أمن الممكن أن يحدث ذاك الفرج الذي تحدثت عنه أم لا.»

اشرأب الرجل ذو القبعة برأسه بينما كان يتهامس مع زوجه، ثم قال: «في النهاية سيجد كل هؤلاء الواقفون هنا طريقًا للذهاب...»

لكنه قبل أن يتم كلامه، جاء إلى عربتنا جندي من جنود

الأمن، كان سمينًا قصير القامة وقد رفع قبعته وأمسك بهراوة سميكة، وانهال بهراوته طرقًا على السياج الجانبي للعربة، حتى حطمه، ثم من بعد ذلك زعق بنا بصوت خشن أجش: «يا أبناء المحاريق، يا معدومي المروءة، ماذا تفعلون هنا؟ هيا ارجعوا، ارجعوا وإلا أضرمت فيكم وفي آبائكم النيران، هيا...»

ومع حركته وصوته، هبت طفلتا الرجل ذي القبعة اللتان كانتا نائمتين من الرقاد فزعتين وأخذتا تصرخان وتبكيان. احتضنت الأم ابنتيها، وضمتهما إليها. أما أنا والرجلان داخل العربة فكنا واجفين لا حول لنا ولا قوة، نرقب الجندي فحسب. ولما وجد جندي الأمن أن أحدًا لم يحرك ساكنًا، جعل يهوي بهراوته على أرضية العربة ثانية يدكها، وقال: «ألم تسمعوا ما قلته؟ هيا انقلبوا إلى مقابركم اللعينة التي جئتمونا منها.»

فض الرجل المعتمر القبعة صمته من بيننا، وقال: «لماذا إذن؟ لقد قطعنا طريقًا طويلًا، حتى قدمنا إلى هنا...»

صاح جندي الأمن عاليًا: «أقطعت إلى هنا طريقًا طويلًا، حتى تجلب معك (ثم صفر بفمه)، كي تقود أحد البائسين إلى الموت صريعًا؟!... هيا... هيا عُد.»

هذه المرة حلَّ الشاب ذو الشارب عقدة لسانه، وقال: «أي

كوليرا هذه؟! نحن جميعًا سالمون.»

حينئذٍ غلت مراجل الجندي، وصرخ قائلًا: «لا تتلفظ به... لا تتلفظ به أيها اللعين، لا تنطق اسمه، لهذا السبب يجب ألا نسمح لكم معشر القرويين بالدخول، لا بد أنك عازم على دخول المدينة، ولا تفتأ تلهج بذكر هذا البؤس مرة تلو مرة، ريثما يُبتلى به الجميع،... عودوا هيا، لئلا أرديكم جميعًا صرعى.»

هذه المرة تعاظم خوفنا، ودون أن ينبس الحوذي ببنت شفة شد لجام حصانيه، وأدار عربته وعاد سمت المكان الذي كنا قد جئنا منه. ولم نكد نبتعد بضع خطوات، حتى قال: «يا لبشائر الفرج! أرأيتم كيف كان كلامي صحيحًا؟! أما زلتم تصرون بعد؟ لو أنَّا عدنا وقتذاك، لكنا اجتزنا طريقًا طويلًا الآن.»

أما الرجل ذو القبعة الذي كان يضم إحدى بنتيه، فما لبث أن قال: «لا سامحهم الله على إجلائهم الناس على هذا النحو. منذ زمن ونحن ندخر المال جانبًا كي نوفر أجرة الطريق ونتمكن من المجيء إلى طهران لدى أهل زوجي. لقد انهار كل شيء!»

قال ذو الشارب القيطاني: «ما بالك بي وقد شددت رحالي بغية العمل في البازار. تبًا إذ كان عمي قد أرسل لي مكتوبًا أن

تعال لقد عثرت على عمل لك. يا ضيعة الحظ!»

أما أنا فسرعان ما قلبت أمري ظهرًا لبطن وارتأيت أني لا أريد الرجوع أبدًا. وعليّ أن أبقى وأذهب إلى الميرزا حسن خان. فأوغلت يدي في جيب قميصي، وتناولت قرانين، وقبضت عليهما في راحة يدي، فالتفت إلى الحوذي وهتفت: «توقف، سوف أنزل.»

وعقب سماعه صوتي، نظر إليّ الرجل ذو القبعة الصوفية، وعائلته، والشاب ذو الشارب بعين العجب. وكأنّ الحوذي لم يسمعني واصل طريقه دون أن يلتفت إليّ وينظر. هتفت مرة بعد: «توقف... توقف، سوف أنزل.»

هذه المرة استدار الحوذي، وأزلقني ببصره قائلًا: «أتراك خُولِطت في عقلك أيها الولد؟! لأي غاية تنزل؟! لتهيم على وجهك في الطُرقات، وتصيبك العدوى؟!»

فقلت: «توقف، أعرف ما يتوجب عليّ فعله.»

فقال الحوذي: «كلا، لقد أوصاني أبوك أن أعتني بك.»

فطلبت منه أن يتوقف مرة بعد، وقمت، والتقط بقجتي. ثم إني وضعت بجانب الحوذي تينك المسكوكتين، وذهبت إلى مُنتهى العربة، وهتفت مرة أخرى: «توقف.»

فما كان من الحوذي إلا أن شد لجام الحصانين، وقال: «عليك اللعنة... انزل، أنت وما اخترته.»

وفورئذٍ قفزت من العربة. لقد انثنت ركبتاي، والتوى كاحليّ، غير أني نهضت ودون أن أفتح فمي سرت تجاه بوابة الدخول وهؤلاء الذين كانوا منتشرين حولها. في الوقت عينه مضت العربة، وقال الحوذي شيئًا لم أسمعه، ولم أكن أريد أن أسمعه، لأنني كنت قد عزمت على المسير، ولم أعد أبالي بما قاله هو أو الآخرون. مشيت في تلك الظلماء، ومرت بي عربتان قادمتان من الاتجاه المقابل. أسرعت خطاي، إذ كنت عازمًا على المضي سريعًا في أمري. وصلت إلى طائفة من المتجمهرين أمام مدخل البوابة، حيث كان الناس يتجادلون مع جنود النواقل. وكان صوت صراخهم جميعًا يعلو ويبلغ المسامع. انحرفت جانبًا، وتفاديت الزحام، وحاولت أن أوصل نفسي متحاشيًا الآخرين إلى البوابة. شيئًا فشيئًا صار المكان من حوالي خاليًا، وكان بوسعي في تلكم الظلماء أن أبصر ظل البوابة ممتدًا عن يساري. ولكن للوصول إلى البوابة، كان عليّ أن أشق طريقي وسط الجموع. مرة ثانية رحت أقترب قليلًا قليلًا من حشود الناس، حتى رأيت في الظلام بعض نفر مستلقين على الأرض. ولما تخايلت أنهم ابتعدوا عن الناس، وتمددوا على الأرض ليروا ما سيصير من بعد، لم أجد كراهة في أن أمضي بجانبهم، أتوسد بقجتي،

وأستلقي أنا الآخر على الأرض. لكنني ما تقدمت إلا ورأيت رجلين يحملان رجلًا ثالثًا وكانا يجرانه معهما بصعوبة، حتى ما لبثا أن وصلا به فوضعاه بجانب أولاء الذين كانوا ممددين أرضًا. بدأت أفهم أن أولئك الذين كانوا مستلقين على الأرض، قد ماتوا، و ليسوا مجرد أناس نائمين. لا غرو أنهم قد ماتوا موبوئين. تبدى لي الوضع حينها أسوأ مما كنت أتصور. شعرت بالخوف، وللحظة أردت أن أعود وألوذ بنفسي إلى سلطان آباد وإلى داري بأي طريقة. تراجعت نحو خطوتين، ولكن في ذلك الوقت أتاني أحد من وراء ظهري قائلًا: «ماذا تفعل هنا؟»

استدرت ونظرت ورائي، كان شابًا يبلغ من العمر نحو بضع وعشرين، يرتدي قباء طويلًا أسود اللون، ويعتمر طربوشًا باللون ذاته. كان حليق الشارب واللحية، ويضع على عينيه نظارة دائرية رقيقة. كلَّ لساني، وجمدت قريحتي، فبعدما رأيت أولئك الموتى، ها قد ارتعدت لرؤيته فقلت: «أنا...أنا... جئت هنا...»

وعجبت ماذا عليَّ أن أقول، حتى قال هو: «أيكون فرج الله خان قد أرسلك؟!»

مرة أخرى تلعثمت، وقلت: «فرج الله خان...»

وددت لو أسأله من يكون فرج الله خان، غير أنه أردف

قائلًا: «يا للعجب... طلبت منه أن يرسل لي أحدًا، لكي يقوم ببعض المهام... أي عون ذاك يُرجى أن يقدمه صبي صغير هزيل البنية مثلك في مثل هذا الوضع؟!»

أخذت نفسًا عميقًا هذه المرة، وقلت: «يمكنني أن أساعدك، إني أجيد تأدية الكثير من المهام.»

ضحك الشاب، ثم قال: «هل تعلم كيف يُصنع الدواء؟ أم هل يمكنك نقل الموتى من مكان لآخر؟ هذا هو السبب في أن وضعنا على هذا النحو، فلا أحد في المكان الملائم له. أقول لهم إني بفردي أرسلوا لي أحدًا ليعينني، فما يكون منهم عندئذٍ إلا أن يرسلوا لي صبيًا. والآن شكرًا لله إذ أرسلوا واحدًا، فإني منذ الصباح أبعث إلى فرج الله خان مرة تلو المرة، ولم يرسل لي أحدًا، لذلك يتردى وضعنا على هذا النحو، كيف لا وأي شيء تطلبه من أي أحد لا يُنفذ وكأنه لم يُطلب أصلًا، فكلهم يعيرك أذنًا صماء. الآن ماذا عساي أفعل بصبي حدث؟ يا الله! يرسلون صبيًا لا ينبغي في سنه هذه أن يرى جثة. إني لأمسك الجنود عن إحضار الجثث. كيف أعقمها؟ أيعقل أصلًا أن أعالج كل مشكلة بالفورمالين؟! علينا دفن هؤلاء الناس. من ذا الذي يتولى دفنهم؟ أنا؟ أم أنت ببنيتك الضئيلة هذه؟ والآن لا يزالون يتساءلون لماذا وضعنا سيئ هكذا، بل حتى بعد أن ألف سنة من الآن، لن ينصلح لنا

أمر...»

كان الشاب يتلفت حوله وإنه يتكلم، أما أنا فكنت أنظر إليه مذهولًا. وفي نهاية الأمر قطع كلامه، والتفت صوبي قائلًا: «هل يمكنك إحضار الفورمالين؟»

وأنا الذي لم أكن أفهم كلامه، رحت أحملق إليه مثل قبل، ولم أقل شيئًا. فطن إلى أنني لم أدرك كنه مراده. فبرم شفتيه، وأطبق واحدة على الأخرى، ثم مكث هنيهة، وأشار إلى الجدار خلفنا، وقال: «هل ترى هذا الجدار؟»

فقلت: «نعم.»

قال: «سر محاذيًا لهذا الجدار حتى النهاية، ثم بعد أن تنعطف تجد خلف الجدار غرفة الجنود، أمام الغرفة هنالك عدد من البراميل الخشبية الصغيرة مكتوب عليها بخط واضح أصفر اللون...»

عندما وصل بكلامه إلى هنا، بدل نبرة صوته، وقال: «هل يمكنك القراءة؟»

فقلت: «لا.»

فقال: «لا بأس... هنالك شيء ما قد كُتب عليها باللون الأصفر، اذهب واحضر أحد هذه البراميل لي.»

ومضى نحو الجثث، كذلك وضعت بقجتي على الأرض، واستدرت متجهًا إلى الجدار، لكنه ما لبث أن هتف بي مرة ثانية: «انتظر!»

التفت إليه، فقال: «سر بجانب الجدار، المكان حولك مدجج بالحُفر، لئلا تقع في إحداها في تلك الظلماء.»

فقلت: «أمرك.»

وما كدت أهم بالسير، حتى قال مرة ثانية: «انتظر!»

وقفت، ونظرت إليه. قال: «عندما تحضر ليس عليك أن تقترب من مكان الجثث، قف في موضعك، وناديني، حتى آتيك، و أحمله عنك.»

مرة أخرى أجبته إلى ما طلب، وسرت باتجاه الجدار. وفي أثناء سيري أنعمت النظر فرأيت جثثًا كانت قد نُثرت في غير موضع قليلًا هنا وقليلًا هناك. والآن إذ كنت أسير بمفردي، توجست خيفة من أن أدنو من الجثث. أقرسني البرد، وبت أرعد وأرتعد. كانت ظلال الصحراء لا تزال مظلمة ومخيفة وتثير في النفس رعبًا جامحًا، لو أن القمر قد سطع وأنار الدُجى. أشحت ببصري عما حولي، وحاولت ألا أنظر إلا صوبي. أدنيت نفسي من الجدار، حتى صارت كتفي تحف به، هكذا على الأقل، بدأت أشعر بالأمان عن جانبي. وصلت إلى

نهاية الجدار. استدرت إلى جهة اليمين، وعندئذٍ رأيت غرفة الجنود المبنية من الطوب اللبن في حين كان بابها مفتوحًا، وداخلها مظلمًا. تقدمت وقرب باب الغرفة وجدت أربعة براميل خشبية صغيرة كانت قد نضدت بعضها إلى جانب بعض. تقدمت وأسرعت في طريقي إلى الأمام، وميزت اللون الأصفر للكتابات المنقوشة عليها في نور القمر. انحنيت وتناولت أحد هذه البراميل. كان ينوء بي حمل البرميل على صغر حجمه. هكذا بصعوبة رفعته بكلتا يدي إلى صدري حاملًا إياه، وعدت من المسار نفسه الذي كنت قد قطعته مجيئًا. وكلما اقتربت أكثر، بصرت خيال الشاب وإنه يقف عند الجثث، ويتحدث بحدة إلى نفرين كانا يضعان جثة جديدة على الأرض. تقدمت، حتى وصلت إلى المكان الذي كنت تركت بُقجتي فيه، كما عاد الرجلان اللذان قد أحضرا الجثة. كان أحدهما نحيفًا ويعرج في مشيته، والآخر بدينًا وأقصر من زميله. وما كادا يبتعدان، حتى عاد الذي يعرج فيهما والتفت إلى الشاب وربما سارقني النظر أيضًا ثم وكأنما قال شيئًا. بيد أن الشاب لم ينتبه له، إذ كان منحنيًا على الجثث وكأنه يسكب عليها شيئًا. وقفت في مكاني، وهممت أن أناديه. ولما لم أكن أعرف له اسمًا، هتفت: «أنت... يا سيدي... أنت!»

لم يسمعني، فدعوته مرة بعد: «يا سيدي أنت... أنت...!»

هذه المرة رفع رأسه، ونظر إليَّ. ووضع الشيء الذي كان بيده على الأرض، ومضي نحوي. ولما صار على مسافة خطوتين أو ثلاث خطوات مني، فك المنديل الذي كان يكمم به فاه، وقال: «ماذا تعني أنت هذه؟... لكل امرئ منا اسم يُنادى به، اسمي نادر، نادر. يمكنك أن تدعوني نادر ميرزا أيضًا، لأني متعلم، لأني أجيد القراءة والكتابة.»

رفعت البرميل بمشقة لأعلى، ودفعت به تجاهه، ثم قلت: «تعال، لتحمله عني.»

تقدم، وأحذ مني البرميل، ثم قال: «ما اسمك؟»

فقلت: «رضا.»

فقال: «هل كان حمل البرميل ينوء بك؟!»

فقلت: «لا.»

فقال: «جيد... هذه البراميل هدية من الحكيم تولوزان(7)، جلبها لنا من بلاد الإفرنج. عشرة براميل من هذه كانت مخزنة في قبو دار الفنون. لم يكونوا يعطونها أحدًا، وضعوها فيه لتبقى على تلكم الحال، حتى يحل الخراب، ولسوء الحظ أني أخذت خمسة منها، كي أعقم الجثث.»

ثم ما لبث أن سألني: «أتعرف ما التعقيم؟»

فقلت: «كلا.»

فكر قليلًا، ثم قال: «هذا يعني التطهير.»

فقلت: «أما الميت فلا حاجة له في التطهير.»

فبرم شفتيه ثانية، ورفع يده إلى المنديل الذي كان ملفوفًا حول عنقه، وقال: «يجب أن يُطَهر هؤلاء الموتى.»

فقلت: «بسبب...»

وطفقت أصفُر. فضحك نادر، ثم قال: «لا داعي لأن تصفر. لا تخف، قل وباء الكوليرا. إن وباء الكوليرا لا ينتشر بذكر اسمه، بل إنه ليتفشى بعشرات الأشياء الأخريات، لا يراعيها أولاء الناس حق رعاية. أحدها هو هذا الأمر نفسه إذ يجب تعقيم الجثث أي تطهيرها، أي منع انتشار الميكروب. هل تعلم ماذا يعني الميكروب؟»

ثم تنهد، وقال: «يا إلهي، كم هنالك من أشياء يجب أن تتعلمها تلك الأُمة!»

ثم استدار أولًا، وألقى نظرة وراءه، وحينذاك التفت إليَّ قائلًا: «كم تبقى من هذه البراميل هناك؟»

فقلت: «ثلاثة براميل.»

ففك ثنايا المنديل حول عنقه، وقبل أن يسحبه رافعًا إياه

إلى فمه تارة أخرى، قال: «اذهب واحضر واحدًا آخر.»

فقلت: «حسنًا.»

وسرت تجاه الجدار. جاورته في سيري مرة أخرى، حتى وصلت إلى نهاية الجدار، واستدرت نحو غرفة الجنود التي كانت ثلاثة براميل لا تزال بجانبها. تسللت إلى باب الغرفة المفتوح، ووقفت أمامه، إذ تملكني الفضول لمعرفة ما بداخل الغرفة. برفق رحت أتفقدها من الداخل. كانت مظلمة، لا يكاد يضيئها إلا نور القمر الذي ينفذ من كُوَّة واحدة على الجدار. كانت هنالك طاولة في آخر الغرفة، وأشياء مبعثرة حولها. ولجت الغرفة بهدوء وحذر، حيث كان الجو داخل الغرفة باردًا. وما تقدمت خطوتين حتى كانت عينايَّ ألفتا الظلماء. وها قد رأيت بقربي طاولة كبيرة، وسريرًا خشبيًا كبيرًا لصيقًا بالجدار قد أُلقيت عليه عدد من المخدات الصغيرة. وكان قرب الطاولة عدد من أكياس الكتان الكبيرة والصغيرة مُلقاة أيضًا. وبينما كنت أطوف بنظري في المكان من حولي، تناهى إلى سمعي صوت شيء ثقيل يُجر على الأرض. نفرت من مكاني مستطيرًا من شدة الخوف، ونظرت ورائي. غير أنه لم يكن هنالك شيء. هطعت خارجًا من الغرفة، ومضيت. لكنني ما تقدمت في طريقي، حتى تذكرت أني لم آخذ معي البرميل. فعدت فرفعت أحد هذه البراميل

عن الأرض، وحملته، ثم سلكت طريقي عائدًا. تقدمت قليلًا، وأدركت منعطف الجدار، وحينئذٍ استرعى نظري ظل شيء ما أسود لونه ممتدًا على الأرض. تقصيت النظر، فألفيت جثة رجل ملقاة على الأرض. كانت جثة رجل نحيل يرتدي طقمًا أسود معفرًا بالتراب، وكان منبطحًا على الأرض بذراعين مفتوحتين. كان منكبًا على وجهه، وصلعة رأسه ضاربة إلى بياض لامع في النور المقمر.

جفلت لرؤية الجثة، فوقتما جئت، لم تكن الجثة موجودة. لا بد أني عندما كنت في الغرفة، أحضرها أحدهم وتركها هناك. نكصت خطوة، ورحت أنظر إلى الجثة من فوق البرميل الذي كنت أحمله، إذ كانت تعترض طريقي مباشرة، بحيث إني متى أردت مواصلة سيري على طول الجدار فلا مناص من أن أتخطاها لأكمل مسيري. كان هذا الأمر يخيفني، فاضطررت إلى الابتعاد عن الجدار، وهممت أن أخطو بتمهل وحذر وأمُرَّ بجانب الجثة. ولما صرت بجانب الجثة، لمحت بطرف عيني ذراعيها المفتوحتين على وسعيهما، بحيث كانت يدها اليسرى قرب قدمي. تجنبتها ومررت. والآن إذ باتت الجثة خلفي، تصورت للحظة أن الأمر قد تم بسلام، ومضيت في طريقي. ولما هممت بأن أتحرك متجهًا صوب الجدار، حينئذ على حين غفلة مني أمسكت بكاحلي يد خشنة باردة، وقبضت بشدة. ومع اختلال توازني،

استدرت ونظرت أسفل البرميل الذي أحمله، حيث كانت يد الجثة قابضة على ساقي. انتابني الفزع العظيم، فصرخت، وأفلت البرميل من بين يدي، فما كان إلا أن سقط وارتطم بالأرض ارتطامة قوية. فورئذٍ قبضت الجثة على ساقي الأخرى بيدها اليمني، وشدت إليها كلتا ساقي معًا، حتى وقعت على الأرض، نهضت الجثة، واجترت نفسها لتقف على رأسي بينما كان يخرج من أقصى حلقها صوت خرخرة مريعة. أما الجثة التي كانت قد أفلتت يداها العظميتان رجليَّ، فما لبثت أن هوت على منكبي، وغرزت أصابعها الحادة النافذة كالسفود في كتفي. أوشكت أن أموت رعبًا، عندما خاطبتني الجثة قائلة: «ها قد تمكنت منك أيها الكنود، أفِرارًا مني؟!»

ووقتما طالعت وجهها، كانت بشرتها المتغضنة الشاحبة الملساء تبدو مألوفة لي. لكنها بمجرد أن تكلمت، عرفت من صوتها الرفيع أن الجثة كانت فرُّوخًا.

الفصل الخامس

عادة ما يُغلق بازار طهران يوم الخميس ظهرًا، وبعد وقت قصير من إغلاقه تغدو كل الشوارع المحيطة به خاوية. وقتما وصلت إبان الغروب، كان ازدحام وصخب الصباح قد اختفى وحل محله هدوء نوعًا ما مثير للشجن. كانت سدائل المحال المواجهة للشارع مسحوبة، والأرصفة خالية من المشاة، كذلك كان حي عود لاجان خاليًا ربما أكثر من أي وقت آخر. كانت شمس الأصيل قد تحولت إلى اللون الأصفر، وعندما وصلت إلى زقاق صاحب الديوان راحت الرياح اللطيفة التي كانت تنساب إلى الزقاق تصفق بعض قطع الورق والكارتون فتطيِّرها هنا وهناك. أما إذا سألني أحد في تلك الأثناء عن سبب عودتي مرة ثانية إلى هناك، فلن أجد إجابة أجيبه بها. ربما كنت أفتش عن شخص يعلم شيئًا ليخبرني به.

ربما جئت لأرى كيف يبدو قصر نُويان خان في وقت تكتنفه فيه السكينة والهدوء. أيًا كان الأمر فإنني كنت قد أتيت إلى هناك وكان عليَّ أن أفعل شيئًا. في وسط الزقاق لفتت انتباهي ورشة تصنيع الحقائب بحقائبها الملونة المتدلية من واجهتها. فقلت لمَ لا أذهب ومرة أخرى أخلق حديثًا مع الفتية الذين كانوا يعملون فيها. ربما يعرفون

المزيد من المعلومات عن القصر، أو ربما كان لديهم كلام لم يقولوه في المرة الماضية، أو ربما منذ ذلك الوقت إلى الآن تكون أشياء جديدة قد بلغت مسامعهم عن القصر. انحرفت إلى الطريق المؤدية إلى الورشة، ووقفت أمام بابها الحديدي الذي كان ينخفض عن سطح الأرض. كان الباب مغلقًا، فطرقته مرتين ثلاثًا، لم يجب أحد. نظرت من حولي علَّ هناك جرس، فلم أجد شيئًا. مشيت إلى منعطف الزقاق، المكان الذي يفضي إلى قصر نويان خان. كانت الرياح التي تتهادى إلى الزقاق قد اشتدت. اجتزت منعطف الزقاق، ووصلت إلى أمام القصر الذي كان بابه الحديدي مواربًا. شيء ما حاك في صدري، وأخذت نبضات قلبي تتسارع. وقفت قليلًا أمام الباب نصف المفتوح، ثم دفعته برفق. انفتح الباب وتبدى أمام عيني دهليز القصر المظلم. كانت الرياح التي تهب على الدهليز تلفح وجهي. وطئت بتأن عتبة الباب فصرت إلى الداخل، ثم إلى الدهليز.

لم أكن أستطيع رؤية شيء في فضاء الممر المظلم اللهم إلا بعض نور كان يسطع في نهايته. اجتزت الدهليز ومنه دخلت الفناء، لم يكن هنالك من أحد. ومثل شخص مغلوب على أمره تقدمت خطوة خطوة بقدمين بدتا مخشوشبتين غير مرنتين. لم يكن يسمع هنالك من صوت إلا حفيف الرياح التي كانت تداعب أغصان الأشجار الهرمة التي كانت

تطوق الفناء. وما كدت أتقدم بضع خطوات، حتى سمعت صوت ارتطام شيء ما أعلى القصر. نظرت إلى إيوان الطابق العلوي وإلى الدرابزين الخشبي الذي يسيجه، فلم يتبد لي شيء. تقدمت حتى وقفت إلى حافة الحوض الأسود الفارغ وسط القصر، وخفضت رأسي ناظرًا إلى ما بداخل الحوض، لم يكن هنالك شيء سوى الأشياء التي قد رأيت من قبل. كل ما أضيف إليها كان زجاجة مياه معدنية بلاستيكية، جعلت تتدحرج مع هبوب الرياح، وتتنقل هنا وهناك. ثبتُ نظري على الزجاجة، وشاهدت تلاعب الريح بها وتحريكها. فجأة سمعت صوت إغلاق باب القصر الحديدي، فكاد قلبي يتوقف. استدرت ونظرت ورائي. بات الأمر كما لو أني خفت من أن أُحبس داخل القصر. هرعت إلى باب القصر، ولم أكد أمضي بضع خطوات، حتى خرج أحد ما من الدهليز شبه المظلم، ووقف أمامي وجهًا لوجه. كان رجلًا فارع القامة، يرتدي طاقمًا من بنطال وقميص وسترة بلون أسود. لما أن رأيته تجمدت في مكاني. وقف للحظة في مكانه لم يبد حركة، ثم مرة ثانية بدأ يمشي متأنيًا. تقدمت أنا الآخر. ولما صار أحدنا يبعد عن الآخر مسافة ما يقرب من أربع خطوات، حينئذٍ قال الرجل: «تفضل، ماذا تريد؟!»

كان وجهه كوجه الحصان طويلًا مسحوبًا، و ذا شارب رفيع يمتد حتى طرفي شفته العليا، يتشبه بالأسيويين في

مظهره. لم أكن أعرف بمَ عليّ أن أجيبه، إذ كنت مرتبكًا. قلت: «ماذا؟!»

فتقدم الرجل، ووقف، وقال: «ماذا تفعل هنا؟»

كان صوته أجش على نحو يجعل مجرد سماعه يثير في النفس الرعب. ابتلعت ريقي، وقلت: «لا شيء... هنا... لقد جئت إلى هنا لألتقط صورًا.»

نظر إليّ نظرة توحي وكأني كنت لصًا، أو جئت لأرتكب جناية: «صور... أي صور؟...»

«صور تخص المهام المدرسية المكلف بها... أعد بحثًا... حصلت على إذن من البلدية.»

بعين الريبة ذاتها راح يتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي، وقال: «أين كاميرتك؟»

- «أنا أصور بكاميرا هاتفي النقال.»

ووضعت يدي في جيب قميصي الذي كان هاتفي فيه. كان الرجل يحدجني بنظرة تخترق جسدي كجذوة نار، وقال: «وهل صورت؟»

- «لا... الإضاءة ليست جيدة الآن، سأذهب، وآتي لاحقًا.»

وبدأت بالسير لأجتازه وأمضي. غير أنه باعد بين ساقيه،

واعترض طريقي.

- «أجئت لالتقاط الصور أم للبحث عن الكنز؟»

كان الأمر يحتدم. اضطرم جسدي، وحاولت أن أحتفظ بهدوئي.

- «كنز؟! وهل يوجد هنا كنز؟!»

رفع الرجل حاجبيه، وقال: «أليس كذلك؟»

- «وما أدراني. كان مأمور البلدية يردد مثل هذا الكلام أيضًا.»

انفرجت تجاعيد وجه الرجل، وقال: «هل تعرف مأمور البلدية ذاك؟»

للحظة شعرت أن مأمور البلدية نفسه هو سبيلي إلى التخلص منه. قلت: «نعم... إنني أعرفه، لقد قلت إنني حصلت على إذن من البلدية، تكلمت معه في الصباح، كذلك كان أبي موجودًا وأختي، لقد جئنا معًا في الصباح. أخبرتهم بعد الظهر أني سوف أذهب بمفردي الآن، والآن يعلمون أنني هنا.»

بعد ذلك هممت بالمغادرة، بيد أن الرجل اعترض طريقي مرة ثانية.

- «هل كان مأمور البلدية يقول أنه يوجد كنز هنا؟»

- «لا، كان يقول أن بعض الناس يقصدون هذا المكان بحثًا عن الكنز.»

- «مثل من؟!»

- «وما أدراني، كان يقول أنه وكأنما بعض الناس يأتون إلى هنا ليلًا، يبعثرون الأشياء هنا، ويثيرون الفوضى في المكان.»

قلت هذا، وإذ بالرجل ينظر حوله للحظة، ثم يولي نظره شطر إيوان الطابق العلوي. وكأن ثمة أحد ما أو شيء. هممت لأستدير أنا أيضًا، وأنظر، لكنه سألني: «وماذا قال أيضًا؟»

فقلت: «هذا كل شيء.»

ثم سألته: «ألست تابعًا للبلدية؟»

هذا السؤال أربك الرجل. مكث قليلًا قبل أن يقول: «كلا... ليست البلدية!»

فسألته: «من أين أتيت إذن؟»

وضع الرجل كلتا يديه في جيبي سترته الجلدية، وقال: «من مكان آخر، لا شأن لك أين يكون.»

أردت أن أستفسره عن شيء آخر، لكنني خشيت أن يتعقد

الأمر. عزمت على الخروج أولًا، ثم من بعد ذلك أستطيع أن أقلب فكري فيما قد رأيته. مشيت مرة أخرى، وقلت: «سأذهب الآن، وفيما بعد أعود.»

مكثت الرجل قليلًا، ثم أتخذ الرجل جانبًا كي أعبر، لكنني ما كدت أبتعد عنه خطوة، حتى سمعت صوتًا حادًا من إيوان الطابق العلوي، يقول: «لا تدعه يذهب، أريد أن أتحدث إليه.»

فقال الرجل ذو الرداء الأسود فورًا: «انتظر!»

استدرت، ونظرت أولًا إلى الرجل ذي الرداء الأسود ثم إلى الإيوان في الطابق العلوي. أما ما رأيته فقد زاد اضطرابي وتوتري أضعافًا. كان ثمة رجل يرتدي معطفًا أسود اللون وعمامة هندية بلون قرمزي يقف على شرفة الإيوان، وينظر إليَّ.

الفصل السادس

كانت أوصالى قد جمدت. لم أصدق أنني وقعت في قبضة فرُّوخ بهذه السهولة، فما كدت أبلغ طهران، حتى أمسك بي. تساءلت حائرًا كيف عثر عليّ؟ كيف علم أني سافرت إلى طهران؟ وكيف خبر الآن مكاني؟ كنت منطرحًا على الأرض انطراح خشبة مُسمَّرة، عندما أمسك فرُّوخ بتلابيب قميصي، ورفعني. جثا على ركبتيه أمامي، ثم لقيني ووجهه لوجهي. كانت شرر النيران تقدح من عينيه قدحًا. ثم إنه أطبق ما تبقى من رديفي أسنانه الصفراء سِنة بين سِنة، وأزلقني ببصره. وبعد ذاك صفع وجهي صفعتين متتاليتين. «لم تظن أنني سأجدك... ها؟... لم تظن أنك ستسقط في شراكي».. لم تظن لأنك لم تدر بعد من هو فرُّوخ، لأنك ما عرفت فرُّوخًا حق معرفته.»

أُرْتِجَ عليّ الكلام، وأخذت أحدق إليه ذاهلًا. أخذ فرُّوخ يلتقط أنفاسه نفسًا نفسًا، ثم ما لبث أن أنشب يديه الخشنتين العظميتين في ذراعيّ وأحكم قبضتهما عليهما. كانت أدمعي مُستهلات من ثقل الألم، ولكن لم يُسمع لي حس. في حين كان فرُّوخ لا يزال يرغي بالكلام ويزبد. راح يقول إنه لن يدعني أفلت من قبضته مرة أخرى، ويقول إني أشقيته، ويقول إني قضيت على حياته و نثرتها في مهب

الريح، ويقول إنه لن يبرح عاكفًا على ضربي حتى تفيض روحي بين يده. وبَيْنا كان يتحدث على هذا النحو إذ برجل يهتف من وراء الجدار: «لمَ لا تأتي؟ هيا.»

وقتذاك انكتم صوت فرُّوخ. أدار وجهه، ونظر خلفه. كذلك تعقبت نظراته، ونظرت إلى حيث ألقي بصره. لم يكن ثمة أحد. تمنيت للحظة لو يكون نادرًا ذاك الذي كان أرسلني لأحضر له برميلًا. قام فرُّوخ، ثم أوغل يده في جيب قبائه الأسود المنسدل الذي قد صار الآن معفرًا تمامًا بالتراب، وأخرج من جيبه شيئًا ووجهه نحوي. أبصرت في وضح القمر لمعان نصل سكين صغير، فأخذ الرعب بمجامعي. أما فرُّوخ فتحول ليقف بجانبي، ثم ثبت طرف السكين الحاد خلف كتفي، وقال: « لئن سمعت لك حسًا، لأجهزنَّ عليك.»

في الوقت ذاته، شَخَص أمامنا رجل قامته أقصر من فرُّوخ قليلًا من خلف الجدار، وقال لفرُّوخ: «هيا تحرك، لا يزال هنالك عدة جثث أخرى.»

ثم وجه نظره صوبي، وقال: «ومن ذاك الآخر؟»

فقال فرُّوخ: «هذا... هذا صبيي قد جاء من قريته،... هكذا مذ جاء راح يسأل عني هنا وهناك، إلى أن أهتدى إليَّ.»

وبينما كان يتحدث، إذ حكَّ طرف السكين المدبب بظهري،

حتى إني من فرط ما أمضني الألم تقدمت من فوري خطوة. أما الرجل الذي بدا وكأنه ليس في مزاج للكلام، فحينما كان يدير ظهره لنا، قال: «ما الأمر الآن؟ ستأتي أم أذهب إلى فرج الله خان وأخبره أنك لن تأتي؟!»

تقدم فرُّوخ من ورائي خطوة، وقال: «اذهب أنت، وسوف آتي الآن.»

قال الرجل وإنه يبتعد عنا: «أسرع.»

وبمجرد أن مضى الرجل، وضع فرُّوخ السكين في جيبه. وحينما كان متشبثًا بيدي، انحنى والتقط قبعته السوداء المصنوعة من فرو الماعز التي كانت قد سقطت على الأرض، ووضعها على رأسه. طرق بكفه على قفاي، وقال: «هيا لنذهب.»

وما مضينا خطوتين، حتى قال: «أيما جثة زيدت على تلكم المُلقاة هنا، فلن يضير ذلك شيئًا. لذلك فإنك ستمضي بجانبي بهدوء كشخص عاقل، حتى نعبر البوابة. أفهمت؟»

فككت عقدة لساني بعد عناء، ثم قلت: «أمرك.»

تحركنا. جاوزنا الجدار. ومن الجهة الأخرى للجدار، فتشت بعيني عن نادر. لكنه لم يكن موجودًا، لم يكن هنالك سوى نفرين كانا يحملان معًا إحدى الجثث. تقدمنا بخطى ممدودة

وسريعة نوعًا ما. وطوال الطريق كان الأمل في أن ألمح نادرًا فيغيثني مما أنا فيه لا يفارقني. لكن فرُّوخ ضرب على كتفي من الخلف، وقال: «من هذه الناحية.»

ودفعني نحو اليمين. آنذاك ألقيت نظرة عن يساري، فأبصرت نادرًا يتكلم مع نفر آخر. دفعني فرُّوخ ثانية، وقال: «أعرف من ذا الذي تبحث عنه، لقد رأيتك مذ أن ذهبت إليه، كنت أقف خلف الجدار في دمس الظلمة، ولما توجست صوتك عرفتك ساعتئذٍ.»

عندما وصل بكلامه إلى هنا، ضربني على قفاي، وأردف: «لو لم تكن خسيسًا نذلًا، لما انتهى بي الحال لأعمل دفانًا للموتى. لكن على كل فبفضل عملي هذا في دفن الموتى عثرت عليك أخيرًا... هيا امض.»

ودفعني مرة بعد. ولما كان ذاك أخذت تتناهى إلى سمعي أصوات أناس كانوا عالقين أمام بوابة الدخول، حيث كانت البوابة مغلقة ولا يُسمح لأي أحد كان بالدخول. أما معشر المسافرين فبعضهم كان يجلس على متن العربات، وبعضهم الآخر يجلس على الأرض. وراح بعضهم يتجادل مع مأموري النواقل. كما ظل جنود الأمن يأمرون الناس بالعودة والمغادرة، لكن الناس كانوا قد ركبوا رؤوسهم وأصروا على دخول المدينة. صرخ أحد الجنود فيهم قائلًا:

«عودوا، عودوا، إنكم إن ظللتم تتماحكون هنا وتكثرون من اللِّجاج والجدل حتى الصباح، فلن يدخل أي وغد منكم ابن محروق.»

وما لبث الرجل الذي كان يقف غير بعيد منهم أن صاح: «ومالنا لا ندخل؟... لئن كان المانع أنه لا يجدر بمن كان عليلًا به سقم دخول المدينة، لتُخرجنَّ جثته من الجهة المقابلة للبوابة.»

فرد الجندي قائلًا: «كما قلت لكم. القانون قانون لن يُسمح لأي أحد باجتياز البوابة.»

وبينا كنت أرقب هذا الشد والجذب بين الناس والجنود، اجتذب فرُّوخ يدي بشدة، وصحبني معه. ولشد ما آلمتني كتفي وإني أسارع راكضًا على أطراف أصابعي خلفه، حتى انخرطنا بين الجموع. مررنا بين الحشود، حتى شارفنا بوابة الدخول. وهنالك كان الجنود قد اصطفوا ليحولوا بين الناس والعبور. دنا فرُّوخ من أحدهم، وقال: «إني من رجال فرج الله خان. وسوف نخرج إحدى الجثث.»

نظر إليه الجندي، ثم رمقني، وبعد ذلك قال: «ومن ذاك؟»

فأجاب فرُّوخ: «هذا سيعاونني أيضًا.»

فقال الجندي: «كيف ذلك؟ أيحمل جثة بمثل هيكله الضئيل

الهزيل؟!»

فأجابه فرُّوخ قائلًا: «كلا، سيؤدي بعض المهام البسيطة.»

فقال الجندي: «ليس لدى فرج الله خان من يُكلف بمهام بسيطة.»

قال فرُّوخ وقد استبدت به فورة الغضب: «يا عزيزي، لقد اجتزت هذه البوابة عشرات المرات منذ الصباح، وقد رأيتني بأم عينك، فلمَ لا تدعني أذهب الآن؟!»

فقال الجندي: «اذهب أنت، أما ذاك فلا.»

فقال فرُّوخ منزعجًا: « لقد جاء هذا لتوه من قريته، لقد جاءني، إنه صبيي.»

ضرب الجندي على صدري، ثم قال: «لا يمكن أن يدخل، قد يكون موبوءًا، فينقل العدوى إلى المدينة.»

فقال فرُّوخ: «أي ورطة وقعنا فيها!»

وحينئذٍ نظر إلى الجنود الواقفين على جانبي البوابة، فما كان منهم إلا أن أداروا عنا وجوههم. وضع فرُّوخ يده في جيبه، وأخرج مسكوكة، وسرعان ما وضعها في كف الجندي، وقال: «هذه كُلفة دوائه وعلاجه، دعنا نذهب الآن.»

قبض الجندي بكفه على المسكوكة، ثم قال: «لا يمكن، ماذا

لو كان مرضه شديدًا؟!»

تمتم فرُّوخ متذمرًا، ودس يده في جيبه مرة ثانية، وأخرج مسكوكة أخرى ليضعها في كف الجندي، ثم قال: «ما الحال الآن؟ آلآن صار مُعافى من مرضه؟!»

أطبق الجندي قبضته على العملة، وتنحى جانبًا، وقال: «أسرع، ومتى أوقفك أحد، فحذار أن تتفوه عني بكلمة، وتلثم شُمعتي أمامه.»

قال فرُّوخ حسنًا، وشد يدي منفعلًا. تقدمنا قليلًا، إلى أن عبرنا البوابة، ودخلنا المدينة. كانت المدينة أهدأ. وكان الجنود يقفون أشتاتًا بجانب العربات الفارغة، ويتحدثون إلي بعضهم. لم ينتبه لنا أحد. ترك فرُّوخ معصمي وعوضًا عن ذلك أنشب أظفاره الحادة في ذراعي، حينئذٍ أمض الألم ذراعي مضًا، فانسلت من بين الشفتين آهة. قال فرُّوخ: «دفعت لولد الحيوان النسناس ذاك قرانين، ليُسمح لك بالدخول. واليوم طارت من يدي أيضًا خمسة قرانات أجرة يومي لأنني تركت عملي ولم أتمه. لأستلبنَّ كل هذه النقود منك استلابًا حتى آخر رمق فيك. وإن وصل الأمر إلى أن أبيع لحم جسدك مثقالًا فمثقالًا وأسترد مالي منك أضعافًا مضاعفة.»

ابتعدنا عن البوابة. عندما كنا نسير، تذكرت أول مرة دخلت فيها طهران برفقة فرُّوخ. وإني وإن كنت خائفًا في

ذلك اليوم فِزعًا، كان خوفي هذه المرة أجلّ وأعظم. لأنني في المرة الأولى لم أكن أدري أي شيء يتربص بي. أما الآن فإنني أعلم يقينًا أن الضرب والتنكيل والتعذيب ما هي إلا بلية واحدة من مصائب شتى لا تزال في انتظاري، وأي نهاية مريرة يمكن توقعها بعد ذلك.

كانت شوارع طهران مهجورة وتغشاها ظلمة، خلافًا لما كانت عليه قبلًا من ازدحام وضجيج بالحركة. وكأن الجميع خوفًا من الإصابة بعدوى الوباء ارتكسوا في بيوتهم. وجد فرُّوخ عربة من بعد عسر حتى ركبناها وانطلقنا. وما هي إلا أن صرنا أمام قصر نُويان خان. القصر الموحش نفسه الذي كان يظهر للرائي كمارد أبيض وإنه مقوس ويبدو أشد هولًا في وضح القمر ربما أكثر من ذي قبل. أمسك فرُّوخ مطرق الباب وقرعه غير مرة. لم يفتح الباب أحد، ومرة أخرى قرعه قرعة أشد، ووقفنا نترقب. لكن أحد لم يفتح أيضًا. وراح فرُّوخ الذي قد ثارت ثائرته يركل الباب مرة بعد مرة، ويصرخ: «افتح هذا الباب اللعين.»

ثم عقب ذلك بقليل، ارتفع صوت أجش من خلف الباب: «ما الخطب؟... إني قادم.»

وبعد قليل، فُتح الباب وهو يصر صريرًا. كان راضي خلف الباب. وبالوجه النحيل ذاته والعينين الغائرتين، نظر إلى

فرُّوخ عبر شق الباب، وما لبث أن قال: «ما الذي جاء بك إلى هنا مجددًا؟! ألم يأمرك نُويان خان ألا تأتي إلى هنا ثانية؟!»

دفع فرُّوخ الباب بيده، وأنحى راضيًا عن طريقه، وقال: «الوضع الآن يختلف، الآن إذ عثرت على هذا الوغد اللعين، وأحضرته معي، سيأذن لي بالعودة، وتنال مني أنت الآخر جزاء وِفاقًا.»

أما راضي الذي كان قد أبصرني لتوه، فقال ذاهلًا: «كيف وجدته؟»

سحبني فرَّوخ من يدي، وقال: «إنه ليس من شأنك كيف وجدته.»

فقال راضي: «ومن ذاك؟! أشكور؟!»

أجاب فرُّوخ وهو يمضي في الفناء متجهًا إلى الإيوان ويجرني خلفه: «سأعثر على ذاك الآخر. فمتى أوسم هذا وألسعه بالسيخ المحمي غدًا، يتكلم ويخبرنا بمكان صاحبه.»

أغلق راضي الباب خلفنا، وسار بخطى عجلى حتى لحق بنا، ثم قال: «أين كنت أيها الجرو الحقير؟ أظننت أنك ستفذ بجلدك؟ ها؟! حسابك معي سيكون عسيرًا. إن ورم باطنيّ قدمي ما لبث أن اندمل، فقد مدني نُويان خان مفلوقًا من وراء فرارك أنت ورفيقك ذلك حتى ثويت عشرة أيام كاملة

بمطرحي هامدًا لا أقوى على الحراك. والآن سأصب جام حنقي عليك، وأنتقم منك أشد انتقامًا.»

لقد هيمن الصمت والظلام على القصر، إذ كان الجميع نائمين. مضينا حتى بلغنا الحوض، بمياهه الداكنة ورائحته المُنتنة، وصورة القمر المكسورة التي دائمًا ما كانت تتوسط مياهه. توانيت في سيري للحظة، لأنظر داخله، بيد أن فرُّوخًا سحب يدي حتى قربت أسقط على الأرض. ولما كان يسارع بي إلى الأمام، قال لراضي: «أسرع بفتح إحدى هذه الغرف، لألقي ذاك فيها، إلى أن آتيه صباحًا.»

استحث راضي خطاه، حتى تقدمنا، ومضى باتجاه السلالم في زاوية الفناء. في الوقت ذاته تناول مجموعة المفاتيح التي كانت معلقة على الجدار بجانب السلالم، ثم قال: «ارمه في هذه الغرفة تحت السلم.»

وذهب ليفتح قفل باب الغرفة تحت السلم، كانت الغرفة نفسها التي كنا نعمل فيها أنا وشكور. حينما كان راضي يفتح قفل الباب، قال: «بعد حادثة رفيقه المقبور تلك، لم يجرؤ أحد على العمل هنا، وعلى هذه الحال ظلت شاغرة.»

وفتح باب الغرفة. أفلت فرُّوخ ذراعي، وأمسك بالجزء الخلفي من ياقتي، وزج بي في وسط الغرفة المظلمة، وقال: «اخسأ هنا، ليطلعنَّ عليك غد وإنك لتتمنى الموت ألف مرة

ومرة.»

ولما أُلقيت داخل الغرفة، تعثرت قدمي بشيء لم أدر ما هو، فكبوت على الأرض. ثم ما لبث أن أُغلق الباب وصر صريرًا يشبه عواء ذئب، واستحال المكان برمته إلى سواد وعتمة كالقار.»

الفصل السابع

لقد مضى عليَّ الوقت الذي قطعه الرجل الهندي ليهبط السلم وكأنه قرن من الزمان! كنت أقف بجانب الحوض، وقلبي يخفق بقوة ويضرب داخل صدري، وقد جف ريقي، والتصقت شفتي ببعضهما واضطرمتا. كان الرجل ذو الرداء الأسود واقفًا إلى جانبي، وراح مثلي ينظر تجاه سلالم الإيوان. أما الرجل الهندي فجعل أولًا يطل من شرفة الإيوان، ولم يكن يُرى منه سوى نصف جسده العلوي باديًا من خلف درابزين الإيوان الخشبي. ثم من بعد أن بدأ بالسير وابتعد عن الدرابزين لم يعد يُرى منه سوى عمامة قرمزية يعمم بها رأسه تتحرك كبقعة قرمزية في فضاء الإيوان المظلم. ومع وصوله إلى بسطة السلم اختفت بالمثل تلك البقعة، حتى امتثل أمامي شخصه بقامته الفرعاء وهو على الدرج. كان يرتدي معطفًا أسود اللون، وبنطالًا باللون ذاته. وكانت لحيته المرسلة تبلغ ياقة قميصه، ووجهه المسفوع يبدو بالكاد مرئيًا في غسق الغروب. بهدوء ودون أي استعجال هبط السلم درجة درجة، حتى وصل إلى أرضية الفناء. ثم مكث قليلًا، والتفت إلى الرجل ذي الرداء الأسود قائلًا: «لقد تصرفت باستهتار يا أكبر، ها أنت قد تركت الباب مفتوحًا مرة أخرى.»

تحرك الرجل ذو الرداء الأسود قليلًا، ثم قال: «غبت دقيقة

واحدة فقط، ذهبت لأحضر شيئًا ما من داخل السيارة.»

سار الرجل الهندي نحوى ببطء، وبينما كان يرميني بنظره، قال بدقة متأنية: «دقيقة واحدة... دقيقة واحدة فقط... أحيانًا ما تكفي دقيقة واحدة فقط ليذهب كل شيء أدراج الرياح.»

كان يتحدث اللغة الفارسية بجزالة وإتقان. ولولا لهجته الهندية، لخلته بمثل هذا الأسلوب الرصين والكلام الجزل أستاذًا إيرانيًا يلقي محاضرة في الأدب الفارسي على طلابه داخل قاعة المحاضرات. تردد الرجل المتشح بالسواد في مكانه مرة ثانية، ثم قال: «آسف أيها القائد.»

تقدم الرجل الهندي دون أن يرفع عينيه عني، ثم على بُعد خطوتين مني لبث في مكانه، وقال: «ماذا كنت تفعل هنا أيها الشاب؟»

اشتد خوفي، كأنما فحيح حار قد تصاعد وما لبث أن لفح صدغي. حركت لساني الجاف بصعوبة، ثم قلت: «أنا... أنا... أريد أن أصور.»

ضحك الرجل الهندي، وما لبث أن قال: « أيها الشاب ألا تعتقد أن قصة التقاط الصور هذه قد باتت مكررة بعض الشيء؟»

ثم هز رأسه، ونظر إلى المدى من خلفي، وقال: «أليس من الأفضل أن تجرب كذبة أخرى؟ تبدو شابًا نبيهًا. لا أعتقد أنك عاجز عن فعل شيء آخر... ماذا عساي أن أقول... اختلق كذبة ما.»

فقلت مرتبكًا: «صدقني أريد أن ألتقط بعض الصور فحسب.»

أطبق الرجل الهندي جفنيه بهدوء. مكث قليلًا قبل أن يقول: « لقد جئت لالتقاط الصور بالفعل، لكن عندما فُتح لك باب الغرفة، انصرفت عنه موليًا.»

تجمدت في مكاني مبهوتًا. كان مأمور البلدية قد أخبرنا أن ثمة رجل هندي يقف خلفنا في الزقاق أمام باب القصر وها هو ذا يروي قصة ما جرى في فناء القصر، وأمام الغرفة تحت السلم. قلت: «في الصباح... في الصباح ذكر ذاك السيد مأمور البلدية أن بعض أحداث غريبة تقع هنا، قال ليلًا تتبعثر الأشياء من مكان لآخر، قال...»

قاطعني الرجل الهندي، وقال: «أحداث غريبة تقع هنا ليلًا، أحداث غامضة، أمور مخيفة... أليس كذلك؟»

همست قائلًا: «بلى... بلى.»

حدق إلى عينيّ، وقال: «لم يحل الليل بعد.»

ثم صمت قليلًا، وأردف: «لكنه سيغشانا عما قليل... هل تخشى الليل؟»

لم أكن أدري بماذا عليّ أن أجيبه. نظرت إليه ولم أكد أهم لأقول شيئًا، حتى سبقني قائلًا: «إنك لست جبانًا يا أيها الشاب، كيف وقد عدت لتنظر ما يجري هنا؟»

لم أجب، رفع الرجل الهندي عينيه عني، ونظر نحو الأرض، شعرت بأن حملًا ثقيلًا قد انزاح عن كاهلي، تنشقت نفسًا، وتحركت رويدًا. ثم رفع الرجل الهندي رأسه، وقال للرجل ذي الرداء الأسود: «اذهب أنت، وانتظر داخل السيارة.»

فقال الرجل ذو الرداء الأسود على الفور: «أمرك أيها القائد.»

ومضى في طريقه، في حين بقيت أنا والرجل الهندي في الجو الآخذ في الإظلام. وعلى الرغم من علمي أن جواب ذلك السؤال سيكون قطعًا بالنفي، سألت هامسًا: «هل يمكنني الذهاب؟»

قال الرجل الهندي: «دعنا نتواصل ونتشاور مع بعضنا قليلًا، ربما كلانا يبحث عن شيء ما، وبوسع أحدنا أن يساعد الآخر.»

وقبل أن أنطق بكلمة، قال: « إني لأقترح أن نصعد إلى الطابق العلوي داخل القصر قبل حلول الليل بظلمته. أعتقد أنه يمكننا التفكير هناك على نحو أفضل واتخاذ القرارات.»

ومن دون أن ينتظرني، استدار واتجه نحو السلم. ظللت مترددًا بشأن ما يجب القيام به. كان الجو آخذًا في الإظلام، والأجواء في القصر أمست أشد رعبًا. وفي تلك الأجواء فإن المضي إلى الطابق العلوي بصحبة رجل لا تعرفه، ويبدو من أكثر الناس غموضًا كان أمرًا صعبًا. لكنني تذكرت أني قد عدت إلى القصر لأعرف ما يدور فيه، وأن هذه المعرفة كيفما كانت لا يمكن أن تخلو من الخوف والرعب، وأن ذلك الرجل الهندي بكل ما يكتنفه من غموض، يمكن أن يكون طرف خيط متين أستدل به على ما كان يحدث داخل ذلك المبنى، خاصة وأن سلوكه قد صار ألطف، وقد آذن للرجل ذي اللباس الأسود الذي كان من الممكن أن يمثل خطرًا عليّ لي بالانصراف. عندئذٍ مشيت خلف الرجل الهندي بخطى حذرة. ولما وضع الرجل الهندي قدمه على أول درجة من درجات السلم دون أن يلتفت إليّ وينظر، قال: «لنكن صريحين مع بعضنا، لا أريدك أن تظن بي الظنون. كل ما أعرفه عنك هو ما قد قلته بنفسك للآخرين هنا هو ما قلته أنت لمأمور البلدية، وهؤلاء الفتية الذين يعملون داخل الورشة في الزقاق، وذاك الأُسطى عامل الجبس وصبيه اللذين إضافة إلى إمدادي

بالمعلومات، أعطياني مفتاح باب القصر، لأتمكن من الدخول بعد انتهائهما من عملهما. طبعًا مقابل مبلغ من المال دفعته لهما. وبمقارنة كل ما عاينته وسمعته، يمكنني الجزم بأنك تكذب.»

لم أعطه ردًا. بدلًا من ذلك راجعت كل ما مررت به طيلة هذه المدة، لقد كان محقًا، كان من السهل جدًا أن يدرك أني قد كذبت. صعدنا بقية الدرج في صمت، ولما اجتزنا بسطة الدرج و أدركنا الإيوان في الطابق العلوي. توجه الرجل الهندي إلى درابزين الإيوان، ووقف إزاء فناء القصر يستشرفه. كانت الظلماء قد اشتدت، وألقت بظلالها السوداء على الحوض وشيئًا فشيئًا أخذت تكتنفه حتى لم تعد الأشياء داخله تبين. قال الرجل الهندي: «إن هذا القصر مثل عقدة توسطت حبل الزمان، عقدة لا تسمح لأي شيء أن يكون سلسًا وواضحًا. ربما كان أيضًا كلقمة علقت بحلق الزمان لا تُبلع... هنالك شيء ما ذلك...»

والتفت نحوي فجأة، وقال: «أتسمع...؟»

- «ماذا؟»

- «الأصوات، كم من أصوات هنا! أصوات متباينة، أصوات متنوعة... ضحك، بكاء، أنين انتحاب، صراخ، صياح، أصوات من كل نوع، أتسمع؟»

أصخت سمعي، لم يكن يفضي إلى سمعي من صوت إلا أبواق سيارات تُطلق بين حين وآخر من مسافة بعيدة وصوت دوران الهواء في فضاء الإيوان حيث كان يتناهى من بعيد كالهمهمة، فقلت: «لا أسمع شيئًا.»

فقال الرجل الهندي: «ينبغي أن ترهف السمع، ترهف السمع بشدة...»

ثم سلك طريقه إلى الإيوان شبه المظلم، وقد تبعته أيضًا. مررنا أمام الغرف التي كانت أبوابها ما بين مغلقة ومشرعة، وتفوح من داخلها رائحة الرطوبة والقِدم. قال الرجل الهندي وهو يسير: «ثمة شيء غريب هنا، شيء يحول بيني وبين التفكير عميقًا.»

وقف أمام الغرفة التي كان بابها مفتوحًا، ثم التفت إليّ، وقال: «إنني أبحث عن شيء ما، شيء مُخبأ في مكان ما في هذا القصر، هذا الشيء ربما يوجد في مكان ما داخل هذه الغرف.»

وبينما كان يتحدث، إذ به يدخل الغرفة: «مكان لا بد أن أجده، مكان يجب ألا يظل مختفيًا أكثر من هذا.»

ثم التفت صوبي ثانية: «ويمكنك مساعدتي أيها الشباب.»

كنت خارج الغرفة. فلما نظر إليَّ، توجهت إليها، ووقفت أمامه.

- «عمَّ تبحث؟»

- «عن شيء مهم للغاية.»

- «كيف قطعت يقينًا بأنه هنا؟»

قال الرجل الهندي بلهجة حازمة: «إني متيقن، متيقن جدًا. مثلما أنك هنا الآن أيها الشباب، فإن الشيء الذي أبحث عنه هنا أيضًا. إن أردت أن تقول أنه ليس هنا، فعليك أن تثبت لي أنك الآخر لست هنا.»

فقلت: «هذ القصر واسع مترامي الأطراف، في أي مكان يوجد؟»

دار الرجل الهندي، ونظر حوله، ثم قال: «هذا ما لا أعرفه تحديدًا، ربما داخل جدرانه، في السقف، في الأرضية.»

ثم ضرب الجدار خلفه بقبضة يده ثلاث مرات، وقال: «كما ترى فإن جوف أغلب جدران هذا المنزل فارغ.»

ثم تقدم مني، وقال: «هنالك أشياء كثيرة مُخبأة هنا، وإني لأبحث عن أحدها.»

كم كان يصعب عليَّ التفكير حينئذٍ! إذ كانت كلمات كثيرة

على طرف لساني، لكني انصرفت عن قولها. كنت لا أزال غير قادر على أن أهديه ثقتي. كان من الصعب عليّ أيضًا أن أحتفظ برباطة جأشي. قلت: «أنا... أنا.»

ثبت الرجل الهندي عينيه المثقلتين عليّ، وقال: «أنت ماذا؟»

وبينما كنت أبحث في جعبتي عن كلمة لأقولها، ارتفع فجأة صوت ثلاث ضربات محكمات من ناحية الجدار الذي كان الرجل الهندي قد قرعه قبيل لحظات. استدار الرجل الهندي ونظر وراءه. حدقت إلي الجدار في نهاية الغرفة التي كانت غارقة في الظلام. ثم بعد قليل علا صوت خشخشة قادمة من داخل الجدار، كأنّ أحدًا يخمش الجدار بأظفاره.

الفصل الثامن

لم تكن في الغرفة تحت السلم أية نوافذ تطل على الخارج. وطوال الأيام التي كنت أعمل فيها مع شكور في ذاك المكان، كنا نترك باب الغرفة مفتوحًا على مصراعيه. حتى في تلك الثلة من الليالي التي هجعنا فيها ليلًا في تلك الغرفة تحت السلم بمنأى عن الصبية الآخرين بعد عودة شكور من عالم الموتى كنا نترك الباب مفتوحًا، لكيلا يغطش الليل الغرفة. والحال الآن أن الباب مغلق، وليس هناك بصيص ضوء، في حين أني كنت أستشعر من الظلماء ذعرًا. كان صدى عبارات راضي وفرّوخ الشائنة التي راحا يرمياني بها من خلف الباب لا ينفك يرن في أذني، كذلك توعدهما لما سيكون غدًا. وكان خوف غريب قد هتك حجاب قلبي. طفقت أفكر أي بلاء ذلك الذي سيحل بي غدًا.

على تلكم الحال التي جلست بها على الأرض انتحيت بنفسي جهة الجدار وأسندت ظهري إليه. نظرت صوبي، حيثما كان الباب، وحدقت إلى الفرجة الضيقة بين مصراعي الباب. ويا لأريحية السرور التي لاحت عليّ ساعة رؤيتي لخيط نور القمر الرفيع النافذ من بين مصرعي الباب! كما بات بصيص النور هذا مبعثًا على الأمل. رحت أنظر إلى النور بمجامع عيني، ويكأني أردت أن أوسع بحدقتيّ فرجة الباب

ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ليستقبل ناظراي مزيدًا من النور. ثم نظرت عن يميني إلى المكان الذي كان من قبل ذلك موضع النول، حيث السجادة التي نسجتها أنا وشكور عُقدة عُقدة. هكذا استمررت محدقًا، حتى ألفت عيناي الظلام الذي يسربل ركن الغرفة. وحينئذٍ لمحت ظلال أشياء لم يتضح لي كُنهها، فقمت، وتقدمت. بسطت يديَّ ومددتهما إلى الأمام، فتعثرت يدايّ بأشياء مصنوعة من الخشب، أشياء مثل صناديق وألواح. كانوا قد لملوا أجزاء النول، واختزنوها. اتضح أن راضيًا كان محقًا في زعمه وأنه لن يجسر أي صبي على دخول تلك الغرفة والعمل فيها. ولما التمست طريق العودة إلى مكاني، تعرقلت قدمي في شيء ما فسقطتُ على الأرض. كانت ثمة جلبة من خلفي، وأشياء تتساقط بعضها على بعض. حتى ما لبثت قطعة خشبية ثقيلة أن سقطت على قدمي، فشعرت بألم مُمض في ساقي. نهضت بعناء، وانقلبت عائدًا إلى مكاني عارجًا، استندت إلى الجدار، وكرة أخرى رشفت بنظري خيط النور المتسرب عبر مصراعي الباب إلى الداخل وأمعنت فيه النظر. كانت ساقي تؤلمني، فلصقت رأسي بالجدار، ريثما تسكن جوارحي، ولما كان جفناي ثقيلين، خالطني النعاس.

كانت وعثاء الطريق ودأب نومي الثقيل باعثًا لأن يطوف بي الكرى. ارتخيت على الأرض، وأطبقت جفنيَّ، حتى

نمت. ورأيت فيما يراه النائم أني مستلق بجانب بوابة دخول طهران وسط جمع من الناس. كان البرد يسري في أوصالي، حتى إني ثلجت. لم تعد عيناي تسطيعان رؤية شيء. لكني كنت لا أزال مدركًا كل ما يدور من حولي. كان يستلقي بجواري رجل هرم نحيل القد، كان وجهه أعجف، وعيناه الصغيرتان شبه مفتوحتين في محجريهما، وشفتاه البيضاوان مفغورتان حتى أمسى فوه المتيبس ثقبًا أسود يروح فيه الذباب ويغدو. كنت ممدًا على الأرض بلا حراك مواجهًا للسماء، وأتفكر فيما حولي. لم يكد يمضي الوقت، حتى جاء أحد ووقف على رأسي، كان يقف على رأسي مباشرة، ما جعلني أشعر باحتكاك أطراف أصابع رجليه بهامة رأسي. وعلى عكس الأشياء الأخرى لم أكن أبصره، فما استبان لي أي شخص يكون. خالجني الخوف، لما لم أكن أعرف ما يجدر بي فعله. إذ كان يقف على رأسي ساكنًا، وكان بوسعي أن أفهم أنه ينظر إليَّ. ثم إني بعدئذٍ سمعت صوته وإنه يقول هامسًا: «أخيرًا أتيت...»

ثم من بعد ذلك انسكب فوقي شيء، شيء كنثار التراب. بدأ بالانسكاب على رأسي، وشيئًا فشيئًا وصل إلى صدري، فيديَّ، فرجليَّ، فسائر جسدي. كنت أشعر بذرات التراب الرقيقة وهي تلامس بشرتي، وكأن سرب من النُميلات يسرن عليَّ. اقشعر جلدي، وهممت أن أتحرك، وحاولت النهوض.

لكنني عجزت، ولم أكن لأقوى على ذلك. كان الخوف يربو في جوانحي، وودت لو أصرخ. غير أن صوتي انحبس داخلي لا ينفذ كأنما قد غص بحلقي شيء. جهدت جهدي كيما أصرخ، حتى في النهاية زفرت أنينًا خافتًا. ظللت أئن، حتى صحوت فزعًا على صوت أنيني. ومتى فتحت عينيّ، كان ثمة رجل على رأسي مباشرة، ويرميني بنظره. تملكني الخوف منه، ففززت جزعًا، واستدرت فنظرت إليه. لقد كنت مشوشًا مضطربًا، والتبست عليّ الحال أنائم أنا أم يقظان. أما الشخص الذي كان واقفًا قبالتي، فما لبث أن شرع في حديثه، فقال: «رضا...»

كان في صوته برودة وحدة. كان صوتًا تألفه أذناي: «رضا... إنه أنا... شكور.»

كان شكورًا. أبصرت وجهه فيما تسلل من نور القمر من باب الغرفة الموارب. كان هو بنفسه، جاءني شكور مرة أخرى. ظننت طوال هذه الأشهر أن وداعي له في عالم الموتى كان ليستمر أبد الآبدين، وأني أبدًا لن أراه بعد ذلك اليوم. الآن كان شكور واقفًا أمامي وينطق اسمي، فقلت وقد لمع البِشر في عينيّ: «شكورا»

تقدمت في الحال، وعانقته. كان جسده باردًا برودة الثلج. ارتعبت فجأة، وسرعان ما تحاشيته. أدرك شكور أني قد

خفت، بيد أنه لم يطرف له جفن. تفرست وجهه الذي كان شاحبًا في نور القمر أكثر مما كان عليه من قبل. قلت: «كم كنت أفتقدك!»

فقال شكور: «كذلك كنت في خاطري. كنت في خاطري حاضرًا، وكنت قلقًا عليك أيضًا.»

فقلت: «أجئت لتنقذني؟!»

استدار شكور ونظر عبر منفذ الباب إلى الخارج، وقال: «نعم، لكني أريد أن أتحدث إليك.»

فقلت: «تكلم.»

طوق ذراعيّ بكلتا يده، وعاد يرمي ببصره نحو الخارج، ثم قال: «لا يمكنني الكلام هنا، راضي بالقبو هناك، قد يخرج في أي وقت.»

ثم صوب في وجهي طرفه، وأردف: «تعال معي، لا ينبغي البقاء هنا.»

اجتذب يدي، وخرجنا معًا. أغلق شكور مصراعي الباب، وتناول القفل الذي كان على الأرض، وحينما كان يقفل الباب، قال: «إذما اكتشفوا غدًا أن الباب مقفل عدا أنك لست موجودًا، فلا جرم أن يجن جنونهم من فرط الذهول.»

ثم علق المفتاح في مكانه بجانب صف السلالم المؤدية إلى الإيوان، وقال: «حسنًا، هيا بنا الآن.»

فقلت: «إلى أين؟!»

وقف شكور ونظر إليّ، ثم أجاب قائلًا: «إلى الحوض... هل ستأتي؟!»

فقلت وقد غلبتني دهشة: «الحوض؟!»

فقال: «نعم، لن تخاف مثلما كان من قبل، أليس كذلك؟!»

قلت مترددًا: «أنا...أنا... ولمَ أخاف؟!»

فقال شكور: «لا تخف، أعدك بأن نعود بسلام كما في المرة التي قبل...»

صمتُ، ولم أجبه. فقال شكور ثانية: «قد يأتي راضي إذا وقفنا هنا.»

ثم تناول يدي، وقال: «هل ستأتي؟»

رميت حذري أدراج الريح، وقلت مغامرًا: «حسنًا... سوف آتي.»

ومشينا معًا. تقدمت بخُطى متراخية. كان شكور يتقدمني، وكنت أرقب من الخلف جسده المفتول العريض المنكبين،

ورأسه الذي كان تمامًا مثل الأيام التي سبقت وفاته حليق الشعر قليله. كانت الأشهر المعدودات التي مرت على لقيانا وكأنها قد صيرت أحدنا غريبًا عن الآخر. مشينا وقد اثَّاقلت أقدامنا وتوانت. وعلى أن المسافة من الغرفة تحت السلم إلى حافة الحوض لم تكن لتزيد عن بضع خطوات، ارتسم المدى أمام أعيننا سبيلًا لا انتهاء لها. لوهلة وددت أن أرى شكورًا من كثب، لأتحقق من أنه شكور عينه، صديقي القديم ذاته. فهتفت به: «شكور!»

استدار شكور، ونظر إليَّ. وبعينيه الغائمتين اللتين كانتا تبدوان في الظلام مثل خشبتين مستديرتين تغوران في التجويفين أسفل جبهته، ما لبث أن حرك شفتيه الدقيقتين الشاحبتين، وقال: «ماذا تريد؟ قل!»

حاولت أن أتكلم، بيد أن كلمة واحدة لم تكن لتتوارد على ذهني، فقلت: «لا شيء، لا شيء... اذهب أنت وإني تابعك.»

هز شكور رأسه، وقال: «حسنًا.»

ثم استأنف سيره. تلفث وإني أمشي متفحصًا أرجاء المكان، فناء قصر نُويان خان، الأشجار الباسقات في الفناء التي كانت الريح المرسلة تجفل بين أغصانها، فيُسمع لها حفيف، أبواب الغرف المغلقة، العوارض الخشبية التي تستند إلى الجدران. نظرت فوقي، فاشتفت درابزين الإيوان

الخشبي، وفوقه الأعمدة الخشبية. ثم مددت بصري إلى حافة السقف الناتئة، وبالآخرة طالعت سرب النجوم البارقات اللائي كن يرصعن صدر السماء. كم طال علينا الأمد، حتى وصلنا إلى حافة الحوض. وهناك اجتذبني شكور من يدي، وقال: «هلمّ معي.»

ثم مضى بنفسه، ووقف على مياه الحوض. نظرت إليه مبهوتًا، حينها قال: «لا تخف تعال... ليست هذه أول مراتك.»

تقدمت، ووقفت على حافة الحوض. وضعت قدمي اليمنى بحذر على صفحة الماء، ثم قدمي اليسرى. والآن بت واقفًا أنا أيضًا على الماء. ومتى رآني شكور وقد وقفت على الماء، قال: «هيا أسرع قبل أن يراك أحد.»

وسار بنفسه. مشينا بضع خطوات على الماء، ثم هبطنا دركًا دركًا. ومع كل درجة هبطنا جعل الماء السخين يرتفع، حتى بلغ رُكبنا، فخصرينا، فصدرينا، فعنقينا. في البداية رأيت رأس شكور وقد غمره الماء، ثم أغمضت عيني، وغمست نفسي في الماء. سمعت شكورًا يقول: «افتح عينيك، وتنفس.»

نفذت طلبه، الأمر الذي كنت قد فعلته في المرة الفائتة. فتحت عيني، وتنفست. ألفيتنا معلقين في فضاء مستنير، وحولنا أناس كثر كانوا معلقين مثلنا، ويحومون في الفضاء. أما شعرهم فكان مشعثًا، وأما وجوههم فشاحبة وترهب

الناظرين. دار شكور حتى صار مواجهًا لي، وقال: «انظر يا رضا، سأعينك على الفرار، ولكني أروم منك مطلبًا تفعله من أجلي.»

فقلت: «ماذا بمقدوري أن أفعل؟!»

فقال: «سوف أخبرك، يجب أن نهبط أولًا إلى درك أسفل، لنذهب إلى حيثما يسعك رؤية امرئ ما.»

ثم أخذ بيدي مرة ثانية، وقال: «إن الهبوط إلى ما هو دون ذلك يتعذر عليك، سأسحبك معي إلى أسفل.»

بعد ذاك هبط بلمح البصر كسمكة تهم لتخوض بحرًا. سحبني معه أيضًا، واجتزنا أولئك الناس الذين كانوا يحومون حولنا في الفضاء الفسيح. أنشأ الفضاء في محيطنا يدلهم ظلمة، ويدلهم أكثر، حتى بلغنا ظلامًا مُطلقًا. ثم عاد الضوء شيئًا فشيئًا، حتى وصلنا إلى حيث كنا قد ذهبنا من قبل، ذاك المكان الذي كأنما هو كل مكان. أصبحنا معلقين نشاهد في آن واحد كل شيء وكل الناس في كل مكان. عندئذٍ دعا شكور أحدهم: «رسول... رسول!»

لم يكد يمضي الوقت، حتى ارتقى من تحتنا شيء أشبه ما يكون بكُرَّية بيضاء. كلما أزلف، تبدى له شكلًا ليصبح في النهاية صبيًا في مثل قامتي أنا وشكور تقريبًا غير أنه أنحف

منا وأهزل. يلبس قميصًا سادة أبيض اللون، وبنطالًا فضفاضًا بلون أسود. ولما بلغ أوجه، ألقى علينا السلام، واستدار، ليقف بإزائنا. قال لي شكور: «هذا هو رسول، من أردت أن أريكه.»

نظر إليّ رسول، كانت عيناه كعيني شكور شاحبتين منطفئتي الوميض. أما شفتاه فكانتا رفيعتين ترتسمان في صفحة وجهه الضامر كخيطين دقيقين قصيرين. هممت لأتحدث، بيد أن شكورًا سبقني قائلًا: «لقد قدم رسول إلى هنا قبل أسبوعين.»

فقلت: «ذلك يعني أنه...»

فقال: «أجل، ذلك يعني أنه قد مات، إنه من قزوين، توفي موبوءًا بالكوليرا، لقد ابتلي جميع من في قزوين بالوباء، الوضع هناك يفوق طهران سوءًا. لقد مات رسول وأمه بالكوليرا. أمه بالأسفل هناك مغتمة كاسفة البال.»

فقلت: «أتراها حزينة لموت ولدها؟!»

فرد شكور قائلًا: «كلا، بل قلقة على ابنتها، أي شقيقة رسول.»

فسألته: «وهل ماتت ابنتها أيضًا؟!»

فقال شكور: «كلا إنها لا تزال حية، ولكن من الممكن أن

يصيبها بلاء أفتك بها من الموت»

فسألته: «أي بلاء ذاك؟!»

استدار شكور، ليقف بجانب رسول قبالتي، وقال: «انظر، لم يُرزق والدا رسول بسوى طفلين، رسول وشقيقته عالية. لكن الوباء لما دهم أنشبت المنية أظفارها في رسول وأمه. ولما نجا الأب وابنته وظلا حيين، تخايل أبو رسول أنه لكي ينقذ ابنته حقيق عليه أن ينفق كل ما يملك من المال، ليشد رحاله إلى طهران. ولما بدأ يعي أن الوباء قد وصل إلى طهران أيضًا مكث نحو ثلاثة أيام في طهران، لأن أحد رفاقه القدامى أشار عليه بأن يرسل عالية إلى نفر يصحبها معه إلى نُويان خان لتعمل تحت إمرته هناك، وبهذه الطريقة تكون في مأمن من الإصابة بالوباء من ناحية، وتؤمن له نفقات المعيشة من ناحية أخرى، ثم بعد مدة من الزمان، تعود إلى دارها سالمة.»

قاطعت شكورًا، وقلت باستغراب: «ولكن ليس لدى نُويان أي فتاة عاملة!»

فقال شكور: «بل لديه، قبل مدة أنشأ في قصر آخر منسجًا لنسج الشيلان. أما الفتيات ذوات الأنامل النحيلة فكان يجلبهن للعمل هنالك.»

«لا ريب أنه سيسخرها مثلنا في العمل لديه.»

فقال شكور: «ليته يسخرها مثلنا في العمل، في تلك المدة حيث تفشى الوباء، وجدب الغذاء، راح أغلب سكان المدن الأخرى يجلبون أولادهم، ويبعثون بهم إلى نُويان خان ورجاله. غير أنه لما فاق عدد هؤلاء العاملات عن حاجاتهم، جعلوا في الخفاء بعيدًا عن أعين الآخرين يسرحون الفتيات خارج طهران، ويبعثون بهن إلى بلاد الروس، وهناك تُباع الفتيات إلى الروس، ليتخذوهن للعمل لديهم.»

فقلت: «كيف أحط بذلك علمًا؟!»

أشار شكور إلى ما دونه، وقال: «يبدو أنك نسيت أن بإمكانك رؤية كل شيء من حيث نكون.»

فبدلت الحديث قائلًا: «في النهاية سيأتي آباء تلك الفتيات وأمهاتهن عندئذٍ ليقفوا أثرهن.»

فتر ثغر شكور عن ابتسامة مريرة، وقال: «هب أنهم بعد عام أو اثنين ذهبوا لاقتفاء أثر بناتهم، سيكون جواب نُويان خان بلا ريب أن الوباء أسقمهن، فمتن.»

ثم صمت كلانا. نظرت إلى رسول الذي كان منقبض النفس مُكفَّأ الوجه. ولم يكد يمتد بنا الوقت، حتى فض شكور الصمت، وقال: «رسول لا يريد أن يقع مثل هذا لأخته، ويسعى لتخليصها بطريقة ما.»

فقلت: «وكيف السبيل؟»

فقال: «أبو رسول واسمه نصر الله وابنته عالية يقيمان الآن في إحدى دور الضيافة في شارع الناصري، ليطويا الطريق صباح غد قاصدين بيت ذاك الذي هو أحد رجال نُويان خان، لا بد أن يمنعهما مانع.»

فقلت: «ومن يكون؟!»

فما كان منه إلا قال: «أنت!»

فقلت وقد ذُهلت: «أنا؟! ولمَ لا تفعل أنت شيئًا؟!»

فقال شكور: «لا يمكننا الابتعاد كثيرًا عن الحوض، يجب أن يؤدي هذه المهمة امرؤ حيّ. وقتما عرفنا أنك قادم، توسمنا فيك أن تمد لنا يد العون.»

فكرت قليلًا، وقلت: «أيعني ذلك أن عليّ الذهاب إلى أبي رسول، لأخبره أنه لا يجدر أن يعهد إلى هذا الرجل بابنته؟!»

فقال شكور: «أجل، هو كذلك.»

فقلت: «وأنّى لي بمعرفة أن أبا رسول سيجد لكلامي قبولًا؟!»

فقال رسول الذي كان صامتًا: «لا بد أن تخبره أنك إنما جئت تبلغه رسالة مني، لا بد أن تخبره أنها على لساني أنا.»

فقلت: «ويحي! لن يصدق أني قد رأيتك رأي العين.»

فقال رسول: «بل سأعطيك بينة، تستجلب بها تصديقه.»

فقلت: «وما هي؟»

فقال رسول: «قل له... قل له لم يكن ذنبك،... لم يكن مُغلى الأعشاب ذاك بذي أثر، كان قد فات الأوان.»

وأنا الذي أُستشكل عليَّ مراده، فما كان مني إلا أن قلت: «ماذا تقصد بمُغلى الأعشاب لم يكن بذي أثر؟»

فقال رسول: «قلها له هكذا، وسوف يفهمها، وعندئذٍ يصدق أنك جئت من قِبلي.»

لما أتم رسول كلامه، استمسك بالصمت. كنت لا أزال غير مصدق أنني بقول بضع كلمات سوف أتمكن من مساعدة ذاك الأب وابنته. خفضت رأسي، وحاولت أن أفكر فيما يمكن أن يصير. لكن شكورًا لم يكلني لصمتي، فسألني: «موافق؟... هل ستفعل ذلك؟»

أومأت برأسي، وقلت: «حسنًا، موافق.»

أُفلتت من شكور تنهيدة ارتياح، وقال: «الآن انظر إليه هناك بالأسفل، في دار الضيافة. انظر، تأمل أبا رسول وشقيقته.»

نظرت إلى ما دوني، في أول الأمر رأيت نقطة سوداء، طفقت النقطة تكبر وتكبر، ثم فجأة وجدت نفسي في غرفة مبنية من الطين لإحدى دور الضيافة. كانت غرفة صغيرة قد فُرش في أرضيتها بساط قطني كبير، وعدد من النمارق الصغيرة صُفت إلى جدرانها. كان ثمة رجل نحيل هزيل بوجه مسحوب وشارب رفيع يرتسم فوق شفتيه، يلبس قميصًا طويلًا بني اللون، وبنطالًا أسود، ويستند إلى نُمرق من هذي النمارق وقد بُسط أمامه خوان صغير عليه رغيف خبز ووعاء من الرائب. كانت إلى جانب الرجل تجلس طفلة صغيرة ذات ست سنين على وجه التقريب، شعرها كان طويلًا بلون الكستناء منسدلًا إلى منكبيها، ووجها مستديرًا كالبدر المنير. كان الرجل يغمس لقيمات الخبز في وعاء الرائب ويعطيها لابنته ويُؤكِّل نفسه أيضًا. قال شكور: «هل عرفتهم الآن؟»

وعلى حين غرة امَّحى مشهد المضيفة والرجل والفتاة الصغيرة. نظرت إلى شكور مرة أخرى، وقلت: «نعم عرفتهما، ألا تخبرني أين توجد دار الضيافة؟»

فقال: «في شارع الناصري، مضيفة السيد موسى. سيغادران بُكرَة غدٍ. عليك أن تكون هناك قبلما يسفر الصباح.»

فقلت: «حسنًا.»

فأردف شكور: « والآن حان وقت مغادرة قصر نُويان خان.»

فقلت: «سأتسلق السور مثلما فعلت من قبل.»

قال: «كلا، ليس بعد الآن. عندما هربت، وضعوا أعلى السور سياجًا، وبين فتحاته غرسوا بعض أجمات القتاد والأشواك الحادة. لا يمكنك اجتياز السور، هناك سبيل آخر سأريكه، حيث يمكنك الخروج منه. وأيان كنت في حاجة لي، فعد من الطريق ذاته إلى داخل القصر، وتعال إليَّ.»

فقلت: «أنا؟! وهل بوسعي المجيء وحدي؟!»

فقال: «نعم لا تخف، سأحاول أن أكون بمكان ما قريب.»

فقلت: «جيد، كيف سأخرج الآن؟»

قال شكور: «في زاوية الفناء اليُمنى، خلف أشجار الجُنينة، ثمة ممر مائي قديم شديد الضيق، ولكن يمكنك أن تعبر منه. قبل سنوات سُدت فوهته بالطين والحجارة، لكنه ليس محكم الغلق. تتدفق مياه الممر المائي من منتهى الزقاق. قرب الغرفة تحت السلم، بجانب الجدار توجد فأس صغيرة. هذه الفأس ملك مَشْ(8) يد الله الذي كان قد جاء قبل مدة لصيانة خزان المياه الأرضي، وتركها هناك. خذ الفأس، واضرب خفيَّة بفأسك ذلك الممر المائي لتحدث فيه فجوة، ثم اخرج منها. عندما تخرج حاول أن تردم فوهة الممر

بطريقة ما، لئلا تكون مرئية للعيان. وابق في أي مكان حتى الفجر، ثم سر في طريقك إلى مضيفة السيد موسى قبل طلوع الشمس.»

سألته: «وماذا بعد؟»

فقال شكور: «بلغ أبا رسول الكلام الذي اتفقنا على أن تقوله.»

فقلت: «وبعد ذلك... بعدما أبلغه.»

فقال شكور: «بعد ذلك تمضي لشأنك، تذهب إلى حيثما شئت.»

فقلت: «هل سيتجدد بيننا اللقاء؟»

فقال شكور: «لا أعرف، ولكني أحبذ ألا نلتقي في القريب العاجل، إنك تفهم ما أعنيه أليس كذلك؟!»

فقلت: «بلى.»

التقط شكور أنفاسه، وقال: «هل أنت متأهب للأمر الآن؟»

فقلت: «نعم.»

فقال شكور: «إذن اصعد.»

ثم دس كلتا يديه تحت كتفيَّ، ودفعني إلى الأعلى بتمام

قوته.

الفصل التاسع

كان أبي قد اتصل وأخبرنا أنه سوف يتأخر. أما ليلى فكانت تذاكر في غرفتها. كان من المفترض أن أعد العشاء قبلما يعود أبي، غير أنني لم أكن في مزاج لذلك. على هذه الحال جلست على فراشي ووضعت مذكرات رضا قُلي ميرزا على ركبتي، وطفقت أتأملها. وكالعادة راحت كلماتها تسحرني. لقد قرأتها مرارًا، لكنها في كل مرة عوضًا عن أن تمسي أحداثها مكررة، تبدو وكأنها تتجدد. ثبت عيني على سطرين من كتاباته، كانت الكلمات الدقيقة تنعقف حروفها الأخيرة حينًا إلى أعلى، وحينًا آخر تمتد إلى أسفل كما لو أن كل كلمة تأخذ بيد الكلمة التي بعدها، وتسحبها معها، ولا تسمح أن تنقطع في موضع:

ليت شعري أي حكمة في أن صبيًا مثلي لم يشب طوقه ويصلب عوده، لا يزال راكبًا للصعاب ليذلل عقبات حياته اليومية، يقص أثر طفلة أصغر منه سنًّا ليخلصها من براثن سارقيها الذين نضب معين الرحمة من قلوبهم. ربما كانت مشيئة رب العالمين أن يصقل تجربتي، و يشحذ قوتي بهذي الطريقة، ليهيئني لمواجهة أيام أعسر كانت تنتظرني في قادم حياتي.

كنت آنس داخلي الشعور ذاته الذي تملك رضا قُلي ميرزا،

حينما كان رأسي يزدحم بأسئلة لم تُجب، وألغاز لم تُحل بعد. كان يجدر بي أن أساعد أحدًا آخر ليتوصل إلى إجابة شافية لأسئلته. كان من المفترض أن أحل ألغازه الغامضة، وربما كانت الحكمة في ذلك الأمر هي لمواجهة أيام أعسر...

وضعت مذكرات رضا قُلي ميرزا في مكانها، وأخرجت من جيب قميصي الكارت الصغير الذي كنت قد أخذته من الرجل الهندي، وطفقت أقلب فيه النظر. اسم مكتوب بخط نستعليق واضح: سانجي بيهاي، ثم رقم هاتف جوال، دون أي كلمة أخرى أو علامة على وجه الكارت أو ظهره. جعلت أقلب قطعة الورق المُقوى الصغيرة تلك عدة مرات بين أصابعي، وفكرت في آخر كلمة سمعتها منه: «ثق بي!»

كان قد قال هذه العبارة بعدما فرغ من كل كلامه. وقتما عجزت عن إخفاء معرفتي بمزيد من المعلومات عن هذا القصر. وقتما قلت على غفلة بعد أن تناهى إلى أسماعنا صوت ضربات تنبعث من الجدار: «إن هذا الصوت كثيرًا ما يُسمع هنا لأن الجدران فارغة، ففي بعض الأحيان تنسل مثلًا قطة عبر شق ما إلى داخل الجدار، فتنشب مخالبها فيه، وتخمشه. وهكذا فأحيانًا ما ينبعث من الجدار صوت ضربات.»

ومن بعد ذلك سألني سانجي في لهفة وترقب: «وكيف

عرفت هذا؟!»

فأُفلِت من فمي الكلام إذ رحت أقول: «رضا قُلي...»

وابتلعت بقية كلامي. لكن كلمة واحدة كانت كافية حتى ينتبه الرجل الهندي للأمر ويتتبع طرف الخيط، فيسألني: «من يكون رضا قُلي؟!»

حينها آثرت الصمت، فسألني مرة ثانية: «من يكون رضا قُلي؟!»

فقلت: «شخص ما، صديق لي.»

كان أفطن من أن يُخدع: «هذا الاسم أقدم من أن يكون صاحبه صديقًا لك.»

كادت الغرفة أن تغرق في ظلام دامس، حتى إنني بت الآن ألمح معالم وجهه تتلاشى أمام عيني. خرجت من الغرفة وصرت منها إلى الإيوان حيث كان أضوأ. أتبعني سانجي كظلي، وما لبث أن قال: «أرجوك، إذا كنت تعرف أي شيء، فساعدني. الأمر يعنيني للغاية.» فأجبته: «لا أستطيع مساعدتك، إنك تبحث هنا عن كنز، أما أنا فعن شيء آخر.»

تقدم الرجل الهندي، وقال: «ما أبحث عنه ليس نقودًا أو ذهبًا أو شيئًا من هذا القبيل. أنا أبحث عن شيء آخر.»

فسألته: «وما هو؟»

تريث قليلًا، ثم قال: «إن قلت لك علام أبحث، فهل تعدني بأن تساعدني؟»

فقلت: «لا بد أن أعرف أولًا علام تبحث.»

فقال: «ما أبحث عنه ليس بالقدر الكثير، أنا أبحث عن بعض من الأوراق فحسب، كتابات كتبها شخص قد لا تعني للآخرين شيئًا.»

هوت كلماته على رأسي كمرزبة. لوهلة اختل توازني، فتراجعت خلفًا وتمسكت بدرابزين الإيوان الخشبي. لم يكن بوسع سانجي في عتمة المساء أن يستوضح من ظاهر هيئتي ما صرت إليه، وإلا لما استمر في حديثه: «إنه أمر شخصي للغاية، بالتأكيد لن تجديك معرفته شيئًا. فإذا كنت تستطيع...»

ودون أن أنطق بكلمة، مشيت نحو السلم، ونزلت الدرج بسرعة. لحق بي الرجل الهندي: «انتظر، انتظر.»

وقفت في الفناء أمام الحوض. بدا لي للحظة كما لو أن الحوض بات ملآنًا بالماء، ويمكن رؤية انعكاس صورة القمر المكسورة فيه. تقدم الرجل الهندي، ووقف أمامي، فحال بيني وبين رؤية الحوض.

«لست رجلًا سيئًا أيها الشاب، لتستقين نفسك أنني لا أكذب. يكفي أن تفكر في أن هناك سُبلًا أخرى، لإجراء نقاش مثمر معك. مثلًا يمكن للرجل الذي تركنا قبل دقائق أن يعود بمكالمة مني، وحينها يمكن لكلينا أن نناقشك في هذا القصر الفارغ بأسلوب آخر لتفضي لنا بكل ما تعرفه. لكننا لن نفعل أيًا من هذا، لأنه لا أنا ولا حتى ذاك الرجل الذي ينتظرني في السيارة ليس أي منا بشخص سيئ الطوية. متى فكرت في هذا الأمر، فسوف تستنج أننا لا نسعى وراء كنز نبحث عنه، وهكذا يمكنك الوثوق بنا.»

كنت منتبهًا إلى الحوض أكثر من انتباهي إليه. ملت برأسي جانبًا، لأتمكن من رؤية الحوض. لكنه أقبل بوجهه ثانية، وقال: «إنني أعمل لدى رجل فاحش الثراء، حتى أوشك المال أن يصبح لديه بلا قيمة. إذا ساعدتنا، فسوف تنال مكافأة مجزية.»

تزحزحت جانبًا، ونظرت إلى الحوض. لم يكن هنالك أي أثر للماء. كان الحوض فارغًا غير أنه أسود اللون وموحش. ولكي أملص من إعطاء الرجل الهندي أي رد محدد، قلت: «لا بد أن أفكر.»

وبدأت أمشي. مضى سانجي يتعقبني، وقال: «موافق، فكر، لكن خذ هذا مني أيضًا.»

وقفت واستدرت. دفع ببطاقة صغيرة من الورق المقوى كانت في يده نحوي، وقال: «هذا هو رقم هاتفي. اتصل بي غدًا، لنلتقي في مكان ما، ونتحدث معًا. كم أتطلع لسماع كل شيء تعرفه عن هذا القصر وما يدور فيه!»

رفعت يدي، وتناولت الكارت منه. للحظة احتفظ بالكارت بين أصابعه، ثم قال: «ثق بي!»

وضعت الكارت في جيب قميصي، ومرة ثانية تناولت أوراق رضا قُلي، وأخذت أطالعها. ها قد جاء أحدهم وراح يبحث عنها، ويطلب منى أن أثق به، وأعطيه الأوراق. ما أصعبه على نفسي من شعور أن أتخلى عن مذكرات رضا قُلي وأشاركها الآخرين. لكن الرجل الهندي كان يصر إصرارًا كبيرًا لم أستطع معه طرد الفكرة من رأسي. كانت عيناي على الورق عندما فتحت ليلى باب الغرفة وأدخلت رأسها، وقالت: «أنت إلى الآن لم تتحرك؟! هيا قم، عندما يأتي أبي من الخارج، يكون جوعانًا. وسيجعل الجوع بطنه لا ينفك يقرقر.»

فقلت وأنا مستاء: «حسنا سأذهب الآن.»

وقبل أن تخرج رأسها، قالت: «لا تنس البصل المقلي، أضف قليلًا من الكركم إلى البصل وأنت تقيله، ذلك يعطيه رائحة

زاكية»

«هل تأمرين بشيء آخر؟»

«لا، المرة السابقة التي لم تضف فيها البصل، لم يكن مذاق الطعام سائغًا. فأردت أن أُذكرك.»

وضعت الأوراق جانبًا، وقمت. ذهبت إلى المطبخ لأصنع عُجة البيض. تناولت بصلة، وقشرتها. ألهبت رائحة البصل النفاذة أنفي. غسلت البصلة، ووضعتها في طبق لأقطعها. فما كدت أغرس السكين فيها حتى فاحت رائحتها النفاذة مرة ثانية. تمهلت لحظة، وحينئذٍ امتثلت الصورة التي رسمتها في خيالي لرضا قُلي ميرزا أمام ناظري. وكأنما كان يقف في إحدى الزوايا ويرقبني. يريد أن يعرف كيف سأتصرف. هل سأحتفظ بمذكراته لديّ، أم هل سأعطيها إلى شخص آخر. طالما كنت أتوق لمعرفة أي شيء يحب أن أفعل. أيحب أن أحتفظ بمذاكراته لنفسي وغاية ما أفعله هو أن أعطيها لصديق أبي الكاتب أم أنه يحب أن أعطيها الرجل الهندي وأسمح له بأن يأخذها معه مثلًا إلى الهند ليكتشف سر ذهاب رضا قُلي ميرزا إلى عالم الموتى، وفي المقابل يدفع لي هو بنفسه أو الرجل الذي يعمل لديه مبلغًا كبيرًا من المال. كنت متيقنًا من أنه لا يحب أن أبيع مذكراته من أجل المال لشخص لا أدرى ماذا سيفعل بها. تلك المذكرات التي جمع

فيها بنفسه كل تجاربه الحياتية، ومعاناته هو وأنداده من الصبية الآخرين، ولم يكن من الإنصاف أن أسلمها لرجل ما كان ليعرف قيمتها. لكن وما أدراني أن الرجل الهندي لم يكن ليعرف قيمتها؟ وهو الذي راح يسعى طوال حديثنا أن يكون منطقيًا حكيمًا.

ولم يزل يتحدث بلطف وذوق. ومع أني في البداية قد انتابني منه شيء من الخوف، فإنه لم يسع لإخافتي أكثر، واستيضاح أي شيء مني بالإرهاب والقوة. ربما كان كاتبًا هو الآخر، أو ربما كان مؤرخًا. كنت أفكر في قرارة نفسي ليتني كنت سألته ماذا يبتغي من هذه المذكرات، ليتني سألته كيف فطن أصلًا إلى أن مذكرات رضا قُلي موجودة ليرتحل عن الهند ويأتي هنا بحثًا عنها. وهل جاء من الهند أصلًا؟! إنه يتقن التحدث باللغة الفارسية. ربما كان أحد الهنود الذين يعيشون في طهران. رأيت أن أسئلة عديدة كان ينبغي لي أن أطرحها عليه غير أني لم أسألها. كانت رائحة البصل تلهب عيني، حتى ابتل وجهي كله بالدموع. مسحت دموعي بظهر يدي، وحاولت أن أتخيل صورة رضا قُلي مرة ثانية، لكنني أخفقت. لم تكن تشخص أمامي إلا صورة الرجل الهندي وهو يقول: «ثق بي!»

سكبت شرائح البصل المقطع في المقلاة لأبدأ بقليها في

الزيت. مرة أخرى حاولت أن أخمن أيقبل رضا قُلي أن أذكر شيئًا عنه للرجل الهندي أم لا. رأيت أن من يكتب سيرته الذاتية بنفسه إنما كتبها ليقرأها الآخرون. وقد أهدى رضا قُلي الذي لم يرزق بأطفال سيرته الذاتية قبل ذلك لمدير دار الفنون حتى يطالعها. كان يريد أن يعرف شخص آخر ما مرَّ به في مسيرة حياته. لا شك أنه قد سُر لقراءتي مذكراته، مثلما قد سُر لاطلاع أبي وليلى عليها. والآن فإنه سيكون سعيدًا، إذا قرأها أيضًا أناس آخرون. لذلك فإني إن أعطيت الرجل الهندي نسخة من مذكراته، فسوف يسعد لذلك أيضًا.

أخذت من الثلاجة بضع ثمرات من الطماطم، ووضعتها في طبق لأقطعها. لقد اتخذت قراري، وعقدت النية على أن أتصل بالرجل الهندي غدًا، لأحدد معه موعدًا نلتقي فيه. يجب أن أخبره أولًا بكل ما لديَّ من كلام. أخبره كيف عثرت على المذكرات، كيف طالعتها، كيف عشت معها، وما سأفعله بها. ثم ألقي عليه أسئلتي. وإن توصلنا معًا إلى اتفاق، أعطه المذكرات لكي يقرأها. وبينما كنت غارقًا في تلك الأفكار، ضغطت بحافة السكين على حبة الطماطم تحت يدي، فشقت السكين قشرة الطماطم دفعة واحدة، وتناثرت على وجهي بضع قطرات من عصارة الطماطم الحمراء.

الفصل العاشر

كان شارع الناصري خاليًا. كانت شرذمة من الناس يذرعون الشارع روحة وجيئة، وقلّما كانت تمر بهم هنا أوهناك عربة. أما نصف المحال فكانت مغلقة، وحتى تلك التي لا تزال مفتوحة لم يكن داخلها أحد تقريبًا. كنت جائعًا وفي جيب قميصي قِران واحد باقٍ ما خطر ببال فرّوخ أن يستلبه من جيبي ليلة أمس. قلبت طرفي في أنحاء المكان علني أجد بمكان رغيف خبز أبتاعه أسكت به أطيط بطني الخاوي. لكنني لم أر شيئًا في أي مكان. كانت أغلب المحال التي أعرفها مغلقة. كان المخبز مغلقًا، دكان صفار النحاس مغلقًا، محل البَزّاز مغلقًا هو الآخر، متجر الكتب مغلقًا أيضًا. كان دكان التبغ مفتوحًا لا سواه، وبداخله يقف بعض نفر. سألتهم عن عنوان مضيفة السيد موسى، فأشار أحدهم نحو الطريق، وقال: «تلك الناحية، بجوار موقف السيد موسى.»

اتخذت ذاك الطريق لي مسلكًا، وقطعته. ومن أحد الأزقة الواسعة، خرجت عربة خشبية متهالكة متداعية قد رُبط إليها حصان أبيض هزيل، ويقودها رجل شائخ نحيل وهن. راحت العربة تقطع عليّ الطريق، فوقفت ريثما تعبر. حينذاك علا صوت بكاء ونحيب بعض النسوة من داخل أحد بيوت الزقاق، وقد وقف قرابة أربعة رجال أمام البيت بالخارج

ينظرون إلى العربة التي كانت تشق طريقها خارج الزقاق. وقعت أنظاري فُجاءَة داخل العربة، ورأيت قماشة سوداء سميكة ملقاة على شيء أقرب حجمًا لأن يكون جسد إنسان. فانتبهت إلى أن جثة أخرى ربما تكون قد رحلت عن دنيانا بسبب الكوليرا تمكث في الجزء الخلفي من العربة. وجال بذاكرتي حينها الرجل الذي كان قد استقل عربتنا قبل يوم في مدينة شهريار، ذاك الرجل الذي كان موبوءًا ولفظ أنفاسه. رجوت ألا تكون أصابتني منه عدوى. لكن حتى هذا الأمر لم يكن يُشكل لي فارقًا، حسبي أني كنت جائعًا، وهذا ما جعلني آمل أن الوباء لم يصبني. ورغم هذا كان التطواف في مدينة وبئة أمرًا يحيق به الخطر. قلت في قرارة نفسي، سأنجز مهمتي سريعًا، وأذهب إلى الميرزا حسن خان. ولما غادرت العربة مررت أمام الزقاق. وفي حين كان صوت البكاء والنحيب لا يفتأ يرن في أذني استمررت في طريقي. وصلت إلى بوابة خشبية كبيرة مغلقة، يجلس بجانبها على مقعد رجل هرم وإنه يضع مبسم الجبق في طرف فمه. كانت عينا الشيخ نصف مفتوحتين على نحو يجعلك حائرًا أنائم هو أم يقظان. لما أنعمت النظر، رأيت خيط دخان يخرج من فتحتي أنفه، ففهمت أنه متيقظ، ويدخن الجبق. هتفت قائلًا: «يا مَشْدي، أين موقف السيد موسى؟»

فتح العجوز عينيه شبه المغلقتين، ونظر إليَّ لكنه لم يجب.

فهتفت مرة أخرى: «أين موقف السيد موسى؟»

هذه المرة تريث العجوز هنية، ثم أزاح قصبة الجبق التي كان يسندها بيده اليمنى إلى طرف فمه قدر بضع أصابع، وأشار بظهر كفه إلى الباب المغلق وراءه بما يعني أن هذا الموقف يوجد هنا. ولما أُجيب سؤالي الأول، قفيته بسؤال ثانٍ: «وأين مضيفة السيد موسى؟»

لم يجبني العجوز هذي المرة. ألصق مبسم الجبق ثانية بطرف فمه، وأطبق جفنيه شبه المفتوحين. استدرت، وتطلعت إلى امتداد مساري. حينئذٍ رأيت رجلًا ناحلًا ممسكًا بيد طفلة، ويخرج بها من باب صغير كان يبعد قليلًا عن باب الموقف. كان هو ذا، نصر الله والد رسول برفقة ابنته عالية. كان الأب يرتدي قباءً رمادي اللون طويلًا ويعتمر قبعة من اللباد، كان بنطاله فضفاضًا من الدبيت الأسود، ويتمنطق بشال أسود اللون ملفوف على القباء حول خصره. أما الطفلة فكانت ترتدي ثوبًا أحمر قانيًا ذا كشكشات، وتغطي رأسها بمنديل ينسدل إلى أسفل صدرها. تعقبتهم. كان أبو رسول حثيث السير، أما الفتاة الصغيرة التي تمسك بيد أبيها فقد أوشكت أن تركض حتى تلحق به. طفق السائرون في الشارع يزدادون عددًا. وكما لو كان نحو شخصين يزاحمانهما بالمناكب في معترك السير ويدفعانهما، حتى قربت الفتاة في

إحدى المرات تسقط أرضًا. لم يكن يفصلني عنهما أكثر من بضع خطوات، بيد أني لم أكن أجرؤ على المضي قُدمًا، وقول أي شيء. وقف نصر الله مرة واحدة أمام دكان ما، واستفسر الرجل الذي كان يجلس إلى جانب باب الدكان شيئًا. وقفت أنا الآخر على مبعدة منهم. أشار الرجل بيده ليريهم الطريق وشرع نصر الدين في السير مرة ثانية، وسرت أيضًا.

مضينا إلى الأمام قليلًا، حتى بلغنا أحد الأزقة. ولج أبو رسول وابنته إلى الزقاق، وقفيتهم أيضًا. كان زقاقًا كبيرًا وفسيحًا وتصطف إلى جانبيه بيوت كبيرة من الطوب اللبن يتاخم بعضها الآخر. في وسط الزقاق وقف نصر الله أمام باب كبير لأحد البيوت. أرسل يد ابنته من يده، وأمسك طراقة الباب وراح يدقه مرة بعد المرة. وقتئذٍ انتقلت إلى ناحية الزقاق الأخرى، فتفيأتُ في فيء جدار أحد المباني الكبيرة، وراقبتهم في صمت. لم يكل نصر الله عن طرق الباب. حتى في النهاية فُتح له. فتحه رجل لحيم وله شارب عريض، يلبس قميصًا طويلًا أزرق اللون مقلمًا بخطوط بيضاء. سمعت نصر الله وهو يجهر بالسلام، غير أن شيئًا مما قاله بعد ذلك لم يقرع مسامعي. حينئذٍ صوب الرجل فيه وفي عالية التي كانت تقف إلى جواره طرفه وصعده. وأشار إلى عالية، وسأل أباها عن شيء. أومأ الاب رأسه بالموافقة، ثم قال له شيئًا. بعد ذلك أشار الرجل لهما أن ينتظرا خلف

الباب، وذهب هو. فطنت من تلك التصرفات إلى أن كل شيء قد تم. وإذا لم أبادر إليه في الحال، فسوف تصير أخت رسول إلى داخل تلك الدار، ولن تطلها يداي بعد الآن. لذا تقدمت، حتى غدوت وراء نصر الله واقفًا، فهتفت: «أيها المَشْدي... أنت أيها المَشْدي!»

التفت أبو رسول، ورمقني قائلًا: «هل تتحدث إليَّ؟»

- «نعم أتحدث إليك.»

- «وماذا تريد؟!»

- «تعال، دقيقة واحدة، لديَّ رسالة لك.»

- «رسالة؟ أي رسالة؟ ممن؟»

- «أقبل لأخبرك.»

أمسك نصر الله يد ابنته، وزلف إليَّ خطوتين ثلاثًا، ثم قال: «قل، ممن رسالتك؟»

فقلت: «من ولدك، من رسول.»

تكورت عيناه فرط الدهشة، ثم ما لبث أن قال: «رسول؟! من أين تعرف رسولًا؟!»

فقلت: «إني أعرفه، وقد حمّلَنِي إليك رسالة.»

فقدح غضب أبي رسول، وقال: «كيف تجرؤ على قول هذا؟! إن ما تشدقت به لهو هراء، لقد فارق فلذة كبدي الحياة قبل أسبوعين، أجئت الآن لتخبرني بأن لديك رسالة منه؟!»

هممت أن أجيبه لولا أن جاء ذاك الرجل اللحيم ووقف على عتبة الباب، والتفت إلى أبي رسول قائلًا: «ادخل.»

استدار أبو رسول، ونظر إلى الرجل. بعد ذلك رمقني مرة ثانية. قلت: «أعلم، أعلم أن ولدك قد توفي، ولكنني أحمل رسالة منه، وقد أعطاني من لدنه بينة كي تصدق أني مُحق.»

تيبس أبو رسول في مكانه. كانت يد عالية لا تزال في يده، في حين كانت الطفلة تنظر نظرات ملؤها الدهشة والاستغراب تارة لي وتارة لأبيها. أما الرجل الذي كان واقفًا على الباب وقد رآني لتوه، قال مرة ثانية: «هيا ادخل، أريد أن أغلق الباب.»

استدار أبو رسول مرة أخرى، ونظر إلى الرجل ثم إليَّ وبعد ذلك قال بلهجته المشوبة بالغضب ذاتها: «لا إله إلا الله، لعنة الله على شيطانكم، اذهب... اذهب وقل لمن أرسلك أيًا كان إني ما عاد في حوزتي مسكوكة واحدة كي تخطط لتستلبينها غشًا وخداعًا. اذهب... اذهب ولا تؤذين رجلًا مكلومًا.»

وسحب ابنته من يدها، واتجه نحو باب البيت. لكني لم أنفض يدي من الأمر. مشيت عقبه، وقلت له: «إن رسولًا يقول لم يكن ثمة عيب في مُغلى الأعشاب ذاك، كان قد فات الأوان على أن تسقينيه.»

فجأة جمد نصر الله في مكانه كالصخرة الصماء. وقبل أن يتحول، استدارت عالية ونظرت إليّ. تصفحت محياها الذي كان مُدورًا ويضوي كالبدر من إطار حجابها الأبيض، فبدا لي أني لم أكن لأرتضي أن تحل بها نازلة. آنئذٍ تقدمت بخطى أشد إحكامًا، وقلت وإني واثق: «إذا كنت محقًا فيما قلته لك، أقبل لأخبرك ببقية كلامه.»

التفت الرجل الذي كان يقف وسط الباب إلى أبي رسول قائلًا: «من هذا؟ ومن أين جاء؟ هل آتيه وأزجره لينصرف؟»

فمكث نصر الله قبل أن يقول: «إنه ليس بغريب، تفضل أنت أدخل، وسوف آتي في الحال.»

فقال الرجل: «أسرع، ولا تطل الوقوف وتعطلنا.»

وبعد ذلك أطبق الباب، ومضى. استدار نصر الله، ونظر إليّ. كان في حال مختلفة عما كان عليه من قبل. كأنما أحزان العالم قاطبة قد انسكبت في عينيه.

نظر إليّ، وقال: «هلا أعدت على مسمعي ما قلته آنفًا؟»

فقلت: «إن رسولًا يقول إن مُغلى الأعشاب ذاك الذي صنعته بنفسك، وقدمته إليّ لأتناوله لم يكن ليتسبب في موتي، كان قد فات الأوان على إمدادي بالدواء.»

اغرورقت مآقي نصر الله، وقال: «عندما مددته بمُغلى الأعشاب لم يكن سوانا من أحد. ووقتما تجرع الشراب، لم يمهله القدر وقتًا كافيًا ففاضت روحه إلى بارئها. منذئذٍ لم تنفك سياط ضميري تجلدني، إذ قتلت ولدي بيدي، فكيف بك تعلم أنني مددته بالدواء؟!»

فقلت: «لقد سمعت القصة من رسول.»

فقال: «ولكن رسولًا قد مات، كيف رأيته وإنه لميت؟!»

فقلت: «إنها قصة يطول سردها، أما الآن فقد قال لي رسول أن أطلب منك ألا تسلم شقيقته إلى أيدي أولاء (وأشرت إلى البيت) إنهم ليضمرون لها السوء، يريدون أن يقتادوها إلى مكان آخر، ويبيعوها للأجانب.»

فما لبثت عينا أبي رسول المغرورقتان أن انفرجتا على وسعيهما مرة أخرى، وقال: «أنت... من أين سمعت أنت؟... هل سمعت بنفسك هذا من رسول؟!»

فقلت: «نعم... قال رسول لا تفعل هذا الأمر.»

آنذاك جاء الرجل ذو الشارب الكث، ووقف أمام الباب، وزعق: «هيا يا هذا كفاك عبثًا، أأغلق الباب أم ستأتي؟»

نظر نصر الله إليّ قليلًا، ثم التفت إلى ابنته، وبعد ذلك أدار رأسه نحو الرجل، وقال: «كلا... لن آتي، تفضل وأغلق الباب.»

فجأة ارتفع صوت رجل آخر، إذ قال مستنكرًا: «ما الذي تعنيه بكلا؟ أكل تلك الاتفاقات بيننا ما كانت سوى لهو صبيان معًا؟!»

رفعنا رؤوسنا ونظرت أنا ونصر الله وابنته إلى سطح البيت. كان يقف على حافة السطح رجل أصلع يرتدي قباء أسود ذو كرش ينتأ من بين أزرار القباء المفتوحة، ويتحدث بحنق: «إن كنت راغبًا عن المجيء لم قطعت عهودًا زائفة؟ لمَ أضعت وقتنا سُدى؟»

أما نصر الله الذي كان قد تملكه الخوف، فقال متلعثمًا: «كم آسف لإزعاجك، سوف نمضي وربما نعود مرة أخرى.»

هذه المرة قال الرجل بجانب الباب: «ماذا تعني بربما نعود مرة أخرى؟! ولم تعبث هكذا وتتصرف باستهزاء؟!»

لم يطل انتظار نصر الله. سحب ابنته من يدها، وانطلق ذاهبًا لا يلوي على أحد. وقد أتبعته أيضًا. هتف الرجل فوق السطح: «مهلًا، إلى أين أنت ذاهب؟!»

ودون أن يجيبه نصر الله شحذ خطاه مسرعًا. وعندما رأى أن عالية لا تستطيع أن تلاحق خطواته المسرعة، انحنى وحمل ابنته. وابتعد عن البيت وقد أوشك أن يطوي طريقه ركضًا. كنت أسير على بعد نحو ثلاث خطوات خلفه. وكم من مرة التفت ورائي لأطمئن أن ما من أحد يقص أثرنا. خرجنا من الزقاق وولجنا الشارع الرئيس. كان الشارع قد أصبح مزدحمًا، وراحت مزيد من العربات تقطعه. وظلت أعداد الناس الذين يروحون ويغدون أمام الدكاكين تزيد، لو أن أغلبها كان مغلقًا. لما تقدمنا في الشارع قليلًا، استدار نصر الله، وألقى نظرة من خلفه. بعد ذلك التفت إليّ قائلًا: «أليس هنالك من أحد يستدبرنا؟!»

فقلت: «نعم لا يوجد، لقد نظرت مرارًا.»

حينئذٍ وضع ابنته على الأرض، وبينما كان لا يزال يحاول المشي بسرعة، قال: «كان لا يخفى أنهم محتالون... هذا المحتال اللعين الذي أدعو أن ينتقم الله منه الأُسطى رجب النجار هو من عرض عليّ الأمر فقال خذها إلى هناك. قال إن البُنية ستعمل هناك، ويُقدَم لها الطعام، وتأخذ أجرة أيضًا. وستبقى هناك ريثما ينقشع الوباء، وتتحسن الأوضاع، ثم بعد ذلك اذهب إليها وأحضرها.»

وفي درج كلامه جعل يتلقط أنفاسه. وبينما كان يتحدث

توقف على حين فجأة، وأدار رأسه مرة أخرى إلى الخلف وبصر إليَّ، ثم واصل كلامه قائلًا: «وما أدراني أن طهران هي الأخرى على الحال نفسها، طويت المدينة أمس رأسًا على عقب، لأشتري رغيف خبز أتناوله مع هذه الطفلة.»

ثم ما لبث أن بدل لهجته، وقال: «والآن قل لي... قل لي من أين عرفت رسولًا؟! كيف رأيته؟ أتمارس السحر؟! أتكلم الموتى؟!»

لم أدر ماذا ينبغي أن أخبره، ماذا أقول لأجعله يصدقني. قلت: «الآن سوف أروي لك قصته مفصلة.»

فقال: «كل قصة ينبغي لها أن تبدأ بطريقة ما، قل إذن.»

فما كان مني إلا أن قلت: «سوف أقول... أنا جائع الآن، وما تلمَّظت بشيء منذ أمس، لنذهب ونعثر على شيء نأكله ثم أخبرك بكل شيء.»

فقال نصر الله: «مثلك نحن جائعان، لم نفطر حتى، لنبحث معًا عسى نجد شيئًا في مكان نأكله.»

ثم تقدمنا من دون أن ينبس أحدنا بكلمة. صرنا إلى داخل شارع الناصري، فلم نمض إلا قليلًا، حتى وقعت أعيننا على مقهى في الطرف الآخر للشارع كان مصراعا بابه الخشبي قد رُفعا عن مدخله، فغدا مفتوحًا. قلت: «هنالك مقهى، مفتوح.»

شاهد نصر الله المقهى أيضًا، وما لبث أن قال: «لنعبر إلى ضفة الشارع الأخرى.»

وبينما كنا نعبر الشارع، هالتني رؤية وجوه أناس مألوفة لي في تلك الجهة المقابلة. كان راضي نفسه بقامته الفرعاء وجسده النحيل يتسكع بجانب المحال. فزعت حينها فزعًا، واستدرت من فوري. ودون أن أقول شيئًا لنصر الله نأيته. وسرعان ما ذهبت إلى أحد الأزقة الضيقة التي كانت في طريقنا. وهنالك انطلقت مهطعًا، وإلى الأمام قليلًا تشبثت بجدار تجويف في مدخل أحد البيوت، واختبأت. لم يمض من الوقت شيئًا، حتى استك في مسامعي صوت صراخ طفل، فصخب وصياح رجل. كان اللعاب قد جف في حلقي، وراح قلبي يدق دقًا مدمدمًا بين أضلع صدري. فجأة ارتفع صوت صياح الرجل مرة أخرى بيد أنه أخفض من ذي قبل. لم أدر كيف أتصرف. جلست على الأرض، وأخرجت رأسي من ركن الجدار. وجهت نظري صوب رأس الزقاق، فنظرت بضعة أنفار كانوا يركضون في اتجاه ما. لم أعد أستطيع التحمل، فقمت، وعدت من حيثما جئت، حتى صرت إلى الشارع. وهناك رأيت جمعًا من الناس متحلقين حول شيء ما كان قد سقط أرضًا. دنوت، وشققت طريقي بين الجمع. وما هي إلا أن رأيت نصر الله وقد سقط على الأرض يتلوى

ألمًا. دار رأسي بي، وتغبشت الرؤية أمام عينيّ، حتى جعلت كالمجانين أدور، وأنظر حولي متلفتًا. حاولت أن أسأل أحدًا عما حدث، لكن لساني اعتقل. وما كدت أنفجر في البكاء، إلا وقال أحدهم: «لقد سُرقت منه طفلته. فلما أن مضى ليركض خلفهم، سقط تحت العربة، فدُهست تحت عجلاتها قدمه.»

الفصل الحادي عشر

كان المكان أمام المشفى العام يعج بالناس والعربات على حد سواء، ولم يكن يُسمح لأي أحد كان بالدخول. كانت بوابة المشفى العام مغلقة، مثلما كانت النوافذ الخشبية التي تشرف على الشارع. أما الملأ من الناس الذين كانوا أمام الباب فما كفوا عن الصخب. كان بعضهم جلب معه مريضًا، وبعضهم الآخر كان هو نفسه مريضًا، فيا عجباه كم من أناس ساقهم داء الكوليرا وقتئذٍ إلى المشفى! كان ثمة جنديا أمن وقفا أمام المشفى، وراحا يَذُودَان الناس عن بوابة الدخول. أما الرجال الذين كان وضعهم الصحي أكثر سوءًا فما لبثوا أن سقطوا وسط الجموع مغشيًا عليهم. كان هنالك رجل واقف إلى جانب الجدار يتقيأ، وعلى الناحية الأخرى رجل آخر كما لو أنه فقد القدرة على تحمل الإسهال الذي خالجه فحل بنطاله واستند إلى الجدار ليقضي حاجته. غير أنه لم يستطع القيام من بعد. أما أنا فقد كنت واقفًا إلى جانب العربة التي كان نصر الله قد أُركب فيها. فبعد زمن من سقوطه أرضًا، أوقف الناس عربة وأركبوه فيها، لكي توصله إلى المشفى العام. قلت من بين لفيف الناس سوف أرافقه في الطريق، وركبت العربة.

على ما يبدو أن راضيًا كان ابتعد عن ذاك المكان قبل وقوع

أحداث سرقة الطفلة. ومع ذلك فطوال الطريق والعربة تتحرك بنا في الشارع، كنت طارقًا رأسي، ناظرًا إلى أسفل، كي لا يرى أي من الآخرين وجهي. كان أبو رسول قد غاب عن وعيه، إلا أنه راح يأن من آن لآن وكانت عيناه وفوه شبه مفغورين، وظل يلفظ اسم ابنته. وصلنا أمام المشفى العام. وقتما أبصر سائق العربة، الذي كان قد دفع له أحد الواقفين في الشارع أجرته، هذا التكدس أمام المشفى، أوقف العربة، وقال: «ما الذي يحدث هنا؟! على هذا النحو فإن أحدًا لن ينجد هذا المسكين ويسعفه. إن كل هؤلاء الأَعلاَّء الذين جاءوا إلى هنا بسبب (صفر بفمه) لم يبقوا لهذا البائس مطرحًا آخر ولم يذروا.»

ثم قال لي: «انزل، وانظر، هل يمكنك أن تفتح الطريق؟»

ترجلت عن العربة. لكن ما لبث الحوذي أن بدل كلامه، فقال: «عندما يمكث كل هؤلاء الكبار أمام الباب فما عسى صغير ضئيل مثلك أن يفعل؟»

ثم لبد كل منا بمكانه، وتطلعنا أمامنا. كنت أتأمل الناس، وأفكر فيما عليّ أن أفعله، حتى قال أحد من دوني: «لم غادرت ليلة أمس بلا حس ولا خبر؟! أما كان من المفترض أن تعاونني؟»

استدرت، ونظرت ورائي. كان ذاك الشاب الذي يضع نظارة،

إنه نادر الذي كان يعقم الجثث. ساعة إذ أبصرته تلعثم قولي، ففأفأت وتأتأت: «سلام الله أيها الميرزا!»

فقال نادر: «أي سلام وأي تحية؟! دعك من هذا وقل لي لم ألقيت ليلة أمس برميل الفورمالين على الأرض ومضيت؟»

فقلت وجلًا: «تالله لم يكن الأمر بيدي. لقد وقعت في يدي رجل ما... وقعت في يدي نفر ما... سأخبرك يا ميرزا فيما بعد، أما الآن أترى...»

ثم أشرت إلى العربة. نظر نادر إلى العربة ونصر الله الذي كان مستلقيًا داخلها، ثم قال: «هل أصيب بالكوليرا؟ هل هو أحد أقاربك؟»

فقلت: «لا، ليس بموبوء، داهمته عجلات إحدى العربات. سُرقت منه طفلته، فلما هب لنجدتها، وقع، وأتت عليه عجلات العربة.»

فقال نادر مندهشًا: «ومن سرق طفلته؟!»

هذه المرة أجاب عن سؤال نادر ذاك الحوذي على العربة قائلًا: «لو علم لذهب إليهم وانتزع طفلته منهم،... الآن يبدو من مظهرك وهندامك أنك ذو سلطة وشأن، فإن كنت، فأسعفنا بحاجتنا، لننقل هذا المسكين إلى المشفى، ربما إن أبطأنا عن نجدته، يلفظ أنفاسه بين أيدينا.»

رمق نادر الحوذي بنظرة، ثم قال: «لست بذي سلطة.»

فقلت: «ولمَ لا؟! أنت ذاتك طبيب. لقد رأيتك بعيني الليلة الماضية عندما...»

فقاطعني نادر، وقال: «عندما ماذا؟ أعندما توليت أمر دفن الموتى؟ أصار دفن الموتى دليلًا على ممارسة الطب؟!»

فقلت: «كلا، ولكنك كنت خبيرًا بالأدوية... ذاك البرميل التي طلبت مني إحضاره...»

فأطلق نادر ضحكة، وما لبث أن قال: «لهذا السبب فإن وضعنا على هذا النحو، ففور أن تسمع هذه الأُمة من امرئ ما كلمتين فخمتين طنانتين، يقطع أفرادها باليقين ويقولون هذا طبيب بل وابن سينا عصره وأوانه.»

ثم نظر في عيني، وقال: «لست حكيمًا ولا طبيبًا. أنا نادر ميرزا. تلقيت تعليمي في بلاد الإفرنج، هنالك درست علم الفلك، هل تعرف ماذا يعني علم الفلك؟»

هززت رأسي بالنفي، وقلت: «لا!»

فحول نادر نظره إلى الحوذي، وقال: «وماذا عنك؟ هل تعرف ماذا يعني؟»

فما كان من الحوذي إلا أن قال: «إني لا أعرف شيئًا حاشا

الحصان والعربة والعلف، أقصى ما أحيط به علمًا هو تنعيل الحصان، هذا تمامي وكفايتي، وإلا... ماذا بمقدوري أن أعمل؟!»

ضحك نادر، وقال: «هذا هو، هذا هو السبب في أن وضعنا على هذا النحو.»

ثم التفت إلينا نحن الاثنين قائلًا: «الفلك هو علم النجوم والكواكب، علم المجرة، أوَتعلمان ما المجرة؟»

وقبل أن أجيبه، قال الحوذي: «هب أننا نعرفها، ماذا سنجني الآن مما تقول؟!»

قال نادر: «ماذا ستجنيان؟! ينبغي للإنسان أن يعرف كل شيء، ليسود العالم. وما أدراك، رُبَّ يوم يطأ فيه هذا الإنسان هامة الثريا بقدميه ويبني على النجوم بيتًا. ويمضي إلى القمر مُصعدًا يجلس على سطحه يتشوف من علو إلى الكون بكل ما فيه.»

لم يكد نادر يتم كلامه إلا ودوت ضحكة الحوذي في الآفاق، وقال: «رد الله إليك عقلك أيها الشاب، ابن من أنت؟! لا جرم أن أبويك بائسي الطالع يندى جبيناهما خجلًا أمام القاصي والداني بسببك أنت، أي هراء ذاك الذي تتفوه؟ ما القمر إلا رقاقة صفيح براقة معلقة في جو السماء (وضحك

مرة ثانية) من ذا الذي يمكنه الجلوس على سطح القمر...»

وانفجر بالضحك مجددًا. بعد مدة قصيرة، وبينما كانت بقايا ضحك لا تزال في فمه الأهتم، قال: «لقد ظننا أنه ذو سلطة وشأن عظيم، ... هيا يا ولد، دعنا نصعد العربة، لنبحث عن أي جابر للعظام يداويه، لقد قطعنا طريقنا إلى هنا سُدى.»

أما أنا الذي لم أفقه شيئًا من كلام نادر، فكنت لا أزال واقفًا أحملق إليه. زوى نادر حاجبيه، و نكس رأسه. أطرق قليلًا، ثم التفت إليّ، وقال: «لطالما ترددت إلى المكان هنا على مدى الأيام القليلة الماضية، وتعرفت إلى جنود الأمن، كذلك بعض من هم داخل المشفى، دعوني أذهب الآن لأرى ما يمكنني فعله.»

ومضى قدمًا. لم يكد يبتعد بضع خطوات، حتى قال الحوذي: «إنه لمجنون، أليس كذلك؟... كأنما ارتطم رأسه بشيء...»

ثم ضحك مرة بعد، وقال: «يقول كنت ببلاد الإفرنج!»

وأتبعها بضحكة أخرى. أما نصر الله الذي كان في مؤخرة العربة، فأخذ يئن قائلًا: «بُنيتي... عالية...»

استدار الحوذي، ونظر إلى نصر الله، فقال: «يا لك من

معدم بائس! نُح أنت الآخر، لنر ما ستفعل بنواحك، فما من أحد اليوم لينجدك.»

ثم التقط قصبة جبقه الذي كان بجانبه وانشغل بإشعاله. تعقبت بعيني نادرًا وقد مضى يشق طريقه وسط الحشود، وأخذ يزاحم الجميع بمنكبيه، حتى أوصل نفسه إلى الجنود الواقفين أمام الباب. لم أكن أراه جليًا، لكن لا بد أنه كان يتحدث إلى الجنود. لم يكد يمضي شيء، حتى فُتح في باب المشفى شق وأُغلق. كأن أحدًا دخل. كنت متيقنًا من أن نادرًا كان ذاك الذي ولج من الباب. لم يفتر لساني يبتهل إلى الله داعيًا أن يتمكن من اصطحاب نصر الله معه إلى المشفى. ثم ما لبث أن فُتح الباب، فأُغلق، وخرج نادر من بين جموع المحتشدين. كان قد أعلى قبعته السوداء قليلًا، فتطاولت قامته. وكانت نظارته البيضاء المستديرة تضوي في ضُحى الشمس وتزيد وجهه وسامة. عندما وصل إلينا، التفت إلى الحوذي، وقال: «علينا دخول الزقاق المجاور، والمضي إلى خلف المشفى، سيسمحون بأن ندخل من الباب الخلفي.»

ثم قال لي: «اركب أنت، وأنا سأتقدمكما راجلًا.»

اتجهت إلى خلف العربة، وركبت. كان نصر الله قد استلقى على جنبه في أرضية العربة، ولا يفتأ يئن. وعيناه كلتاهما مغلقتين، ووجهه يرشح بحبات العرق. سارت العربة ترتج

بنا بشدة. تقدمت إلى جانب الحوذي ومن هناك شاهدت نادرًا الذي كان يطوي طريقه طيًا أمام العربة. وتأملت شعره الكثيف الذي كان ينبثق من خلف قبعته، وتأملت خلف عنقه الذي كان يمتد من ياقة قبائه الأسود جانحًا لونه إلى البياض. وكلما تقدم بضع خطوات، استدار، ونظر إلينا قائلًا: «تقدم... استمر بالمضي.»

مضينا حتى بلغنا أحد الأزقة الفسيحة. وقف نادر على ناصية الزقاق، وأشار بيده إلى داخل الزقاق، وقال: «انعطف داخل الزقاق.»

وتقدم مرة أخرى، حتى دخل الزقاق. وتقدم مثلما تقدم من قبل إلى أن وصل إلى زقاق آخر، فأشار لنا أن نصير إليه. وهناك تقدمنا على هذ النحو، حتى أدركنا بوابة خشبية. وقد سبقنا نادر بالوقوف أمامها، وهتف: «توقف هنا.»

سحب الحوذي لجام الحصانين. وعلى مبعدة خطوات معدودات توقفت العربة أمام الباب الخلفي للمشفى. قال نادر: «مهلًا!»

وجعل يدق الباب بجمع يده مرة بعد المرة، ريثما فُتح. كان خلف الباب يقف رجل يرتدي زي جنود الأمن. طرح نادر عليه السلام، وأثنى على عمله، ثم أضاف قائلًا: «هذا ما قال ناظم

الحكماء(9).»

ألقى الجندي نظرة على العربة، وعليّ، وعلى الحوذي، ثم قال: «يجب أن ينزل الصبي من العربة، ثم تتقدم العربة بذاك المسكين إلى الداخل، ويُترك هناك، وتعود العربة سريعًا في لمح البصر.»

فسأله نادر: «وماذا عني؟»

فقال الجندي: «قيل لي لا تدع أحدًا يدخل عدا ذاك المريض، والآن هو في العربة، وعلى الحوذي التقدم به أيضًا. وأنتما لا تقفا هنا، اذهبا إلى مكان آخر.»

ثم التفت إليّ وقال: «انزل أيها الصبي، دع العربة تتقدم.»

أيضًا أشار نادر لي بالنزول. وسرعان ما ترجلت عن العربة. ساعتئذٍ فتح الجندي مصراعي الباب، كيما تدخل العربة المشفى. خلف الباب كان ثمة صحن وسيع وبناية كبيرة تستقر في وسط الصحن. وكانت المنطقة حول صحن البناية تلك آهلة بأناس يرقدون على الأرض كان يسير خلالهم أناس آخرون. ولما أن دخلت العربة، وأغلق الجندي الباب، قال نادر: «حسنًا، لنذهب نحن أيضًا.»

فقلت: «جزيت خيرًا أن ساعدته على الدخول.»

فرد نادر: «كان دخوله موكلًا إلينا، أما خروجه فموكل إلى الله. ذاك إن ظل حيًا وسط هذا التلوث، وكل تلكم الأمراض، والميكروبات.»

ثم شرعنا في المسير. التفت إليّ نادر وسألني: «لم تخبرني بعد، الآن هذا من يكون؟»

فقلت: «إنه أبو صاحبي.»

فأردف نادر متسائلًا: «أي صاحب؟ أهو ذاك الذي سُرق؟»

فقلت: «كلا، بل شقيقته التي كانت قد سُرقت.»

فقال نادر: «إذن من هو صاحبك؟ أين هو نفسه؟»

فقلت: «إنها لقصة.»

فجأة وقف نادر، ثم تفرس وجهي، وقال: «لمَ تبدو إلى هذا الحد مثيرًا للريبة أيها الصبي؟ كن صادقًا واصفني قولًا من أنت؟ وما قصتك؟»

الفصل الثاني عشر

أمسكت بقطعة الورق المقوى، وقرأت الاسم ورقم الهاتف المدونين عليها عشرات المرات. ثم تناولت هاتفي وسجلت فيه الرقم الذي كان مدونًا على الكارت. لحيظات دام فيها صمت، ثم أخذت تطن في أذني صوت دقات الرنين المتتالية. تسارعت أنفاسي، وقد احتكت أسناني ببعضها ولبثت منتظرًا سماع صوت الرجل الهندي على الطرف الآخر من الخط. دق رنين الانتظار مرة تلو المرة، غير أن أحدًا لم يرد. هكذا شعرت باليأس دفعة واحدة، وانتابتني الهواجس. ربما انصرف الرجل الهندي عن الأمر، أو ربما حدثت بعد الأمور أمور. أيًا كان السبب، لم تعد هنالك أي مشكلة، ولم يعد يتحتم عليّ التحدث عن شيء آخر بعد الآن. أنهيت الاتصال، ووضعت الهاتف بجانبي، وطويت كارت الرجل الهندي حتى تكرمش في يدي، ثم ما لبثت أن قمت. وألقيته في سلة القمامة الصغيرة بجانب مكتبي، ومشيت خارجًا من الغرفة. لكني لم أكد أخطو خارج الغرفة، حتى دوى رنين الهاتف. للحظة تلبثت في مكاني، ثم عدت متجهًا نحو الهاتف. التقطت الهاتف، وتفحصت رقم المتصل الذي يرن. كان هو، ذلك الرقم الذي كنت سجلته توًا. تسارعت أنفاسي مرة ثانية، وتشابه حالي بما كان عليه من قبل مع اختلاف

أني ما عدت داريًا ماذا عليّ أن أقول. رفعت الهاتف، وأجبت: «من معي؟»

- «ألو مرحبًا... أنا سانجي بيهاي، كنت قد اتصلت بي.»

- «أنا ذاك...»

- «أهذا أنت أيها الشاب؟ لقد نسيت أن أسألك عن اسمك في لقائنا السابق.»

- «أنا... لقد طلبت مني أن أتصل. إن أردت...»

كنت مرتبكًا أشد مما توقعت. منذ ذلك الوقت بدا الأمر وكأن إرادة المرء ليست وفق طوعه. حاولت أن أبقى هادئًا وساكنًا، بيد أني ما استطعت. وراحت أنفاسي تتلاحق كما لو أني قد عدت لتوي من سباق ركض. لم أستطع مواصلة الحديث، فأتم الرجل الهندي عبارتي نيابة عني:

- «إن أردت أن تساعدني.»

- «أجل... ولكن يوجد كلام...»

- «أي كلام؟!»

- «كلام علينا أن نقوله، أي يجب علينا أن نتحدث أولًا.»

- «حسنًا، أوافقك الرأي. أقترح أن نلتقي اليوم ونتحدث.»

- «...»

لزمت الصمت. كنت أدرك من قبل أنه يجب أن نتحدث، أما الآن فقد بت مترددًا أمام اقتراح الرجل الهندي بتحدثنا معًا. كان يجب أن أراه مرة أخرى، لكن من أين أعرف أن هذا اللقاء لا يمثل خطرًا عليّ.

- «مرحبا...»

- «هل أنت موافق على أن نلتقي في مكان ما؟!»

تبلعت ريقي، وقلت بصعوبة: «أين؟»

- «لا يهم. مكان يمكننا أن نتحدث فيه، أي مكان هادئ.»

- «كلا... بل مكان عام يوجد فيه أناس، مكان غير هادئ.»

- «لا بأس، كيفما تشاء، ما رأيك في أن نلتقي في مقهى؟»

- «أي مقهى؟»

- «إنني أسكن قرب قصر جُلستان(10)، هل تعرفه؟ عند البازار. يوجد مقهى جيد هناك. داخل القصر غير مزدحم للغاية، لكن الناس هناك يروحون ويجيئون، لذا يمكننا أن نلتقي هناك ونتحدث.»

- «حسنًا... اليوم؟»

- «أجل... أجل اليوم يوم الجمعة، والمنطقة المحيطة بالبازار ستكون غير مزدحمة، فيمكنك المجيء إلى هناك بسهولة.»

- «في أي ساعة؟»

- «الساعة الآن التاسعة والنصف، ينبغي أن أقابل شخصًا آخر قبل أن ألقاك، أظن أن اللقاء سيستمر حتى الساعة العاشرة والنصف. إن كان يناسبك نلتق في تمام الساعة الحادية عشرة في مقهى قصر جُلستان. موافق؟»

حينئذٍ هجمت كل خواطري وشكوكي على رأسي دفعة واحدة. لم أعد داريًا بماذا عليّ أن أجيبه.

- «ألو... هل تسمعني؟»

- «نعم!»

- «سألتك أموافق أنت؟!»

- «أجل!»

وأنهيت المكالمة. أنزلت هاتفي، ووضعته على الفراش. ها قد حددت مع الرجل الهندي موعدًا وإنني لأعلم أن هذا الموعد هو بداية قصة لن أستطيع الفكاك منها بسهولة. فكرت لحظة في أن أضرب بكل شيء عرض الحائط،

فأتنصل، وأتخلف عن الذهاب في الموعد المحدد بيننا. لكنما الأوان قد فات، إذ إني كنت قد تصرفت بسذاجة واتصلت به بهاتفي. والآن إذ بات رقمي لديه، فلا شك أنه سيتعقبني. ربما يتمكن أيضًا أن يستدل على عنوان منزلنا عن طريق رقم هاتفي. ها قد بدأت القصة حتى قبل ذهابي في الموعد المحدد. خرجت من غرفتي، كان البيت يلفه السكون، فقد ذهبت ليلى إلى الصف. تقدمت إلى غرفة أمي وأبي. كان باب الغرفة مواربًا، فدفعته برفق، حتى فتحته. كان أبي يرقد وسط الفراش. لقد أخبرنا الليلة الماضية أنه سوف يعمل حتى مطلع الصباح، ثم ينام. والتمس منا ألا نصدر ضجيجًا عند تناولنا الإفطار، وألا نرفع مستوى صوت التلفاز، ليتمكن من النوم بهدوء. عدت إلى غرفتي، واستلقيت على فراشي. لم يعد أمامي متسع من الوقت، كانت المسافة من منزلنا إلى البازار بواسطة المترو تستغرق نحو ساعة ونصف الساعة. والآن إذ رأيت ما حدث، صار عليَّ أن أذهب لأرى ما سيحدث.

نهضت مرة أخرى، وتقدمت إلى مكتبي. فتحت الدرج وتناولت منه ورقة من الورق اللاصق الزهري اللون، ثم كتبت عليها: «سوف أذهب لأتجول في أنحاء البازار. ربما أذهب أيضًا إلى قصر رضا قُلي مرة أخرى، وأتفقد أنحاء المكان.»

ثم أخذت الورقة، ومضيت بها إلى غرفة أمي وأبي. ألصقت الورقة بمرآة التسريحة بجانب الفراش. عند ذاك وقعت عيني على صورة أمي على طاولة التسريحة. أمعنت النظر في عينيها، أردت أن أفهم أراضية عما أفعل أم لا. لكن كالعادة كان من المستحيل أن أفهم من عينيها شيئًا. عدت إلى غرفتي، وبدلت ثيابي، ثم تناولت هاتفي، وانصرفت من المنزل.

كانت واجهة قصر جُلستان مزدحمة، حيث كان عدد من الناس والسياح الأجانب قد اصطفوا أمامه لشراء تذاكر الدخول. قلت في نفسي ولكن عليّ أن أبتاع تذكرة تمكني من دخول المكان الذي سأقابله فيه. تمنيت ألا تكون التذكرة باهظة الثمن، إذ كنا في أواخر الشهر وأمسيت مفلس الجيب. نظرت إلى ساعتي، كانت الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق وإني تأخرت بالفعل. لم أنتبه إلى أن القطارات في أيام الإجازات تتأخر في المجيء. وددت لو أتقدم الصفوف، وأدخل. لكن هذا من دروب المستحيل، فوقفت آخر الصف وتقدمت خطوة بخطوة. كان يقف من حولي بعض الأجانب يتحدثون إلى بعضهم باللغة الإنجليزية. حاولت أن أسترق النظر عبر الزجاج داخل القصر، حيث كانت تُرى للعيان باحة القصر الفسيحة بأشجارها المعمرة السامقة، والناس الذين يتنقلون فيها. لم يطل بي الوقت حتى وصلت إلى مكتب بيع

التذاكر، كان الموظف المسؤول عن بيع التذاكر امرأة مسنة، ونوعًا ما بدينة. ولم أكد أمد يدي في جيبي لأخرج المال اللازم لشراء التذكرة، حتى وقعت عيني على ورقة كانت على طاولة مكتب التذاكر: «ضيف السيد سانجي بيهاي، من فضلك عرفنا بنفسك.»

نظرت إلى الموظفة المسؤولة عن بيع التذاكر، ثم مرة أخرى نظرت إلى الورقة على الطاولة. كانت يدي لا تزال في جيبي، فاستغربت الموظفة من طول مكثي، ربما اعتقدت أني أجهل سعر التذكرة. فقالت: «عشرين ألف تومان لزيارة المجمع بأكمله.»

نظرت إليها، ثم أشرت برأسي نحو الورقة على الطاولة، وقلت: «أعرف هذا السيد، إنه هندي، أليس كذلك؟»

نظرت موظفة التذاكر إلى الورقة، وقالت: «آها... أنت ضيفه؟»

- «ضيفه؟!»

ودون أن تتركني أتم كلامي، قالت: «لقد ابتاع لك تذكرة، وتركها هنا.»

ثم ما لبثت أن وضعت على الطاولة تذكرة من الفئة المخصصة لزيارة أقسام القصر المختلفة، وقالت: «تفضل، لقد

تركها هنا منذ عشر دقائق.»

ثم ضحكت، وأردفت: «كان قد كتب أيضًا هذه الورقة بنفسه.»

كان من المستبعد أن يكون الرجل الهندي قد حدد موعدًا مع شخص آخر أيضًا. أعجبني انتباهه وإحاطته للأمر من كل جوانبه ما جعل معدل خوفي يهبط. أخذت التذكرة، واجتزت مكتب بيع التذاكر. سرت قليلًا، حتى تفحص تذكرتي أولًا رجل معه جهاز إلكتروني، ثم سمح لي بالمرور. مضيت حتى وطئت باحة القصر، المكان الذي لم أكن قد ذهبت إليه من قبل. كانت الباحة الزاخرة بالأشجار والمباني القديمة من حولها رائعة حقًا ولافتة للنظر. كان كثير من الناس يتنقلون من حولي، فهممت لأسأل أحدهم عن مكان المقهى. بيد أن عيني وقعت على لافتة إرشادية تشير إلى مكان المقهى. تقدمت، حتى وقفت أمام الباب الخشبي الكبير الذي كانت اللافتة تشير إليه. وعندما دفعت الباب، انبعث عبر شِقه صوت ضجيج الزبائن ممتزجًا بالموسيقى التقليدية. فتحت الباب، ودخلت. كان المقهى كبيرًا ويعج بالزبائن، ويمتلئ بطاولات صغيرة محاطة بكراس خشبية ضيقة. تقريبًا لم تكن هناك أية طاولة شاغرة. لقد قال سانجي أن هذا المكان غير مزدحم، ولكنه كان مزدحمًا. قد يكون قصد بكلامه في

أيام العمل، أيام لا يمكن أن يكون فيها ازدحام. أما ذلك اليوم فكان يوم إجازة، وقد جاء العديد من الناس لزيارة القصر. وإلى الأمام قليلًا من الباب كانت طاولة الكاشير في المقهى، حيث كان قد وقف أمامها بضعة أشخاص كل واحد بدوره، ليدفع فاتورة حساب طاولته. كان قد جلس خلف الكاشير شاب شعر هامته مفروق ومدهن، ويأخذ المال من الزبائن. وقفت بجانب الطاولة، ورحت أنظر داخل المقهى، وحاولت أن أعثر على الرجل الهندي وسط هذا الزحام في المقهى ذي الإضاءة الخافتة. قلبت نظري مرة بعد مرة، حتى أخيرًا عثرت عليه واستدللت عليه من عمامته القرمزية.

كان يجلس تقريبًا في نهاية المقهى خلف طاولة تجاور النافذة يتأمل المشهد في الخارج. حاولت أن أذهب إليه، لكن نحو ثلاثة أشخاص قدموا ووقفوا أمام الكاشير لدفع الحساب، فسدوا طريقي. لم يعد بوسعي رؤية سانجي، فشببت دفعة واحدة على أطراف أصابعي ورأيته وكأنه لا يزال يحدق إلى الخارج في سكون تام. عزمت على أن أتنقل بين الطاولات، لأذهب إليه. على يساري كانت بعض نوافذ خشبية ذات زجاج ملون مصفوفة بجانب بعضها، حيث كان الصف الأخير من الطاولات ملتصقًا بالجدار، في حين أن الأشخاص الجالسين على الكراسي كانوا يتراجعون بها إلى الوراء، حتى إن كراسيهم كانت تحف بكراسي الطاولة

المجاورة، ومن الصعب المرور من بينها. نظرت حيثما كان سانجي جالسًا، ووددت أن يبصرني. لكنه لم يكن منتبهًا. والآن جعل يحني رأسه إلى الطاولة، وكأنه ينظر إلى حافتها. التمست العذر من نحو شخصين، ومررت من بين بعض الكراسي. عاودت النظر إلى المكان الذي يجلس فيه سانجي، وحينئذٍ رأيت شيئًا عجبًا. لقد تدلى رأس الهندي فجأة إلى صدره، ثم إنه انحنى على جانبه، وانطرح أرضًا. لفت صوت ارتطام سانجي بالكرسي الذي كان يجلس عليه بالأرض انتباه الجميع إليه. وعمت الفوضى أرجاء المقهى، إذ قام بعض الجالسين إلى الطاولات القريبة منه واتجهوا إليه. كذلك تجاهلت الجالسين على الكراسي من حولي، وأزحت الكراسي بسرعة عن طريقي، حتى تقدمت من سانجي. اجتزت جموع المتحلقين حوله، فرأيته ملقى على الأرض. تقدم أحدهم وجلس عند رأسه، وراح يضرب وجهه برفق، ويقول: «سيدي... سيدي... مستر... رد عليّ. هل أنت بخير؟!»

ووقتئذٍ قال الرجل الآخر ذو الشعر الشائب، الذي كان يجس نبض سانجي: «لقد توقف نبضه، يبدو وكأنه توفي!»

أما أنا فأمسيت حينئذٍ خائر القوى متراخي الأوصال كدمية متحركة تمزقت كل الخيوط التي تربط أجزاءها هكذا دفعة واحدة. ولقد جاهدت كيما أستدير. وكيفما صار سحبت

نفسي وانسللت من بين جموع الناس الذين كانت أعدادهم تزداد لحظة إثر لحظة.

الفصل الثالث عشر

أخبرت نادرًا بكل شيء. بدءًا من قصة سرقتي، حتى هروبي وعودتي إلى كنف عائلتي. ومن أوبتي إلى طهران وأنا أتوق إلى الذهاب إلى الميرزا حسن خان، حتى وقوعي في قبضة فرُّوخ والتعرف إلى رسول وقصة شقيقته. ومن الاهتداء إلى أبي رسول وثنيه عن تسليم ابنته إلى عصابة نُويان خان، حتى قصة سرقة عالية، وسقوط أبيها ودهس عجلات العربة قدمه. أخبرته بكل شيء إلا قصة شكور. لا جرم أني حتى وإن أخبرته بها لم يكن ليصدقني، ولظن أني مجنون، وأن هذا الكلام ما هو إلا فرية افتريتها. أوردت في ثنايا القصة التي أخبرت نادرًا بها أن شكورًا كان حيًا يُرزق، وأنه قد مكنني من الهروب. كما كان رسول هو الآخر حيًا، ويعمل في قصر نُويان خان. تصورت أني لم أتحر الكذب ما دمت قد رأيتهما بالفعل وهما على قيد الحياة، وتحدثت إليهما.

وقد مكني شكور من الهروب أيضًا. وعلى فرض أنها أحوال أعجب من أن يصدقها عاقل، فلا ريب أن عدم تصديق الآخرين ليس تعلة لأكذب في مقالتي، ولكن هذي القصة لا يضاهيها غرابة إلا أن يعرج أحدهم إلى القمر ويجلس على أديمه، وينظر من شاهق إلى السائرين على ظهر البسيطة.

وإذما كان نادر يظن أنه سوف يأتي يوم يتمكن فيه أحدهم من صعود القمر، فمن حقي الآن أن أفكر في أن النزول تحت الماء ممكن، ومن هنالك يبصر المرء عالم الموتى. ما كنت لأكذب، لكنني ما ذكرت ذلك لأنني لم أرد أن يضحك نادر مني مثلما كان يضحك الحوذي الشائخ منه. لم أرد أن يتوهمني مجنونًا ويسألني من أنا وابن من أكون. ففي بعض الأحيان ينبغي ألا يُقال بعض الكلام الصادق حتى يحين وقته ويئين أوانه.

تحدثت إلى نادر في إحدى المقاهي، كان المقهى في ساحة حسن آباد قرب المشفى العام. قدم صاحب المقهى لكل منا رغيف خبز، مع قليل من اللفت، وبعض تمرات. قال إن الخبز شح في طهران، أما هؤلاء الذين يملكون القمح، فإنهم قد اختزنوا قمحهم، وامتنعوا عن بيعه. وقال إن لم ينته بأسرع وقت وباء الكوليرا (وراح يصفر هو الآخر عوضًا عن قول كلمة الكوليرا)، فإن مسغبة ستعم أرجاء البلاد، وحينئذ يساق الناس إلى الموت أفواجًا أفواجًا من ضور الجوع.

لم يكن خبز صاحب المقهى هو نفسه خبز طهران ذاك الشهي الذي كنت قد أكلته من قبل، بل ما أشبهه بالخبز الذي جُبلنا على تناوله في قريتنا. كان خبزًا داكن اللون قد خُلطت بحنطته كثير من النخالة ونشارة الخشب وحُبيبات الرمل

وذرات التراب التي كانت تعلق بالأسنان، فإن لم تكن متنبهًا تهتمت أسنانك. أما اللفت فكان أفضل ما يُؤكل، إذ تكون في هذا الموسم بشائر قطوفه ويكون صغيرًا في نبته ونضرًا. ولقد طبخه صاحب المقهى بفن وذوق، وضم زهاء اثنتي عشرة بقلة من اللفت الصغير، ووضعها في آنية، وقدمها لنا مع بعض حبات من التمر. تناولنا الخبز واللفت والتمر وحسونا الشاي، ثم تجاذبنا أهداب الحديث. أرعاني نادر سمعه، ونشط لحديثي، وتركني على سجيتي أبوح وأروي قصة حياتي كاملة. ومن بعد ذلك سكت هُنية من الوقت، ثم تنهد، وقال: «ألا عجبًا لقصتك!»

لم أجبه، إذ كنت أعلم علم اليقين أن ما بلوته في أقل من عام كان خطبًا عظيمًا ربما لا يدرك مثله امرؤ آخر ولو بعد ردحٍ من السنين. ثم سأل نادر: «والآن علام عقدت عزيمتك؟»

فقلت: «سوف أذهب إلى الميرزا حسن خان، وألتمس منه العون حتى نعثر على عالية.»

خلع نادر نظارته المستديرة، وفرك عينيه بأصابعه قليلًا، ثم وضع نظارته، وقال: «الميرزا حسن خان ليس بطهران. لقد غادر إلى مدينة قُم.»

فقلت وإني لمبهوت: «غادر إلى قُم؟!... لقد طلب مني بذاته

أن أقبل إليه في طهران مع مستهل الخريف. أقبل، لأنتظم في المدرسة.»

تنهد نادر، ثم قال: «هذا أكيد، ولكن قبل مدة عزموا أمرهم على إنهاء حياته، وأرادوا قتله. فقبل نحو شهر اعترض طريقه رجل يحمل طبنجة قاصدًا قتله، لكن الله لطف، وشاء له أن ينجو. بعد تلك الحادثة، قصد الميرزا دار أغا الشيخ هادي نجم آبادي(11)، فآواه لديه. ولأن الشيخ آخوند(12) لم يكن أحدًا ليداهم داره. أمضى الميرزا وقتًا هناك، حتى تصاعدت حدة التهديدات وحاق به الخطر، فنصحه الشيخ أن يشد رحاله إلى مدينة قُم ذلك خير له، ويمكث هناك إلى أن ينقشع الغبار وتتبدل الظروف والأحوال. بالطبع في تلك المدة، لم يتوقف العمل على بناء المدرسة. ليس معلومًا متى على وجه التحديد سوف يعود الميرزا حسن خان، ولكن وقتما يعود، تبدأ الدراسة في المدرسة.»

أما أنا الذي ضلت عني آمالي كلها دفعة واحدة، خفضت رأسي أسفًا، و لعنت حظي لعنًا. قال نادر: «لا تقلق حيال الأمر، سنفعل شيئًا ما. عسى الميرزا يعود، وحتى ذلك الحين نكون اهتدينا إلى شقيقة صديقك... ما اسمها؟.... عالية.»

زفرت تنهيدة من أعماق قلبي، وقلت: «هذا مطلب عزيز. لقد عقدت على الميرزا كل آمالي. فالميرزا قد وعدني بنفسه

أن يدبر لي مكانًا للمبيت، وقال إنهم سيقدمون لي في المدرسة وجبة الغداء. وكيفما تبدلت الظروف الآن، فلا سبيل لديَّ إلا أن أنقلب إلى قريتنا عائدًا.»

قلَّب نادر كلامي هذا في رأسه، ثم رفع رأسه، وقال: «رُبَّ ضائقة كان لها مخرج. يمكنك المبيت والنوم في محل أبي لتجليد الكتب بضع ليالٍ على الأقل. وهناك أيضًا تجد من الطعام ما تقيم به رمقك.»

فقلت: «محل أبيك؟!»

فقال: «أجل، إن أبي يملك محلًا للتجليد، حيث يجلد الكتب. فباستخدام الجلد والورق والغراء اللاصق يصنع أغلفة للكتب. أحيانًا ما أذهب إليه. بالطبع ليست وظيفتي تجليد الكتب، فأنا أعمل في دار التلغراف، لكن معي مفتاحًا للمحل. ومتى ينفلق الصبح عن يوم جديد، أذهب, وأفتح المحل، وأنظفه من الداخل، وأرشرش أمامه بعض الماء، ثم أنصرف. وما يلبث أن يأتي والدي بنفسه. فلكبر سنه، ولأن مثل هذه المهام يشق عليه القيام بها، أؤديها أنا بدلًا عنه.»

طأطأت رأسي، وقلت: «ولكن أمر مقامي قد تطول مدته إلى أكثر من يوم أو يومين، هب أني مكثت بضعة أيام في محل أبيك، ماذا سأفعل من بعد؟! ليس معلومًا متى سيعود الميرزا حسن.»

قال نادر: «بعدها، يدبر الله الأمر. من الآن ليس عليك أن تفكر في غير هذه الليالي القلائل. كمن هو في ليلة ظلماء يلتمس طريقه في زقاق على هدى مصباح، وفي نور المصباح لا يسعه رؤية أكثر من بضع خطوات نصب ناظريه. فجعل على هذا النحو يمشي على هينته بضع خطوات ببضع خطوات، حتى يبلغ المكان الذي ينشد. أحيانًا ما يجدر بنا أن نسير وفق هذه السبيل.»

أسكنت كلماته قلبي. فارتسمت على محياي ابتسامة، وقلت: «أين توجد دار التلغراف هذه؟ وماذا تعني؟»

فضحك نادر، وقال: «مكان يتراسل فيه الناس ويتحادثون من مسافة بعيدة.»

فقلت: «حقا؟! كم تبعد تلك المسافة مثلًا؟!»

فقلت: «تبعد كثيرًا، تبعد للغاية، كبلد آخر مثلًا، كالجانب الآخر من العالم.»

فقلت: «يا لله العجب! لترني ذاك المكان يومًا ما!»

فضحك نادر مرة ثانية، وقال: «بكل تأكيد.»

فقلت: «وماذا يُراد بناظم دار التلغراف؟»

أخذ نادر يعبث بالكوب الفارغ أمامه، ثم قال: « يراد بها ...

يراد بها شخص يتفقد عمل الآخرين. ويتحقق من أن كل فرد منهم يقوم بعمله على خير وجه.»

ثم رفع رأسه، وقال: «عندما عدت من بلاد الإفرنج، كُلفت بالعمل في دار التلغراف. كان والدي المسكين قد باع أرضه الكبيرة التي ورثها عن أبيه، لأتمكن من السفر إلى بلاد الإفرنج، وأدرس الطب هناك، وأصبح حكيمًا. ولكني عندما ذهبت إلى هناك، نازعتني نفسي إلى أن أتعلم شيئًا آخر، فشغفت بدراسة علم الفلك. كنت أتطلع إلى معرفة هيئة النجوم والشمس والقمر وأحوالها. كاتبت أبي أخبره بذلك، وقد وافقني على أن أدرس علم الفلك. درست ست سنين، ثم عدت إلى بلاد فارس. لكن العلم الذي درسته لمّا يجد فتيلًا، وعلى هذه الحال صرت عاطلًا لا عمل لي. غير أن والدي لم يزل يقرع هذا الباب وذاك، إلى أن مُنحت عملًا وكُلفت به في دار التلغراف.»

ثم سكت عن الكلام. كذا فعلت. إلى أن تذكرت عالية و حادثة سرقتها. فقلت: «هل لنا أن نتحدث في دار التلغراف إلى أحد، نستخبر عن عالية؟!»

فكر نادر هنيهة، ثم أومأ برأسه: «نعم، بإمكاننا.»

الفصل الرابع عشر

لم تكن بناية دار التلغراف كبيرة إلى هذا الحد. كان بناءً صغيرًا ذا طابق واحد قد زُينت واجهة مدخله بصف من الطوب البني. وكان هناك باب خشبي ذو مصراعين تفصله بضعة سلالم عن سطح الأرض. على درج السلم وقف بعض أناس يقفو أحدهم الآخر منتظمين في صف يمتد إلى أرضية الشارع، وينعطف إلى جانب جدار المبني ممتدًا مسافة ما يقرب من عشر خطوات، إذ كانوا انتظموا في الصف منتظرين أن يحين دورهم في الدخول. وما أشبه ذاك الصف بالذي كان أمام دكان البُلو، حينما كنت أنا وشكور نتردد إليه ظهر كل يوم لنشتري طعام الغداء لنُويان خان أو فرُّوخ. كان باب دار التلغراف نصف مفتوح، وثمة رجل أمامه يجلس على مقعد غير ذي مسند، ويسمح للناس بالدخول تترى. أراني نادر من جهة الشارع المقابلة هذه البناية، وقال: «ها هي ذي دار التلغراف التي كنت أخبرتك عنها.»

نظرت إلى البناية بتأمل، فرأيت الباب شبه المفتوح، والرجل الذي كان يجلس أمامه، وأولئك الذين كانوا ينتظمون في الصف قبالته. وفي تلك اللحظة جاء رجل ضخم بنيانه عن يسارنا، فمرَّ من جانبنا وقد دنا منا دنوًا شديدًا. كان قريبًا منا قربًا جعل رائحة العرق الحمضي الذي

كان ينز من جسده تخترق منخري. وكأن الرجل تعمد أن يخبط كتفه بكتف نادر. وبينما كان يمر بجانبه، زعق قائلًا: «يا غراب!»

وبعده مباشرة صاح صاحب محل عطارة كان قد جلس أمام محله: «طِرا»

لم أفهم معنى هذه التصرفات. هممت لأسأل نادرًا، لكنه ربت على كتفي، وقال: «لنذهب!»

وبينما كنا نعبر الشارع، إذ بنفر لم أره يصيح من خلفنا: «يا حمار!»

فأدركه آخر: «طِرا»

وجلجلت ضحكات عصبة من قوم خلفنا، فاستحث نادر خطاه، وكرر قوله: «هيا، لنذهب، لنذهب.»

قرب البناء تناهى إلى مسمعي صوت الرجل الذي كان يجلس على المقعد، وهو يصيح قائلًا: «انتظموا في الصف... خلف بعضكم... يا هذا لا تفسد ترتيب الصف...»

شيئًا فشيئًا حتى عرفته. كان هو، الرئيس! بجثته المهيبة نفسها وشاربه المبروم لأعلى. هو ذا الذي كان يملك مرحاضًا عامًا.

فقلت على البديهة: «الرئيس!»

فسألني نادر مستغربًا: «ماذا قلت؟!»

فقلت: «الرئيس، ذاك الجالس أمام الباب هو الرئيس!»

فقال نادر: «أوَتعرفه؟!»

فقلت: «أجل.»

ولم نكد ندرج السلم، حتى حييا الرئيس نادرًا، وقام واقفًا. فرد نادر التحية، ووضع يده خلف كتفي ودفعني قليلًا للدخول عبر الباب. غير أن الرئيس سد طريقي بذراعه، وقال: «إلي أين؟!»

فأضحك ذلك نادرًا، ثم إنه قال: «هل يمكنه أن يدخل معي؟!»

فقال الرئيس بجدية تامة: «مع كامل احترامي لشخصكم الكريم، لكن يجب أن أفهم لم

يدخل هذا؟»

فقال نادر: «إنه معي، أثمة مشكلة؟!»

مرر الرئيس يده على شاربه، وأطرق قبل أن يقول: «لا، تفضل بالدخول.»

ربت نادر مرة بعد على كتفي، والتفت إلى الرئيس قائلًا: «وأنت أيضًا عرِّج علينا، فإني أريدك في مسألة.»

فأشار الرئيس إلى صف الواقفين، ثم قال: «ولمن أترك أولاء؟ إن برحت هذا المكان، يعم الهرج والمرج.»

فقال نادر: «لن يحدث شيئًا من هذا، إن شئت قل لبهرام أن يأتي، ويقف مكانك.»

بدا على الرئيس الحنق، ثم إنه قال: «شكرًا لك أيها الميرزا. أتعني أن الفراش يمكن أن يقوم بعملي؟!»

فقال نادر: «بالطبع لا، ولكني أتصور أنه من الممكن أن يغلق الباب، ويقف عليه، ريثما تفرغ أنت من مهمتك.»

فأومأ الرئيس رأسه، وقال: «تفضل أنت الآن، وسوف أجد حلًا.»

ودخلنا نحن الاثنان معًا. كان الجو داخل دار التلغراف باردًا. وكانت الجدران مغطاة بكسوة مخملية حمراء اللون، وبين الجدران على كلا الجانبين عدة أبواب خشب بنية اللون لا يخفى أن كل واحد منها باب لغرفة ما. وكانت ثمة نقرات متقطعة صوتها مبثوث في أرجاء المكان. لما أن صرنا إلى الداخل، ربت نادر على كتفي مرة أخرى، ثم قال: «ذاك صوت التلغراف. خط، نقطة، خط ، نقطة، أتسمع؟»

لم أفقه له قولًا، ولكنني قلت: «أجل، أسمع.»

راقتني دار التلغراف من الداخل، حيث كانت الجدران المخملية تُقر العين، وذاك الصوت كان صوتًا تستطيبه الأذن. فُتح أحد الأبواب، فخرج منه رجل بدين يلبس قباءً بني اللون، وسار سمت الباب الذي كنا جئنا منه. وتقدمنا نحن إلى أن وصلنا إلى باب خشبي كان يكبر الأبواب الأخرى قليلًا. فتح نادر الباب، وقال لي: «ادخل.»

دخلت، وجاء بعقبي نادر. كانت الغرفة صغيرة، وشديدة النظافة، بداخلها طاولة خشبية، وعدة كراسٍ ذات أكسية جلدية سوداء. قال نادر: «هذه غرفتي، محل عملي، اجلس.»

وأشار إلى كرسي قرب الباب. جلست على الكرسي. وجلس هو أيضًا إزائي، ثم قال: «إن دار التلغراف هذه الأيام في غاية الازدحام. فبسبب تفشي وباء الكوليرا يريد الناس أن يتساءلوا عن أحوال ذويهم وأهليهم ويطمئنوا. وهكذا تبدو جميع البرقيات نمطية مكررة، ... اطلعونا على أحوالكم... أو لا عِلَّة بفضل الله... فهم جميعًا في الظاهر يسألون بعضهم بعضًا ويستفسرون عن الأحوال، ولكن أحدًا لا يرد ردًا صريحًا. فما من معافى منهم أو مريض إلا و يقول لا عِلَّة بفضل الله. وعلى هذا النحو فكل هذه البرقيات ووسائل الاتصال بلا فائدة. حقيق على الناس أولًا أن يقرروا هل

يريدون حقًا أن يصدقوا الآخرين قولهم، ثم يأتوا من بعدئذٍ إلى دار التلغراف ويبرقوا. فما يثمر تواصل البشر أحدهم مع الآخر إلا عندما تستيقن نفس الواحد من حقيقة ما يسمعه.»

ثم إنه تنهد، وقال: «على كل، لهذا وضعنا على هذا النحو.»

ثم وكأنه أردا أن يبدل موضوع الحديث، قال: «إذن أنت تعرف الرئيس... أين التقيته؟!»

فقلت: «في المرحاض أعزكم الله!»

هذه العبارة "أعزكم الله" كنت تعلمتها حديثًا. ضحك نادر، وقال: «أجل، لقد كان هناك. وقتما ارتفع عدد المصابين بوباء الكوليرا ذهبت إليه لأقنعه بضرورة إغلاق المرحاض، فذاك المرحاض مع حرارة الصيف قد يتسبب وحده في تفاقم أمراض لا حصر لها. لم يوافق، فأصررت إصرارًا. بيد أنه لم يرتدع. ثم إني فطنت أنه يحب إصدار الأوامر، فعرضت عليه أن يأتي إلى هنا ليعمل على أن تكون مهمته تنظيم صف الواقفين أمام دار التلغراف. حينئذ لاقي الأمر قبوله. وإني لحائر الآن كيف لي بتدبير أجرته. لقد تأخرت رواتب جميع الموظفين هنا منذ عدة أشهر. أما ما لهذا وحده فضِغث على إبَّالَة(13).»

فجأة فُتح باب الغرفة، وأدخل الرئيس رأسه عبر فرجة

الباب، وقال: «أغلقت من فوري الباب، وطلبت من بهرام أن يقف عليه حذرًا. لكن عليّ أن أعود بسرعة وإلا ستعم الفوضى... تفضل هات ما عندك.»

أشار نادر إلى الكرسي بجانبه، وقال: «الآن تعال، واجلس هنا قليلًا، أريد أن أتحدث إليك في مسألة مهمة. وإن حدثت فوضى، نذهب إلى هناك معًا، ونعالج المشكلة.»

فقال الرئيس: «هذا الأمر ليس من شأنك أيها الميرزا، إنه يتطلب رجلًا يخضع هؤلاء القوم بالقوة.»

فقال نادر: «أعلم، أعلم. الآن تعال، واجلس، لنتحدث في عجالة، وتمضي، فتردع الفوضى.»

نفذ الرئيس مطلب نادر، وجلس بجانبه، وأخذ يحدق إليّ. فكرت لوهلة أنه سيعرفني الآن، ويذّكر كيف أني تركت في مرحاضه فرّوخًا ينتظرني بالخارج مليًا، ونفذت بجلدي هاربًا. أخذت خطوط وجهه تتغضن، حينما قال نادر: «رفيقي هذا يواجه مشكلة، ويلتمس منك العون.»

فجأة انبسطت أسارير وجه الرئيس، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة. أردف نادر قائلًا: «ولما كنت قد شغلت منصب الداروغة من قبل، فإنك تخبر أهل هذه المدينة جيدًا.»

حينئذٍ قال الرئيس بوجه متهلل: «قل لي ما هي مشكلتك،

وسوف أجد لك منها مخرجًا.»

تحرك نادر على كرسيه، ثم قال: «لقد سُرقت شقيقة صاحبه، ولما كان صاحبه ليس هنا الآن، فإنه يحاول المساعدة في العثور عليها. فكرت في أول الأمر أن نذهب إلى النظمية(14)، لكنني رأيت أنه في مثل تلك الأحوال والظروف التي تضج بالفوضى ليس ثمة مسؤول.»

تنحنح الرئيس، ثم قال مستنكرًا: «إذن فالقضية قضية عِرض وشرف.»

فقال نادر: «كلا، ليس الأمر هكذا... شقيقة صاحبه طفلة صغيرة، لم يتعد عمرها ست سنوات، المسألة كلها أنها طفلة مسروقة.»

هذه المرة تحرك الرئيس على كرسيه، ثم ما لبث أن قال: «وهل تنتظر مني الآن أن أعثر له على الطفلة؟ ولمن أترك المكان هنا؟ إن غبت ساعة...»

قاطع نادر الرئيس، وقال: «لا، لا داعي لأن تذهب بنفسك تقفو لها عن أثر. إنك لخبير بالمدينة كلها، كما أنك تعرف هؤلاء اللصوص والمجرمين، فقل لنا أين نذهب لنبحث عنها؟ ومن ذاك الذي قد يكون اقترف فعلة كذي؟»

مد الرئيس يده إلى شاربه، وأخذ يبرم طرفيه على جانبي

فمه. كان وجهه عبوسًا، وكانت تلك قرينة على أنه يفكر. أطرق قليلًا، ثم تساءل: «أين سُرقت؟ متي سُرقت؟»

نظر نادر إليّ، وقال: «قل له، أين؟ متى؟»

استجمعت قواي، وقلت: «اليوم صباحًا، في شارع الناصري.»

برم الرئيس مرة أخرى شاربه، وزوى حاجبيه، ثم إنه قال فجأة: «تيمور، تيمور نبَّاش القبور!»

فقال نادر: «من تيمور ذا؟ تقصد أنه من سرق الطفلة؟»

أجابه الرئيس: «لا أدري. إن تيمورًا زعيم مجرمي شارع الناصري، وإن لم يكن هو نفسه السارق، لا بد حتمًا أنه على علم بالفاعل.»

فقال نادر: «أيعني هذا أن نذهب إليه ونسأله أسرقها أم لا؟!»

فقال الرئيس: «تذهبان وتسألانه من فعل هذا؟ وكم يريد ليرد الطفلة؟ عادة فإن من سرق الطفلة، يعتزم بيعها، لذا قولا له سنشتري الطفلة بالثمن الذي تطلب، فاطلق سراحها.»

فقال نادر: «الآن أين يوجد تيمور ذا، أفي شارع الناصري؟!»

فقال الرئيس: «ليس في شارع الناصري، أعني أنه موجود، ولكن لا سبيل إلى الاهتداء إليه. إنه يوميًا في كل ساعة بمكان، فلن يظهر له أثر. لكن من الأيسر العثور عليه ليلًا، لأن مكانه حينئذٍ يكون معلومًا.»

فقال نادر: «أين؟!»

فقال الرئيس: «في القبر، قبر حسن آباد، لا بد أنه سيكون هناك الليلة.»

فقال نادر مستغربًا: «يقضي الليل في القبر؟!... تُرى ماذا يفعل هناك؟!»

قال الرئيس: «نبّاش قبور (ابتسم متهكمًا) لا عجب أنه لا علم لك بمثل هذه الأمور. يستخرج هو وصبيانه الموتى المدفونين على الفور من مقابرهم، ثم يفكون أكفانهم، وفي صباح اليوم التالي يبيعونها أمام الخندق. ففي أيام شداد كتلكم الأيام حيث تعداد الموتى يربو في تزايد مستمر من ناحية، وأنسجة الأكفان في نقصان دائم من ناحية أخرى أصبحت تجارتهم الرائجة هي أن يستخرجوا كفن هذا، ليبيعوه لذاك. ثم ما يلبثون أن ينبشوا عن كفن آخر... وهكذا دواليك.»

لقد اقشعر بدني بمجرد ما سمعت كلام الرئيس. أما نادر

فقال مبهوتًا: «لكن بهذه الطريقة ستصيبهم عدوى الكوليرا وما تلبث أن تزهق أرواحهم أيضًا.»

فقال الرئيس: «إنما يمضي هؤلاء القوم في سُبل الحياة بلا أمل حاملين أكفانهم على أكفهم، إن بقوا أحياء فليبقوا، وإن ماتوا فليكن... لا فرق لديهم... لطالما علموا أنهم إن لم يمتهم الوباء، ماتوا جوعًا.»

فقال نادر: «ولكن...»

بيد أن الرئيس قاطعه، وقال: «لا تنظر إلي من هم مثلي ومثلك. أحيانًا ما تغدو سلامة النفس طوقًا يغل رقبة ابن آدام.»

أطرق نادر رأسه مفكرًا. وما كان منه إلا أن تنهد تنهيدة، وقال: «قبر حسن آباد؟»

فقال الرئيس: «أجل، حسن آباد.»

ثم أردف: «لا تريد الذهاب إلى هناك بنفسك؟!»

فقال نادر: «لا أعرف، علينا أن نرى ما سيجري.»

فقال الرئيس: «هل تريد أن أذهب أنا؟»

فقال نادر: «لا، كيفما كنت داروغة، فربما لا يطمئن إليك. سنتولى نحن هذه المهمة.»

الفصل الخامس عشر

كدت أقطع طريقي إلى محطة مترو الأنفاق ركضًا. أما صورة الرجل الهندي وهو ملقى على الأرض فلم تفارق عيني لحظة، كانت عمامته قد سقطت، وقد بدا رأسه بشعره الخفيف أصغر حجمًا مما كان عليه من قبل، حتى إن لحيته الطويلة نسبيًا لم تكد من أسفل وجهه تبين. كأنما كانت عيناه نصف المفتوحتين تطوقان المكان، تحدقان إلى سقف المقهى، وإلى الناس من حوله، أو حتى إليّ أنا. ربما كان ينظر إليّ، ولآخر مرة يحاول أن يقول لي بعينيه شيئًا. يحاول أن يقول لم استغرقت وقتًا حتى قبلت بكلامي. يحاول أن يقول انظر كيف ينفلت كل شيء من بين أيدينا ويضيع في لحظة، أو يقول إنه يريد أن يعرف كيف سأتصرف منذ الآن بالأوراق التي كانت بحوزتي.

كنت محظوظًا لأن القطار لا يزال في المحطة، فهرعت وقفزت داخله عبر فتحة الباب قبل أن يبدأ بالتحرك. كانت معظم المقاعد بالداخل شاغرة، ارتميت على أحدها ورحت ألتقط أنفاسي. لما بدأ القطار بالتحرك، لم يكن يجلس أمامي أحد. صوبت عيني إلى النوافذ الزجاجية الأمامية ونظرت إلى ساحة المحطة الخالية، التي أخذت تبتعد عنا شيئًا فشيئًا. تزايدت سرعة القطار، وبعد قليل قدم قطار آخر من

الجهة المقابلة، وسرعان ما راح القطاران يمران أحدهما بجانب الآخر، وصوتهما وارتجاجهما يبثان في قلبي فزعة. كانت نوافذ القطار المقابل تمضي أمامي مسرعة، مثل كادرات شريط سينمائي. لمحت من بينها فجأة صورة الرجل الهندي وهو مستند إلى جدار المقهى، ويتطلع إلى الخارج برأس منحن. أغمضت عيني. وما كاد الوقت يمضي حتى فتحتهما مرة أخرى حينئذٍ وقعت عيني على رجل أقرع نحيف كان قد جلس قبالتي. كان وجه الرجل المسحوب سيئ المنظر، فصدغاه كانا منخسفين بشكل غير طبيعي، وعيناه غائرتان وتحيط بهما هالتان سوداوان. التكوين العام لوجه الرجل يذكرك بجمجمة هيكل عظمي خرجت من تحت الأرض. لم أدر متى جلس أمامي، كان لا يزال يحملق إليّ وينظر إلى وجهي، وكأنما بدت تصرفاتي غريبة له. كان يصوب ناظريه إليّ بطريقة جعلت الشعور بثقل نظراته يلازمني. ثم وقعت عيناي على عينه مرة ثانية، هذه المرة برم شفتيه في الحال، وقال: «عود!»

لم أفهم كلامه، فقلت ربما لم يكن يوجه كلامه لي أصلاً. أدرت عيني مرة أخرى، ونظرت من النافذة. لكنه كرر كلامه: «عود... عود هندي!»

نظرت إليه، فرفع يديه وأراني فيهما بضعة أعواد من

البخور الهندي، ثم قال: «لقد جلبتها بنفسي من الهند، هذه ليست من الصين.»

لم أدر بم أجيبه. أطلت إليه النظر قليلًا. فأردف: «إنهم يشعلون البخور في المعبد، لجلب السكينة، وللتأمل، كما أنهم يمررونه فوق الموتى... سأبيعك إياه بثمن زهيد، العود الواحد بخمسة تومانات.»

ولما كنت في مزاج سيئ، قمت دون أن أجيبه بكلمة، وتقدمت إلى باب القطار، ووقفت هناك. ووقتما وصلنا إلى المحطة نزلت من القطار، ومشيت. تذكرت فجأة أنه لا يزال أمامي طريق طويل حتى أصل إلى المنزل. مضيت وجلست على أحد كراسي المحطة، بدأ القطار بالسير، وغادر. ومكثت منتظرًا مجيء القطار التالي.

ليس الذي رأيته هينًا، بدءًا من مقابلة الرجل الهندي، وتحديد موعد معه، حتى وفاته. قصة غريبة عجيبة لم أكن لأستوعبها بمفردي. كم وددت أن أتحدث إلي أحد. خلت أني سأتخفف بهذه الطريقة. وفي طريقي من محطة المترو إلى المنزل رحت أفكر في أن أفضي إلى أبي أو ليلى أيهما كان. فكرت في هذا عندما كنت أقطع المسافة من المحطة إلى المنزل بخطى واسعة سريعة، وقد مضت ساعة بل ربما أكثر من ساعة منذ الظهيرة حتى وصلت إلى البيت. ولجت

المفتاح في الباب، وفتحته. كان جو البيت مُعبى بالحر والرطوبة الخانقة. وكانت رائحة شيء محروق هي أول ما تستقبله الأنف، ثم ما تلبث أن تخالط هذه الرائحة رائحة أو اثنان يصعب وسط رائحة الحريق والدخان هذه تمييزهما. كان صوت انسكاب المياه من الصنبور قادمًا من المطبخ، فأغلقت الباب ورائي، ووضعت حذائي في حافظة الأحذية، وذهبت مباشرة إلى المطبخ. كان أبي يقف بجانب غسالة الصحون، ويجلي شيئًا، قلت: «مرحبًا أبي!»

ودون أن يلتفت، وينظر، قال: «مرحبًا!»

كان رده باردًا، ولم يكن في مزاجه المعتاد، لذلك تقدمت خطوة، وقلت: «هل تجلي أواني الطعام؟»

كانت يجلي المقلاة. أغلق الصنبور وبطرف المعلقة أخذ يحاول إزالة بقايا الطعام المحترق الذي قد التصق بقعرها. أجاب عن سؤالي بعد زمن قصير: «نعم أجلي الأواني.»

فقلت: «دعها إذن، وسوف آتي وأجليها.»

فما كان منه إلا أن أدار رأسه نحوي قليلًا، وقال: «اليوم يوم الجمعة، إنه دوري أنا، عليّ أن أفعل ذلك بنفسي.»

تقدمت، ووقفت بجانبه، وقلت: «لا فرق بين دوري ودورك، لقد انهمكت ليلة أمس في العمل حتى الصباح. الآن دعني

أقوم بالجلي.»

وضع أبي المقلاة على رف غسالة الصحون، ثم التفت نحوي، وقال: «لا... لا، يجب أن أؤدي كل المهام بنفسي.»

عندئذٍ اتضح أنه كان بالفعل منزعجًا. كان قد تملكه الغضب، وكأن شيئًا ما أثار غضبه. قلت: «الآن افسح لي قليلًا، حتى أجلي الصحون.»

دفعني جانبًا بيده، وقال: «لا يهم أن أظل أعمل ليل نهار في الورشة، ولا أنام. أو أن أستلقي في الفراش ويسلب التفكير من عيني النوم، فإني أصلًا لا أذوق طعم النوم في أي ليلة. ومنذ الصباح وحتى الليل عليّ أن أؤدي ألف مهمة ومهمة تنتظرني لأنهض بها وحدي وبمفردي، فليلى يجب أن تركض وراء دروسها واختباراتها. وأنت أيضًا وقد صرت مهووسًا بالتجول في أعماق التاريخ، لا بد أن تنطلق ذاهبًا. لا عليك، فاليوم يوم الجمعة لقد حان دوري لأطبخ، وأجلي الصحون. كلٌ بدوره، لقد عقدنا اتفاقًا لا تشوبه شائبة ولا يُشق له غبار.»

فقلت: «لقد ذهبت فقط...»

قاطعني قائلًا: «لقد ذهبت لتتجول في المنطقة هناك، ثم رجعت، لكنك لم تفكر في أنه بعيدًا عن أي اتفاق بيننا ثمة أحد منطرح على فراشه كالجثة الهامدة، ولا يريد وقتما

يصحو من نومه أن يكون أول ما يفكر فيه أي طعام سيعده للغذاء، وكيف سيجلي أطباق الليلة الماضية. ربما لو أعملت فكرك لكنت آثرت ترك التجول والتسكع، لتؤدي مهامًا ليست في دورك.»

كنت أعرف أن أي كلام أتفوه به لن يجدي. لم أستطع الدفاع عن نفسي. فقلت: «عذرًا أنا... أنا لم أكن أدري...»

تناول أبي المقلاة من غسالة الصحون، وقال: «المشكلة أنك لا تعرف، المشكلة أنك غير منتبه لما يدور، لا تعرف ظروفنا وأحوالنا.»

فقلت: «صدقني إني أبذل ما بوسعي لأنتبه، أحاول ألا أتركك وحدك، لست ذاك الذي يفكر في نفسه فحسب، فعندما كانت أمي...»

«عندما كانت أمك ماذا؟!... كنت أكثر راحة؟! لم يكن أحد ينق ويناقرك؟! لم تكن مجبورًا على القيام بكل شيء؟! عندما كنت تعود إلى المنزل لم تكن تشم رائحة طعام محروق تفوح في أرجاء المكان..»

قلت فزعًا مرتبكًا: «كلا والله... لم أقصد ذلك... ما أردت قوله إنني لا أتنصل من أداء المهام.»

وضع أبي المقلاة في مكانها، ثم عاد، وارتكن إلى غسالة

الصحون. كان وجهه محمرًا. أطبق جفنيه للحظة، ثم ما لبث أن قال: «أعرف... أعرف مجيد. أعذرني، إني مرهق، لأني لم أنم منذ بضع ليال.»

ثم أشار إلى الموقد، وقال: «لم أنتبه لهذا الشيء اللعين أيضًا، أقصد الطعام، فاحترق. الآن سوف تعود ليلى من الصف جائعة، وأنت الآخر لا بد أنك تشعر بالجوع، كنت أنظف المقلاة المحترقة، لأعد لنا شيئًا آخر نتناوله.»

فقلت: «لا داعي لأن تعد لنا شيئًا. سوف أذهب إلى أول الزقاق، وابتاع لنا طعامًا، وأعود سريعًا.»

فقال أبي: «منذ عدة أيام وأنتما تأكلان الطعام من الخارج بانتظام. هذا ليس جيدًا من أجل صحتكما.»

فقلت: «لا بأس، لتكن هذه المرة أيضًا من الخارج، وعوضًا عن ذلك نعد في الليل شيئًا طيبًا. ما رأيك في أن أشتري لنا طعامًا من مطعم أكبر جِوجه(15)؟»

فكر أبي هنيهة، ثم ما لبث أن قال: «حسنًا، إن بطاقتي الائتمانية في الجيب الجانبي لمعطفي الكحلي، خذها، واذهب. لا تشتر كمية إضافية، لتتبقى، فإني لا أشتهى تناول الطعام.»

فقالت: «حسنًا.»

حينما هممت بالذهاب لأتناول البطاقة من جيب معطف أبي، رن جرس الباب، ففتحته. كانت ليلى تقف أمام الباب، ألقت السلام، وبينما كانت قد انثنت، لتخلع حذاءها، قالت: «إني جائعة للغاية، جائعة، جائعة...»

الفصل السادس عشر

ذهبت أنا ونادر بنفسينا إلى المقبرة. في البداية رفض نادر أن أرافقه في الذهاب. قال إن الذهاب إلى المقابر ليلًا ليس أمرًا مقبولا لصبي صغير في مثل سني. أمسينا وحل المغيب وإنا لنتجادل في الأمر، غير أني ركبت رأسي، وقلت له إني أريد أن أرافقه ذهابًا. وقلت إني لا أريد أن يذهب هو بمفرده، وقلت إني لا أشعر بالخوف، فلطالما خضت غمار أمور أشد وعورة من هذي وأعضل. عندئذٍ خرز نادر عينيه، وسألني: «مثل ماذا؟!»

عجبت ماذا أقول، حتمًا فإنه لن يصدق قصة ذهابي إلى عالم الموتى مع شكور، لهذا تلعثمت وترددت في الكلام، ثم ما لبثت أن قلت: «في قريتنا، كم من مرة ذهبت في دُجى الليالي إلى المقابر هناك!»

أما نادر ففتح عينيه هذه المرة دهشة، ثم قال: «ولم قصدت المقابر ليلًا؟!»

ها قد أوقعني نادر مرة أخرى في تورط، فنبشت عن إجابة، حتى في آخر الأمر قلت: «كنا نلعب، ونتراهن، أينا يقوى على الذهاب إلى المقبرة دون أن يبدي خوفًا.»

وقتئذٍ هز نادر رأسه، وقال: «ماذا أقول...»

واصلت حديثي، فقلت: «لن أخاف، دعني آتي معك.»

فكر نادر هنية، ثم قال: «في الوقت الآني لا مأوى آخر لديك لتقصده، لذا علينا أن نذهب معًا إلى المقابر، ثم من بعدئذٍ أذهب بك إلى محل أبي لتقضي فيه ليلتك.»

لذلك ذهبنا معًا، واتجهت أنا ونادر معًا إلى قبر حسن آباد.

ولكن القبر كان بالفعل مخيفًا، مخيفًا إلى الحد الذي جعلني أعض على نواجذي أسفًا إذ سقت قدمي إليه، ووددت لو يخاطبني نادر مرة أخرى ويقول إنه لا ينبغي أن أرافقه، وحقيق عليّ ساعتئذٍ أن أرجع. لكنه لم يقل شيئًا آخر عدا أنه سألني: «ألست خائفًا؟»

عندئذٍ تبلعت ريقي، فقلت: «نعم، لست بخائف!»

وجعلت أدنو منه، وكيف لا أخاف في ذاك الخلاء المظلم الذي يقذف في النفس الرعب، فالقمر وإن كان في أوج اكتماله، كان لا يزال متواريًا فجليًا فمتواريًا خلف حجب السحب التي كانت تمر به، ما جعل فضاء القبر فينة مظلم وفينة مقمر. كانت عدة جدران محطمة ومتهالكة تُسّور القبر، ولكي نفوت فيه كان علينا المرور عبر بوابة متصلة بممر فسيح تعشعش فيه الظلمة. طفقنا نسمع نباح كلاب وعواء فيما حولنا، وراحت الريح الحارة المحملة برائحة العفونة

تعصف في المكان برمته عصفًا. وما عاد يُسمع خلا أصوات الكلاب. وعندما تلفت حولي، لم يكن من أحد. كدت ألتصق بنادر فرط ما تشبثت به، فعاود سؤالي: «ألست خائفًا؟!»

فقلت: «نعم، لست خائفًا.»

ثم إني أسهبت كلامي لأدير دفة الحديث إلى وجهة أخرى، فقلت: «يا للخلوة والسكون!»

لم ينبس نادر بذات شفة. لم يكسر هذا السكون سوى وقع أقدامنا على الحصى أمام بوابة المقبرة، إذ كان ثمة صوت كخشخشة يثير الفزع، وكلما سمعته قفَّ شَعري. قال نادر: «علينا الآن أن نرى أين تيمور ذاك، أرجو أن يشرع في عمله هذي الليلة، فلا يفرغ منه قبل منتصف الليل أو مع انبلاج الفجر.»

لم أقل شيئًا. كانت رجفة صوت نادر قد علقت في أذني أكثر من كلامه، إذ أنشأ صوته يتقطع في ارتعاش. كان خائفًا أيضًا، وكان خوفه يهول الفزعة ملء ضلوعي. اجتزنا بوابة المقبرة جنبًا إلي جنب، ودلفنا لندخل الدهليز الطويل الذي كان يتضوع منه خبيث الريح. كان ذاك الممر معتمًا، وما يلوح فيه للبصر سوى شعاع ضوء خارجي في منتهاه. قال نادر: «إن فيه لَدَفَرًا يسد الخياشيم!»

فأجبته بصعوبة: «بلى!»

كانت أرضية الممر معبدة بالحجارة. وقد تبدل صوت وقع أقدامنا الآن من الخشخشة إلى قرع يتردد صداه في فضاء الممر المحصور بين جدرانه. سارعنا الخُطى، كيما نصل في أسرع وقت إلى المكان المضيء في الخارج. وفي أثناء سيرنا تأملت المكان حولي. ولم تكد عيوننا تعتاد الظلمة، حتى أبصرت فتحات مثقوبة في الجدار على كلا الجانبين، كأن أجزاء من الجدار قد تداعت، فانفرجت من ورائها حُفر كبيرة مظلمة؛ حُفر على ما بها من انتثار كانت منظومة إلى حد ما، إذ يبدو أنهم قد أنشأوا حوائل مربعة الشكل بانتظام كعلامات على طول الجدارين العريضين الممتدين اللذين يحويان داخلهما تجاويف، ثم من بعد ذلك وكلما تقدمنا بضع خطوات وجدنا أن أحد هذي الحوائل المربعة من أمامها قد أُزيل لتظهر الحفرة من وراء. وبالقرب من نهاية الدهليز، حيث كان الضوء الخارجي قد نفذ بصيص منه إلى الداخل لمحت شيئًا غريبًا في إحدى تلك الحفر، شلوان أسودان يشبهان باطنيّ قدميّ إنسان. وقفت في مكاني مبهوتًا لا حول لي، ورحت أتأمل هذين الشلوين الأسودين. عندئذٍ كانت رائحة النتانة قد بلغت مداها. فكتمت بإحدى يديَّ أنفي، وبالأخرى نكزت نادرًا، وقلت: «أي شيء ذاك؟»

فقال نادر: « ماذا؟!»

فأشرت إلى الحفرة، وما بداخلها، وقالت: «تلك... هناك.»

نظر نادر، ثم ما لبث أن اجتذب يدي، وبينما كان يشحذ خطاه، قال: «لا شيء... لا شيء.»

فقلت: «وكأنها قدم إنسان.»

فقال نادر: «أجل، إنه إنسان.»

وبينما كان يلهث، استأنف كلامه: «إنه ميت، فبعض الناس الذين يريدون نقل موتاهم إلى مدينة أخرى غير هذه ليواروهم الثرى، يأتون إلى هنا، فيضعونهم في فتحات هذا الجدار، ويشيدون أمام كل منهم حائلًا رقيقًا، لتبقى الجثة محفوظة مدة أطول. ثم عندما تسنح الفرصة يبحثون عنهم، وينقلونهم إلى مكان آخر. في بعض الأحيان لا يأتون ليقفوا أثر جثثهم، وحينئذٍ تتعفن الجثة وتتحلل في الجدار، وأحيانًا ما يتداعى الحائل أمامها، وينهار، فتصبح كما رأيت.»

عندما وصل بكلامه إلى هنا، كنا قد خرجنا من الممر. أما الريح الحارة في الخارج بكل ما فيها من نَتْن، فقد باتت الآن كنسيم عَطِر عليل نسبة لما كابدناه في الدهليز ما جعلنا نشعر بحال أفضل. كنت لا أزال أفكر في أولاء الأموات الذين خُلِّفوا في فتحات الجدار، وفي باطنيّ القدمين الأسودين

اليابسين. أنملس نادر من يدي، وسحب نفسًا عميقًا، ثم قال: «إلى أين سنذهب الآن؟»

لم يكن ردي حاضرًا لأجيبه. كان المكان المحيط بنا يعج بمناطق ظليلة شبه مضيئة لمقابر محفورة في التو، وأكداس من التراب مكدسة بجانبها ويكأن كلًا منها مسخ هبط إلى قبر ينبش عن شيء ما. راح نباح الكلاب يشتد. فالكلاب التي لم يكن ظاهرًا أين بالتحديد مكانها والتي لم ينقطع لها نباح وعواء جعل عواؤها الحاد يتهدج حتى يخال المرء أنها مرتاعة من شيء ما. وكانت الريح الحارة المنتنة التي ما فتأت تصفقني ييبست عينيّ. أحيانًا ما كانت تتبدى شذرات مومضة أمام ناظري، فكنت أُرغم حينها على أن أطبق جفنيّ. وفي كل مرة أغمضها، كنت أشعر بشيء مثل حبيبة رمل في زاوية عيني. كرر نادر على مسامعي سؤاله: «إلى أين سنذهب؟»

ثم من دون أن ينتظر مني إجابة كرر مرة أخرى سؤاله: «إلى أين سنذهب؟»

ثم أجاب بنفسه: «لنمض قدمًا.»

وسار، وتلمست الخُطى سائرًا بجانبه، لكن لم يلبث صوت خشخشة حبيبات الحصى تحت أقدامنا أن ارتفع. قال نادر: «لا بد أن نسير بين المقابر، إن كان موجودًا، يكن في أي

موضع هناك.»

سلكنا طريقنا نحو المقابر المحفورة لتوها، وأكوام التراب بجانبها. راح قلبي يقوم ويقعد حتى كاد يخرج من صدري، وامتقع لوني وقلت يا ليتنا نرتد على أعقابنا في أسرع وقت. أما نادر فأخذ يتقدم بخطى حذرة متمهلة، وأنا بجانبه أيضًا. اقتربنا من المقابر خطوة خطوة. كانت أغلب المقابر أمامنا لا تزال حديثة، كان بعضها مردومًا، وبعضها الآخر لا يزال شاغرًا. لم نكد نصل إلى أول مقبرة منها، إلا وتضاعف الرعب وأخذ بمجامعي. حيث برزت أمامنا مقبرة فارغة يرتفع بجانبها ركام من التراب والحجارة والمَدر. استرقت نظرة داخل المقبرة، حيث كانت حفرة سوداء مظلمة وفارغة، يتسرب منها رطوبة ساخنة. أدرت رأسي في الحال، ونظرت في الاتجاه الآخر. فقال نادر: «حَذَارِ من الوقوع في إحدى المقابر.»

كان لساني متيبسًا، وقد التصق بسقف حنكي، فخرخرت إذ قلت: «أجل.»

وبعد أن مضينا قُدمًا في أرضية القبر المفروشة بالحصى، ارتفع على بُعد خطوات معدودات صوت الخشخشة. فقال نادر على الفور: «انتظر!»

وقف كلانا. بَينما كان صوت الخشخشة لا يزال يضرب

آذاننا انقطع دبيب أقدامنا. وبات الأمر كما لو أن أحدًا يخطو على الحصى. استدرنا، ونظرنا وراءنا، غير أنه لم يكن هنالك من أحد. اشتدت الخشخشة مرة أخرى. هذه المرة استدرنا ونظرنا قبالتنا، فلم نر أحدًا. لكن بدا لنا أن شيئًا ما يتحرك داخل إحدى المقابر الفارغة أمامنا. حينئذٍ تلاحقت أنفاسي، واستطير فؤادي حتى لقد أوشك أن يقفز من صدري. قال نادر: «لا تخف!»

مد يده ليمسك بيدي اليمنى، كانت يده مثلجة كقطعة ثلج. ظلت الخشخشة في المقبرة ترتفع، ولحظة ما رأينا شيئًا أبيض اللون صعد خارجًا من المقبرة، ثم ما لبث أن هبط مرة ثانية. قال نادر: «لا تخف، لا تخف.»

كان صوته يرتجف، أما أنا فلزمت صمتًا تامًا، ولم أقو على فتح فمي لأنبس بكلمة. أردف نادر: «ربما يكون هو!»

كانت أرجلنا قد تخاذلت فارتكسنا مكاننا. أما الشيء الأبيض داخل المقبرة فعاود الكرة صعودًا ونزولًا. هذه المرة ارتقع في صعوده أكثر من ذي قبل، ما جعل المرء يحزر أنه آدمي مثلنا. هتف نادر قائلا: «يا من أنت هناك! أرني نفسك، إنني أبحث عن تيمور، تيمور نبّاش القبور.»

ثم لفه الصمت. كان صوته أشبه بالصراخ، إذ لم يكن يخرج زفيره على نحو سليم، فحينما كان يحاول أن يلفظ اسم

تيمور في آخر كلامه بدا الأمر وكأنه يعاني ضيقًا في التنفس، ولم يعد بوسعه أن يكمل حديثه كما كان. أما نبَّاش القبور فقالها بصوت أخفض من صوته في سائر جملته. تحرك الشيء الأبيض في القبر، ثم أطل وبان فُجاءة. ساعتئذٍ تبدل إلى جسد آدمي كان رأسه وسائر جسده مدثرًا بقماشة بيضاء، وبرز من المقبرة بجسده حتى خصره. صحت حينئذٍ قائلًا: «يا لله...»

تقهقرت من فوري بضع خطوات، كذلك نادر. لكنه أحاط كتفي بيده، وصاح بي قائلًا: «لا تخف، لا تخف.»

والتفت نحو الرجل الذي كان في المقبرة، فهتف: «أأنت تيمور؟!»

وقف الجسد في المقبرة كجثة هامدة، وساد الصمت بضع لحظات في أنحاء المكان. كأنما انقطعت الكلاب عن النباح خوفًا من المشهد المهيب للجثة التي كانت قد خرجت من المقبرة، فألجمها الصمت. شد نادر على كتفي، ووشوشني قائلًا: «لا تخف، إنه يحاول بث الرعب فينا.»

والتفت إلى الجثة، وصاح قائلًا: «مالك لا تجبني؟ أنت تيمور؟ إني أبحث عن تيمور، أريده في أمر ما.»

لزمت الجثة ذات الرداء الأبيض الصمت لحظات معدودات

في عرض القبر، ثم إنها ارتجفت رويدًا رويدًا، وأصدرت صوتًا حادًا مخيفًا: «أووو... هووو...»

في تلك اللحظة انقطعت أنفاسي، وطفرت دموعي لا إراديًا، وأوشكت أن أفسد ثيابي. هتف نادر ثانية: «تيمور، أريد تيمور في أمر ما، إني سائلك، أجبني. وفي المقابل سأدفع لك ما تطلب...»

فجأة سكتت الجثة، ووقتئذٍ سمعنا صوت أحدهم من خلفنا يقول: «إنك لفتوة أي والله، تُرى من تكونان؟ هذا دأبي في العمل منذ سنين، غير أني ما رأيت أحدًا فور أن أبدأ بحيلتي هذه إلا و فقد وعيه مغشيًا عليه.»

استدرنا، فرأينا خلفنا على كومة تراب بجانب إحدى المقابر قامة سوداء لرجل طويل عريض المنكبين، يمسك بإحدى يديه عصا وباليد الأخرى يحرك على رأسه قبعة لبادية. مسحت دموعي بظهر يدي، لأبصره بوضوح. وقبل أن ينطق نادر بكلمة، قال الرجل: «لكنك لم تأت من أجل فعل صدقة للموتى، ولا حتى يبدو من حسن هندامك أنك تريد المشاركة في عملنا هذا، فقل لي لم أتيت إلى هنا إذن؟»

فقال نادر: «نبحث عن تيمور، تيمور نبَّاش القبور.»

نزل الرجل عن كومة التراب، ثم قال: «ليُقبر أبو من يقول

نبَّاش القبر هذه، منذ عشرين سنة و أنا أقترف في هذه المدينة كل أنواع الجرائم، ولا أسمع من الناس سوى نبَّاش القبور، مثلًا ليقل أحدكم تيمور النشال، وليقل آخر تيمور المُحتال، وليقل آخر... ليقل كل واحد ما شاء له أن يقول، إلا نبَّاش القبور.»

أما نادر الذي كان قد تلاشى خوفه، فقال: «سارق أطفال؟ أن يُقال سارق أطفال أهذا يرضيك؟»

فطرق الرجل بعصاه الأرض، ثم قال: «كل شيء إلا هذا...»

ثم بدل نبرة صوته، وسألني: «والآن لم خطر ببالك سارق أطفال هذه؟ أصلاً من الذي أرسلك إلى هنا؟»

فقال نادر: «لقد تاهت منا طفلة، فقيل لنا ربما نهتدي إليها عندك.»

اتخذ الرجل خطوتين إلى الأمام. الآن بات بوسعي أن أرى وجهه العريض، وحاجبيه الكثيفين، كذلك شاربه الرفيع الذي يتدلى إلى جانبي شافتيه. تفرسنا نحن الاثنين، ثم قال: «من قال ذلك؟»

فأجاب نادر: «أحد معارفنا... ما حاجتك بمعرفة من يكون؟ قل لنا أين الطفلة، وسوف ندفع لك أجرة وفيرة.»

أما الرجل الذي كنا تيقنا من أنه هو تيمور، فصوب رأسه ناحيتنا. ثم قال: «أما المال فيجب أن تدفعه غصبًا وإكراهًا، فما كان ذلك البائس ليتجمد في القبر ساعة كاملة هكذا عبثًا، حتى يخيفكما. فعادة ما يغشى عليهم كافة، أو يخشوشبون في أماكنهم خوفًا، ثم نفرغ جيوبهم مما فيها، والآن سنفرغ الجيوب أيضًا بالحُسنى وإلا فلا تلومن إلا نفسك»

استدرت أنا ونادر تلقائيًا، ونظرنا وراءنا. كان يقف في عرض القبر حيثما نظرنا قبيل لحظات فتى نحيل قده حليق رأسه أملس يلقي ثوب الكفن على عاتقه، وراح ينظر إلينا نظرة باسمة. التفت نادر إلى تيمور، وقال: «وذاك أيضًا، سندفع له مالًا. لكن أخبرني الآن أين الطفلة؟»

فقال تيمور: «ما هكذا، ما هكذا تُورد الإبل، لا تفسد علينا تجارتنا وأعمالنا. هذا الصبي لا يتأتى له أن يحصل على شيء. أفرغ أولًا ما في جيبك، كيما نتمكن من الحديث.»

تردد نادر قليلًا، وقال: «لكنني لا أملك مالًا...»

وهنا رفع تيمور من صوته، وقال: «إذن كيف تجرؤ على المجيء هنا لتتحدث إلى تيمور؟! هيا، هات كل ما لديك، ولا تسولن لك نفسك بفرار، ألق نظرة على المكان حولك، لتعي أنه لات حين مناص.»

نظرت حولنا، وإذ بي أبصر خيال بضعة أنفار واقفين على مبعدة منا بين المقابر. ودون أن يقول نادر شيئًا، وضع يده في جيبه. كان بوسعي سماع رنين النقود وإنها تستقر في قبضة يده. ولم يكد يخرج يده من جيبه، حتى مدها صوب تيمور. تقدم منه تيمور، والآن تحت ضوء القمر كان بوسعي أن ألمح ندوبًا غائرة وبثورًا بادية في صحيفة وجهه. لما أن جاء مد يده تحت كف نادر المقبوضة. بسط نادر كفه، وسكب المسكوكات في راحة يد تيمور. أرجع تيمور يده إلى الخلف، وأفرغ المسكوكات في جيبه، ثم ما لبث أن قال: «ذاك الآخر، ... أفرغ ما في ذاك الجيب أيضًا.»

فقال نادر: «ولكن...»

فقال تيمور: «صه لا مزيد، هيا!»

دس نادر يده في جيب قبائه الآخر، وسل قبضته في هدوء، ومدها أمام تيمور. كان في يده حفنة من النقود الورقية. ضحك تيمور، وتناول المال مستبشرًا، وقال: «هو ذا...، لا تخف لن يذهب هذا المال بعيدًا.»

وأشار إلى الرجال من حوله، ثم قال: «سوف يذهب إلى جيب هؤلاء الذين لم يتناول بعضهم شيئًا منذ أسبوع ما خلا عُشبًا، سوف يذهب إلى بطون نساء أولاء وأطفالهم الذين ما ذاقوا في عمرهم لحمًا وبُلو.»

ثم ما لبث أن وضع المال في جيبه، وقال: «الآن أخبرني ماذا تريد، وكم ستدفع في المقابل؟»

ربت نادر على كتفي، وقال: «شقيقة صاحب هذا الصبي سرقت اليوم في شارع الناصري، يريد أن يعرف أين تكون؟ كيف السبيل إليها؟»

شزر إليَّ تيمور، ثم قال: «هب أن ذلك الصبي شهم ذو مروءة، ويعد شرف صاحبه من شرفه، فأين صاحبه؟ ولمَ لم يبحث بنفسه عن شقيقته؟!»

فقال نادر: «إن صاحبه لفي شُغلٍ، مجبر على أن يكون في عمله، ولا يؤذن له بخروج.»

غرز تيمور طرف عصاه في الأرض، وأدارها. وعاود النظر إليَّ، ثم قال لنادر: «والآن ما صلتك أنت بهذا الصبي؟»

فقال نادر: «أنا... أنا... أنا صاحبه أيضًا.»

فهز تيمور رأسه، وقال: «يا حبذا الصداقة! بورك مقصدك! ليتني حُبيت بصديقين مثلكما!»

ضحك نادر، وقال: «حسنًا امدد لنا يد العون، تكن صديقًا!»

تنهد تيمور، ثم قال: «من قال لك إني أخبر مكان الطفلة المسروقة، فقد ضللك، لقد تركت العمل في منطقة الناصري

منذ شهور، ثمة نفر انتزعها من قبضتي، فوضع عليها يده.»

فقال نادر: «من هو ذا؟»

قال تيمور: «رجلٌ أشد مني بطشًا، يسرق الأطفال أيضًا، أي أن عمله المزيد هو سرقة الأطفال.»

فسأله نادر: «ما اسمه؟»

فقال تيمور: «أيّاز... أيّاز ذو العيون الأربع، ألم تسمع به؟!»

فقال نادر: «لا أعرفه.»

فقال تيمور: «يا له من ماكر أَشرّ! إنه أعمى العينين، غير أنه داهية. إذ يبدو ذاك اللعين وكأنه يرى من قفاه أيضًا، ولذلك فإنهم يدعونه ذا العيون الأربع.»

فقال نادر: «أرجل أعمى هو؟!»

فقال تيمور: «ذو أربعة عيون.»

فقال نادر: «أين يمكننا العثور عليه؟ أفي شارع الناصري؟»

فقال تيمور: «إنه ليس هناك، بل رجاله. فإذا ما كنت مستغنيًا عن روحك، وأردت العثور عليه، فاذهب إلى الخندق، خندق بوابة غار(16). وهناك بمجرد أن تقول لأحد أريد أيّاز ذا العيون الأربع، فلا مناص من أن يفصل رأسك عن

جسدك أولًا، حتى من قبل أن يسألك مالك ولأيَّا!»

الفصل السابع عشر

لم يكن دكان تجليد أبي نادر فسيحًا، إذ بلغت مساحته عشرة أقدام في خمسة عشر قدمًا على أقصى حد. غير أنه كان زاخرًا بالكتب؛ كتب كبيرة ذات أغلفة جلدية سميكة، وكتب أخرى صغيرة بأغلفة ورقية رقيقة. كان قد انقضى من الليل نحو ثلاث ساعات، وقتما وصلنا أمام باب دكان التجليد. كان الخوف من القبر، وما شهدناه من أهوال لا يزال يسكنني، إذ بت أنطف عرقًا، وقد جهدني العطش. فتح نادر أقفال باب الدكان الخشبي، ورفع أحد مصراعيه، ثم قال: «ادخل، قبل أن يباغتنا داروغة من العسس(17).»

دخلت الدكان المظلم. كانت رائحة الورق، والجلد، وغراء التجليد، تثوَّرت في المكان كله، حتى لقد ملأت أنفي، وملكت حواسي. كان الفضاء في الدكان مظلمًا حالكًا، حتى إني لم أستطع رؤية شيء. دخل نادر الدكان عقبي، وقال: «الآن سأسرج سراجًا.»

ثم مضى إلى إحدى الزوايا، وما لبث أن ارتفع صوت أشياء يرتطم بعضها ببعض، ثم صوت إشعال عود كبريت، وعقبه رأيت شعلة نور في زاوية الدكان تسري رويدًا في فتيل المصباح الزيتي، وتزكو، فيزداد المصباح توهجًا. وضع نادر

ظُلّة المصباح الزجاجية عليه، والتفت نحوي، فقال: «الوضع أفضل الآن؟!»

نظرت إلى وجهه الذي امتد إليه نور المصباح، فبدت الندوب فيه بحجم أكبر. وعندما وجدني لم أقل شيئًا، سألني: «هل أنت بخير؟!»

فقلت: «نعم، بخير.»

فقال: «حمدًا لله.»

وضع المصباح على طاولة صغيرة كانت قرب الباب، وقال: «اسمح لي بأن أغلق الباب. فإذا ما جاء الداروغة، فلن يذهب خالي الوفاض. وقد دفعت الليلة راتبي الشهري لتيمور نبّاش القبور.»

لقد أشعرتني عبارته الأخيرة هذه بالخجل، فقلت: «الذنب ذنبي. لو كنت أعرف أن الأمر سيكون على هذا النحو، لما اقترحت أن نذهب.»

وضع نادر مصراع الباب من الداخل، ثم التفت نحوي، وقال: «لم تكن تسعى وراء شأنك الخاص، إنما أردت تقديم العون لشخص آخر، وإني مثلك أيضًا. أحيانًا ما يجدر بنا أن نفعل شيئًا لمن هم سوانا، لأناس ربما لم نلتقهم مرة واحدة عن قرب.»

فقلت: «لكنك الليلة فقدت مالًا جمًا.»

فضحك، وتقدم قائلًا: «ألم تسمع ما قال تيمور؟ لقد ذهب هذا المال في جيوب حفنة من الجياع، وسوف يشبع بطونهم الخاوية، لذلك فإني لست في حرجٍ من ضياع المال. ولقد ادخرت مبلغًا من المال، يعينني حتى أقبض راتب الشهر المقبل.»

ثم التقط نفسه، وقال: «الآن تأمل محل عمل والدي أجمل مكان في الدنيا.»

كانت عيناي قد ألفتا الضوء الخافت في الداخل، وصار بوسعي أن أرى صفوف الكتب المنضودة على الطاولات بجانب الجدران، أو بين الرفوف. سحب نادر مقعدًا كبيرًا بلا مسند من جانب الجدار إلى الوسط، ثم قال: «اقعد.»

كنت أقصر من أن أتمكن من الجلوس على المقعد، فرحت أشب على أصابع قدمي، ووليت المقعد ظهري، إلى أن جلست عليه بالكاد. ولما لم تكن قدماي تصلان إلى الأرض، أخذت أتزحزح قليلًا، حتى استقرت بي جلستي. وعندما كان نادر يجتذب مقعدًا آخر لنفسه، قال: «لقد نشأت في هذا المكان منذ نعومة أظفاري بين هذه الكتب، اعتدت المجيء عند أبي لأرقب عمله. لطالما كنتُ أتصفح هذه الكتب، صحيح

أني ما كنت أفقه مكتوبًا بين دفافها، لكني كنت مستمتعًا أيما استمتاع. ثم من بعد أن ارتدت الكُتَّاب، وتعلمت القراءة و الكتابة، صار هذا المكان جنة خُلدي، إذ كنت أقصد المكان هنا يوميًا بعد الظهيرة، وأتصفح الكتب، وأطالعها.»

ثم استوى بهدوء على مقعده ونظر إليّ محدقًا، فقال: «يجب أن تتعلم القراءة، يجب أن تكون قادرًا على القراءة.»

ثم تريث قليلًا، قبل أن يقول: «هل تحب؟ هل تحب أن تقرأ؟!»

فأجبته: «نعم كثيرًا، فما جئت هنا إلى الميرزا حسن خان إلا ليعلمني القراءة.»

أطبق نادر شفتيه، وأطرق قليلًا، ثم قال: «سوف يعلمك، أنا أعرف الميرزا. لم أونسه كثيرًا وأجالسه، غير أني خبرته عن بُعد. ذات مرة ذهبت إليه وقلت له إني أسأله العون في مسألة، فما هي إلا أن قال إنه سوف ينبئني. لذلك فإني أعلم يقينًا أنه إذا وعد أوفى، ربما في هذه الأيام تكون له عودة وأوبة، ويباشر العمل في مدرسته.»

سألته: «كم من الوقت يستغرق المرء منا ليتقن القراءة؟»

رفع نادر صوته قليلًا، وقال في حماس متقد: «قبلًا كان الأمر يستغرق وقتًا طويلًا للغاية، أما الآن فقد ابتكر الميرزا

طريقة تؤتي ثمارها في تعلم الأبجدية بسرعة رهيبة، مثلًا في غضون شهرين بل قد يستغرق الأمر شهرًا واحدًا.»

فسألته: «كم من الوقت يعني الشهر؟»

فضغط نادر شفتيه معًا كما كان يفعل في كل مرة يهم فيها بالتفكير، ورفع نظارته الدقيقة المدورة بأنملته، ثم قال: «شهر أي يأتي عليك ثلاثون يومًا، أي ثلاثين مرة تنام في الليل، وتصحو صباحًا.»

فسألته: «ثلاثون يومًا تعني كم يومًا؟ تعني كم مرة؟»

فكر نادر قليلًا ، ثم بسط إحدى كفيه، وقال: «يدي هذي بها خمسة أصابع.»

ثم رفع يده الأخرى، وقال: «وهذه أيضًا خمسة، إذا أضفنا أصابع إحداهما إلى أصابع الأخرى صارت عشرة أصابع.»

وأخذ يؤخر كفيه فيقدمهما ثلاث مرات متتاليات، ثم قال: «ثلاثون يومًا أي ثلاث مرات من هذه الأصابع العشرة. أي بهذا القدر، هل فهمت الآن؟»

فقلت: «نعم... حسنًا، لقد عملت في قصر نُويان خان مدة أطول من هذي بكثير.»

فقال نادر هامسًا: «رائع ... رائع للغاية.»

وكأنه كان يتحدث إلى نفسه قال: «نِعمَ المطلب أن تتقن القراءة، حينئذٍ ستؤمن بأن البشر قادرون على الطيران.»

عجبت من قوله، فقلت: «ماذا؟!»

انتبه نادر، وقال: «لا شيء... لا شيء... ألا تريد شيئًا؟»

فقلت: «ماء... عطشان.»

فقال نادر: «أنت لم تتعش بعد أيضًا.»

ثم قام، وحينما كان متوجهًا إلى ذلك الركن في الدكان، قال: «ما دام يوجد ماء في الجرة، فلا بد أن يوجد الخبز.»

ثم أخرج جرة ماء من وراء طاولة خشبية طويلة قد صفت عليها بعض الكتب، وتناول أيضًا الكوب الذي كان على الطاولة، وأحضرهما لي. ناولني الكوب، وقال: «تفضل... كلما صرت إلى هنا، لا أعود أتذكر شيئًا مما يجري بالخارج.»

ثم ملأ الكوب بالماء. تجرعت الكوب دفعة واحدة. انتظر نادر حتى أفرغت الكوب شربًا، ثم ملأه لي مرة بعد، وقال: «الآن انتبهت كم أنا الآخر عطشان!»

وذهب وتناول كوبًا آخر من على الطاولة، وملأه بالماء، وتجرعه، ولما أنزل عن فمه الكوب، نشق نفسًا، وقال: «هذا الرجل الذي من المحتمل أن يكون هو من سرق الطفلة، يبدو

أن خطره كبير.»

فقلت: «أتعني أنه لم يعد في وسعنا فعل شيء بعد الآن؟»

فقال: «لمَ تفكر بهذه الطريقة؟!»

قلت: «حسنًا هذا اللص يبدو أن خطره كبير.»

فقال نادر: «حسنًا ماذا؟ عندما يكون ذا شر عظيم، أَحريّ بك أن تتركه يقود شقيقة صاحبك إلى حيث شاء؟! أمدرك أنت أي بلية ستصيب الأطفال المسروقين من ذويهم؟»

فقلت: «ولكن...»

فقاطعني نادر، وقال: «لا بد أنك تود أن تقول أين نحن من بأسه الشديد، ولكن هذا كلام يُجانب الصواب. يجب أن نجلس ونفكر لنرى ما يمكن فعله. ابق هنا الليلة، وباكر الصباح آتيك، لندبر حلًا معًا.»

ثم نظر لي مليًا، وقال: «ألست خائفًا؟!»

تبلعت ريقي، وقلت: «نعم.»

فقال نادر: «اعتاد والديّ تأخري في المجيء، أما أن أمكث ليلة بالخارج حتى الصباح ولا أعود إلى البيت فهذا ما لا يمكنني فعله، وإلا لبت هذه الليلة معك. لكن المصباح به من الزيت ما يكفي حتى الصباح، سأتركه منيرًا.»

نظرت إلى المصباح، والكتب التي كانت في كل مكان، ثم قلت: «لو كنت مُتعلمًا، لظللت أقرأ حتى بزوغ الصبح.»

تهلل وجه نادر، فضحك، وقال: «أجل، ويا لها من ليلة تلك الليلة التي تظل فيها بصحبة كتاب حتى يطلع عليك الصباح.»

ثم ما لبث أن تصرف كرجل أمره ليس بيده، فسار باتجاه الكتب التي كانت تصطف على الرفوف التي هي لصيقة الجدار، وكأنما كان يتحدث إلى نفسه قال: «هنا يوجد شتى أنواع الكتب، في كل التخصصات وفي مجمل التصانيف. غالب كتب دار الفنون يحضرونها هنا لتُجلَّد.»

تناول كتابًا كبيرًا مُجلدًا عن الرف، وقال: «البلايا الجماعية والأمراض المُعدِية، تأليف محمد علي خان الحكيم باشي.»

ثم نظر إليّ، وقال: «هل تتذكر قبل ليلتين عندما كنت أعقم الجثث خارج بوابة المدينة؟ لقد تعلمت فنون ذاك العلم من هذا الكتاب عينه، حيث يُستعمل الجير الحي والفورمالين لتعقيم الجسد... إني لأعرف الكثير عن كل شيء، نهلت من الطب والرياضيات، إلى العلوم السياسة والاقتصادية. ومن علم الجغرافيا إلى العلوم الطبيعية والخيميائية. هنا تعلمت كل شيء. بالطبع درست علم الفلك والنجوم أيضًا، في بلاد

الإفرنج، في مملكة نيدرلند بمدنية اسمها لايدن، وهناك كانت تُطبع الكتب باللغة الفارسية أيضًا. لكن دكان تجليد أبي شيء آخر، فالكتب هنا تتحدث إلى الناس، ولطالما جاء كل منها وراح، بعضها بعد إذ جاء، سرعان ما عاد وراح، وبعضها بقي هنا، وبعضها الآخر ابتاعها أبي من أصحابها، واحتفظ بها.»

ثم التقط بحماس كتابًا من بين الكتب، وقال: «مثل هذا، هذا كتاب الجُلستان(18) لسعدي الشيرازي، عندما تذهب إلى المدرسة، يجب أن تقرأه أولاً وقبل كل شيء، ... المنة لله عز وجل الذي طاعته توجب التقرب منه، وبشكره تزداد النعم...»

ثم وضعه في مكانه، وأشار إلى كتاب آخر: «تلك أيضًا شاهنامة(19) الفردوسي، هل سمعت بقصة رستم وسُهراب من قبل؟»

فقلت متهللًا: «نعم، نعم كان كَل(20) قاسم طحّان قريتنا يعرفها ويرويها للأطفال.»

سُر لذلك نادر، وقال بحماس متقد: «أرأيت؟... أرأيت كم هي رائعة؟ حينما مات سُهراب، ويح نفسي... إن كان الموت هو العدل، فما الظلم؟! وما كل هذه الصياحات والصراخات التي تتأتى من وراء العدل؟!»

لم أسمع هذي القصيدة من قبل، لكني تذكرت القصة جليًا، فقلت: «ذاك رائع، كل الصبية كانوا يبكون في آخر القصة.»

فقال نادر: «إنها قصة حزينة تثير العبرات... للغاية.»

ثم انتقل إلى صف آخر من الكتب، وقال: «هؤلاء أجانب، ألكسندر دوما، بلزاك، تولستوي، كلها قصص، يطلقون عليها روايات، يا لروعة الرواية، لئن كُتبت يومًا رواية في مملكتنا، ليصبحن كل شيء على خير ما يرام. الرواية تعني آلام الناس، تعني قول الكلام الذي في أفئدتهم يكنون، تعني بلسمة جراح المساكين المثخنة... لو كنت ذا سلطة ونفوذ، لأدرت كل شئون مملكتنا معتليًا صهوة الرواية. كنت لأطالع ما يخطه هؤلاء الذين يكتبون الرواية، وأجري تنفيذه في كل مكان.»

وعاد مجددًا يبحث بين الرفوف، ثم أخرج كتابًا آخر، وقال: «هذا هو الكتاب الأكثر قراءة من بين الكتب، إنه أثر للكاتب الشهير السير آرثر كان دويل، مغامرات محقق عظيم وألمعي فطن، اسمه شرلوك هولمز. محقق يقبض على اللصوص والمجرمين كافة، ويسلمهم إلى الشرطة.»

فقلت: «لا ريب أنه كان ذا قوة مكين، ذاك الذي ذكرت.»

فقال: «حباه الله بعقل وفراسة يفوقان قوته، ما جعله

يحسن التفكير. لقد اشتبك في إحدى الحوادث مع عالم مجنون كان قادرًا بمسحوق ترابي عجيب على أن يشل حركة الناس، أو يجن جنونهم فيتعاركون. غير أنه في النهاية ما لبث أن تغلب عليه أيضًا.»

فقلت مدهوشًا: «وكيف حصل على ذاك المسحوق؟!»

فقال نادر: «كان قد صنعه بنفسه، بالاستفادة من علم الخيمياء.»

فقلت: «أيُّ نوع غريب من الناس نرى؟!»

فقال نادر: «حقًا، ولكن قوة ذكاء هذا المحقق وفراسته أغرب، ناهيك بجسارته في عدم خوفه من أي شيء.»

فقلت: «مثلك تمامًا في عدم خوفك من القبر.»

نظر نادر إليّ، وبعد أن فكر هنية قال: «أنا... لم يكن الأمر أني لم أخف، بالطبع كنت خائفًا، كنت خائفًا خوفًا شديدًا.»

فقلت: «كلا، إنك ما خفت، لقد وقفت هناك، ودعوت تيمور. ولولا وجودك، لأغشي عليّ. وإني لما رأيت الخوف لم يتسلل إلى نفسك، جاهدت لكي لا أخاف أيضًا.»

فكر نادر مرة بعد، ثم قال: «كنت خائفًا، ربما لم أتصرف كالخائفين، ولكني كدت أموت رعبًا.»

فقلت: «كنت ذكيًا للغاية، مثل ذاك الرجل الذي ذكرته. لا ريب أنك لما قرأت كتابه، لم يصبك خوف.»

التمعت عينا نادر، وافتر ثغره عن ابتسامة، ثم قال: «شرلوك هولمز؟ هل تعتقد حقًا أني مثله؟!»

فقلت: «نعم، كذلك كنت ذكيًا كما أنك لم تخف، وإني لأود أن أصير مثلك.»

سرح نادر مسترسلًا مع خواطره. هذه المرة استغرق الأمر مدة أطول، حتى لقد ساد الصمت في أرجاء الدكان، ولم يعد يُسمع غير أزيز المصباح الزيتي. كان قد أطرق رأسه، وأنشأ ينظر إلى حافة الطاولة القريبة منا. شعرت أنه مغتم ومتكدّر من شيء. كنت قلقًا أن يكون قد تكدر من كلامي، فرحت أتساءل بيني وبين نفسي تُرى في أي موضع ربما بدا كلامي مسيئًا، حينئذٍ رفع نادر رأسه، وتنهد قائلا: «ولكني لا أعتقد ذلك.»

فاطمأن قلبي لما تبينت أنه لم يُساء من كلامي، لذا سألته مادًا صوتي: «لماذا؟»

فأجاب: «لأن... كيف أصف الأمر، لأن الآخرين لا يعتقدون بمثل هذا.»

فقلت: «وهل يعتقد الآخرون أنك جبان؟!»

فقال: «ليس جبنًا... ربما يكون... من الصعب قول ذلك، مثلًا أبي وهو رجل طيب، أحيانًا ما يتحدث أمامي عن هيبة الرجل وسمته، دائمًا ما يقول إن الرجل يجب أن يكون ذا هيبة، إني أتفهم ما يعنيه، إنه ليحب أن يراني أغير من طباعي وتصرفي. إذ يعتقد أني ما دمت لا أفعل شيئًا عدا مطالعة الكتب فلن أبدو في نواظر الناس إلا ضعيفًا... لا بأس.»

تنهد نادر وعاود الصمت. وفي حين كنت أدني قدميَّ من الأرض، وأحاول أن ألامسها بأطراف أصابعي، قلت: «إنك أقوى إنسان رأيته في حياتي، بل إن قوتك لتفوق قوة برزو ابن كَل قاسم الذي كان بمقدوره أن يحمل حجر الرحى بمفرده في قريتنا سلطان آباد وينقله.»

ضحك نادر مقهقهًا، كانت ضحكته طويلة، لكن بمجرد أن انتهى من الضحك ابتسر وجهه. وكأن حزنًا ألمَّ به ثانية. حدق إليَّ، ثم قال: «في العام الماضي، في مثل هذا الوقت جاء رجل هندي إلى ساحة مشق ليطير بالمنطاد الهوائي، أوَتعرف ما المنطاد الهوائي؟»

فقلت: «كلا.»

فقال: «سلة كبيرة، كبيرة إلى حد أنها تحمل داخلها نحو

نفرين واقفين. وأعلى السلة ثمة خيمة كبيرة للغاية قد رُبطت إليها، خيمة أشبه ما تكون بجرة مقلوبة، بحيث وجهت فوهتها إلى أسفل. وتحت فتحة الخيمة يوقدون نارًا، ليندفع تيار الهواء الساخن بداخلها. حينئذٍ ترتفع تلك الخيمة، فترتفع إلى السماء معها السلة المربوطة إليها. فإن كان بداخل تلك السلة أحد....»

فقلت: «سيرتفع هو الآخر، ويطير.»

لمعت عينا نادر، فور أن سمع كلامي هذا. فقال وإنه مستبشر: «أحسنت، سوف يطير... وها هو ذا رجل هندي كان قد جلب معه منطادًا إلى ساحة مشق، ليركبه ويطير، فاجتمع الناس حول الميدان، ليروا ما الذي ينوي فعله. وقتما سمعوا أن ذاك الهندي سوف يدخل السلة ويطير، اتخذوه سخريًا، وقالوا ذاك أمر محال، لن يستطيع. قالوا لا يمكن لإنسان أن يطير. غير أني عندما كنت في بلاد الإفرنج أذكر أني رأيت هناك ذات مرة منطادًا، رأيت رجلين دخلا السلة معًا، ثم ارتفع المنطاد بهما، فطارا، وأخذا يصعدان، ويصعدان حتى تواريا عن الأنظار. لذلك قلت إن الأمر ليس كما يعتقدون أن امرأً لا يتسنى له الطيران، فليتمهلوا الآن ويتأملوا المشهد ويرقبوه، ليروا كيف سيطير هذا الهندي. قرقع الجميع بالضحك، واتخذوني أنا الآخر هزوًا، في حين أني لم أنبس بكلمة. خلت

في قرارة نفسي وقتما يعرج هذا الهندي إلى السماء، ويطير، سيدركون كم أخطأوا في نظرهم للأمور.

عندئذٍ دنا مني بضعة أنفار، وعرضوا عليَّ أن نتراهن. لم أقبل في البداية لكنهم أصروا، وفي النهاية تراهنا على قِران واحد. ثم وقف جميعهم مترقبين أن يشرع الرجل الهندي في تنفيذ مهمته. في أول الأمر تفحص الرجل كل الأحبال التي كانت بين الخيمة والسلة فحصًا دقيقًا. ثم أشعل المجمرة تحت خيمة المنطاد، فأخذت ألسنة النيران تضطرم شيئًا فشيئًا، حتى امتلأ المنطاد بالهواء الساخن، وارتفعت خيمة المنطاد في الهواء. حينذاك راح الرجل الهندي يلوح بعمامته القرمزية على رأسه مُطلقًا صرخة، ثم قال شيئًا بلسان هندي ربما كان يعني أن المنطاد على تمام التَّهيؤ للطيران. شُدت الأحبال الموثقة إلى الخيمة واستطالت، وفطنت آنذاك أن سلة المنطاد كانت مثبتة في الأرض ببضعة أحبال أخريات. انحل برم تلك الأحبال أيضًا، وانتصبت كأعواد الشجر. وفي الوقت الذي طفق فيه الناس ينظرون إلى منطاد الرجل الهندي بعيون ملؤها الدهشة، بدأ المنطاد يقلع من الأرض.

ويا لغبطتي حينها لأن المنطاد سيرتفع الآن إلى الهواء، ويدرك الناس أني كنت محقًا. وقلت لنفسي إني لن آخذ مال الرهان من أحد، حسبي أن يدركوا أني كنت على صواب.

قطع الرجل الهندي الأحبال التي كانت تصل السلة بالأرض، وأنشأ المنطاد يرتفع وئيدًا وئيدًا من الأرض نحو السماء، فتنهد الناس كافة. هلل بعضهم، كذا صحت فرحًا وسرورًا أرأيتم؟ أرأيتم؟ ها هو ذا يطير! ها هو ذا يرتقي إلى السماء! أما أولئك الذين كانوا تراهنوا معي، فراحوا ينظرون حانقين ساخطين إلى المنطاد وإنه على هذا النحو آخذًا في الاندفاع صُعدًا. وإذ فجأة انهار كل شيء، انخرق المنطاد الذي كان قد ارتفع نحو عشرين جزًا(21) عن سطح الأرض من أعلاه، وسقطت السلة على الأرض سقوطًا مدويًا.

أغميّ على الرجل الهندي وإنه في السلة. وما كان من القوم إلا أن راحوا يصرخون ويسخرون مجددًا، وقد أقبل المتراهنون إليّ، وقبل أن أنبس بذات شفة انقضوا عليّ وانهالوا، وأخرجوا كل ما كان في جيبي من نقود، حتى لقد سعى كل واحد أن يأخذ شيئًا متراهنًا معي كان أم لا، بل إن قبائي وقبعتي ونظارتي لم تسلم فسلبونيها. ثم ما لبثوا أن استهزءوا بي وصاحوا معًا بهتاف واحد: طِر يا غراب(22)، طِر يا حمار، يقصدون أني حمار إذ خلت المرء بوسعه أن يطير. مذ ذلك الحين، وحتى تلك اللحظة كلما رآني أي ممن كانوا بساحة مشق، وشهدوا تلك الواقعة، فما يراني منهم راء إلا ويهتف بي مع نحو شخصين آخرين: طِر يا غراب، طِر

يا حمار. حتى أنديت أجبنة عائلتي وأهلي خزيًا. وهذا أبي، أبي الذي قضى سنوات بين هذه الكتب وقد طالع بعضها، لا يفتأ يكلمني عن هيبة الرجال وسمتهم، والله وحده يعلم ماذا يجول في قلبه، ليكتفي بهذا القدر مما يقول.

ثم لزم نادر الصمت، وآثرته أيضًا. الآن فقط فهمت مغزى تصرفات بعض الأشخاص ممن كانوا أمام دار التلغراف. كنت مغتمًا لحزن صديقي. لم يطل بنا الوقت، حتى تذكرت الرجل الهندي، فسألت عنه نادرًا: «وما الذي حدث لذاك الهندي؟»

فقال: «لا شيء، لم أستطع رؤية شيء في ذلك اليوم. لكني سمعت أن ساقه قد كُسرت، ولزم المشفى العام مدة من الزمان، ربما بعد ذلك عاد إلى بلاده، وأخذ منطاده معه.»

فقلت: «هل فكرت يومًا في أن تذهب إليه؟»

فقال نادر: «بالطبع، وددت الذهاب إليه، لأسأله كيف يُصنع المنطاد.»

الفصل الثامن عشر

أعددت العشاء، كان عجة البطاطس المقلية التي كنت قد تعلمت طريقة طبخها مؤخرًا. أخذنا نحن الثلاثة نتناول الطعام في صمت، فقالت ليلى: «يا له من صمت يصم الآذان!»

فضحك أبي وقال: « لقد تملكنا نحن الثلاثة الجوع حتى إنه لا أحد في مزاج للكلام.»

لم يكن الأمر على هذا النحو. لم نكن نشعر بالجوع. كان كل منا قد تناول شيئًا في المساء، وكان العشاء جاهزًا في وقت مبكر. بدا أن أبي وليلى لم يكن لديهما ما يقولانه. أما أنا فكنت متخمًا بالكلام، لكن وكأنما يعوزني شيء يدفعني لأبوح به. أحيانًا ما يجب أن يكون هناك جهد مبذول من مستوى لمستوى آخر ليتولد الكلام. مثلما يتولد التيار الكهربائي بفرق الجهد بين نقطتين، كإبريق يجب أن يميل حتى يتصبب منه الماء، كذلك يجب على الناس عندما يواجه بعضهم بعضًا أن يخفض أحدهم نفسه قليلًا، ويسمح بأن يميل الآخر نحوه. ينبغي أن يستميله إليه، حتى يجري على لسانه الكلام وينساب. وإلا فمن الممكن أن يظل الإنسان متخمًا بحديثه ومثقلًا، عدا أنه لا يستطيع أن يفضي بكلامه. حتى يصل به الأمر إلى أن تموت كلماته للأبد، أو ينفجر في

لحظة، ويظل يتحدث على نحو لا صلة له بما كان يريد أن يقوله، هذا ما فطنت إليه في الأيام التي تلت رحيل أمي. عندما فارقت أمي الحياة، كنا ثلاثتنا في مستوى واحد متعادلين، فكانت الفرصة أقل في أن يتسنى لأحدنا أن ينحني للآخر، ليستنطقه فتساب منه كلماته. ما كان أسهل انحناء أحدنا للآخر وقتما كانت أمي لا تزال حاضرة بيننا! كانت تخفض لنا جناحها، وتتداركنا بلطيف أسلوبها ما يجعل الكلام ينثال على ألسنتنا دفقًا يسيرًا. مذ رحلت عنا، آثرنا الصمت، فظل الكلام حبيس قلوبنا، أو أحيانًا ما كان يتبدل إلى كلام لم يكن يمت بصلة إلى ما نريد قوله. شيء يشبه كلام أبي بعد ظهر ذلك اليوم حينما عدت إلى البيت. لقد انفجر أبي، وتحور منطوقه عن المراد. كنت جالسًا إلى مائدة الطعام وذهني سارح في خواطري هذه، عندما قال أبي: «بالمناسبة، لقد تحدثت إلى صديقي، ذاك الكاتب. إنه يتوق إلى رؤية مذكرات رضا قُلي ميرزا، ويقول إنه بالصدفة كان قد أجرى بحثًا دقيقًا حول أوضاع الأطفال في العصر القاجاري، وهذا الموضوع يثير اهتمامه.»

فقالت ليلى: «ماذا يعني بأنه يثير اهتمامه؟ أيعني بذلك أنه يريد كتابة قصة عنه؟»

فأجاب أبي: «ربما، لم يذكر شيئًا عن كتابه قصة، لكنه قال

إنه يحب أن يطلع على مخطوطات رضا قُلي.»

فقالت ليلى: «بالتأكيد إذا قرأها، فسوف يكتب قصة عن رضا قُلي.»

فقال أبي: «لهذه المخطوطات جاذبية شديدة تجعلها جديرة بأن تتحول إلى قصة.»

فقلت: «بالإضافة إلى أن أي كاتب يتناول بقلمه الفقر والفقراء، يصبح ثريًا.»

ابتلع أبي اللقمة بصعوبة، وقال: «لا تكن مجحفًا في حكمك. لا يمكن لإنسان أن يكتب قصة عن موضوع إن لم يؤمن به من صميم قلبه. أو يرسم لوحة أو حتى يؤلف مقطوعة موسيقية، إلا أن تكون ذات تأثير. فكثيرون هم من يكتبون عن موضوعات لا يؤمنون بها، بيد أن أعمالهم ليست ذات تأثير.»

تناولت قطعة خبز، وشطرتها أمامي مباشرة إلى نصفين، ثم قلت: «هذه الأيام لا يؤمن الجميع إلا بالمال. الآن يبدو أن الوضع مختلف، فأذكى الرجال وأدهاهم هم الذين يتظاهرون أمام الناس أن قلوبهم تحترق شفقة على الآخرين.»

نظر أبي إليّ في صمت استمر بضع لحظات. ولما تلاقت عيوننا، حينئذٍ أدركت أني قد انفجرت. كنت أقول كلامًا لا

علاقة له أبدًا بما أود قوله، كلام يمكن أن يُسِيء أبي فهمه، فيحمل بعضه على نفسه. حينها اغتم قلبي، إذ قد أفسدت الأمر برمته. ومن حسن حظي أن ليلى غيرت موضوع الحديث، فقالت: «حتى الآن لم يفارق تفكيري ما دار نهار أمس، تلك القبعة عندما سقطت، كان ذلك السيد يقول أن أشياء من تلك تحدث في اليوم الواحد هناك عدة مرات.»

عقبتُ فورًا على كلامها، فقلت: «وأنا كذلك، فعندما قلت إن الجميع يبحثون عن المال، كنت أقصد هؤلاء الذين يقصدون ذلك القصر ويدخلونه، فلا أحد منهم يحاول أن يفهم ما يجري هناك، جميعهم يكرسون مسعاهم بحثًا عن المال، بحثًا عن الكنز، بحثًا عن قطع نقدية ذهبية، أو أي شيء آخر ذي قيمة.»

خفض أبي رأسه، وأخذ يقلب بالملعقة في طبق طعامه. التفت إلى أبي، وسألته: «حقًا لماذا يبدو هذا المنزل هكذا؟ ولمَ تحدث مثل هذه الأمور هناك؟»

نظر أبي إليَّ وهو لا يزال يعبث بطعامه، ثم قال: «ماذا أقول... أحيانًا ما أفكر أن هذا القصر مثل ثقب أسود، شيء يختل فيه نظام الزمان والمكان، في النهاية علينا أن نتقبل أن ما تراه أعيننا ليس هو الحقيقة برمتها.»

ثم أكل آخر لقمة، وقام. كنت أستعد لأقحم موضوع

الرجل الهندي في الحديث، لكن أبي كان قد قام. توجه كالعادة إلى المطبخ، فوضع إبريق الشاي على الموقد، وأخذ يتفحص هاتفه قليلًا ريثما يغلي الماء. ثم صب الشاي في الكوب، وأخذه معه إلى الورشة. جمعت الأطباق عن الطاولة، ورتبتها، وجلست أشاهد التلفاز قليلًا، ثم انصرفت إلى غرفتي. تقدمت إلى رف الكتب الخاصة بي، وتذكرت أني لم أقرأ كتابًا منذ زمن طويل. أنا الذي كنت أعدني دودة كتب لا أفارق المطالعة، لم أقرأ أي شيء منذ بضعة أسابيع عدا بعض أجزاء من مخطوطات رضا قُلي ميرزا، أو مقتطفات من كتبي الدراسية. تناولت بلا هدف كتابًا من بين الكتب، واستلقيت على الفراش. فتحت الكتاب من منتصفه، ودون أن أستوعب منه شيئًا منه شرعت في القراءة. لم أكن أفهم معنى أي كلمة. كان وجه الرجل الهندي أمام عيني طوال الوقت، فرحت أسترجع الحديث الذي كان قد دار بيننا، حتى وصلت في نهاية المطاف إلى موعدنا، وصورة رأسه الصغير الداكن الذي قرَّ على راحة يد الرجل الذي كان قد جلس إلى جانبه، ثم الصوت الذي قال: «يبدو وكأنه تُوفي!» فكرت في داخلي ماذا يمكن أن يكون سبب موت الرجل الهندي، أكانت وفاته طبيعة؟ كالسكتة القلبية مثلًا؟ أم أنه مات مقتولًا؟ وضعت الكتاب جانبًا، والتقطت عن المكتب هاتفي، وفتحته. كان هناك حديث دائر في مجموعة خاصة

بطلاب المدرسة بينهم حول اقتراب موعد اختبارات الفصل الدراسي الأول، الأمر الذي لم أكن أفكر فيه قط. أحد زملاء الصف كان أرسل لي رسالة يسألني فيها عن سبب انصرافي عن الجميع وتجنبهم هذه الأيام، حيث أذهب وحدي، وأعود وحدي. ولما راجعت تصرفاتي في الأسابيع القليلة الماضية، رأيت أنه محق. فطوال هذه المدة كنت منطويًا على نفسي، حتى إني كدت أهمل الجميع. وعلى الرغم من أني لم أكن اجتماعيًا من قبل كثيرًا أو أميل إلى اللهو والمرح، أصبحت في هذين الشهرين أكثر عزلة مما كنت عليه. أغلقت شبكات التواصل الاجتماعي، وصرت إلى سجل المكالمات الواردة على هاتفي. كان رقم الرجل الهندي آخر رقم تواصلت معه هاتفيًا. كان رقمًا مُؤمنًا بلا اسم لكنه مميز إلى حد ما ويسهل حفظه. نظرت إلى الأرقام وحاولت أن أستنبط منها شيئًا، شيء يعينني على معرفة من يكون الرجل الهندي أو سانجي، ولماذا تُوفي؟ إن كان قد قُتل فمن قتله؟ هل يمكن أن تكون لوفاته علاقة بقصر نُويان خان والأحداث ذات الصلة به أو حتى بمخطوطات رضا قلي ميرزا؟ وماذا سيجني أصلًا من مذكراته؟! انقضت الأفكار على ذهني فكرة بعد الأخرى، فنهضت، وذهبت إلى النافذة وأزحت الستار، ونظرت عبر الزجاج إلى الخارج. لم تكن هناك من إطلالة أمامي سوى جدار الفناء الخلفي.

فتلك النافذة لم تكن لتظهر المشهد أو المنظر الطبيعي في الخارج. لقد أُنشئت لترسل النور القادم من فوق جدار الفناء الخلفي إلى داخل الغرفة، لئلا يغدو المكان كله مظلمًا كغياهب الجب. ذهبت إلى المطبخ في حالة من اليأس، وتناولت علاجي، علبة الأقراص المضادة للاكتئاب التي كنت قد توقفت عن تناولها منذ أيام، وأخرجت منها قرصًا ابتلعته بكوب ماء. ثم عدت إلى غرفتي وارتميت على فراشي. أطبقت جفني، وفكرت فيما قد شهدته، إلى أن أخذ جفناي يثقلان، وغلبني النوم. لا أدري بالضبط كم من الوقت استغرق نومي ذلك عندما تنبهت من نومي على صوت رنين هاتفي. كنت مشوشًا في البداية، إذ كان من النادر أن أصحو ليلًا من نومي على قرع رنين هاتفي. نظرت من حولي، ونظرت إلى هاتفي على الطاولة. التقطت الهاتف، وأبصرت شاشته المضيئة. وبمجرد أن قرأت الرقم الذي ظهر على الشاشة، فتحت فمي مذهولًا. كان رقم الرجل الهندي. قربت الهاتف من عيني، وتأملته، لم يكن الهاتف قد توقف عن الرنين بعد، فشعرت بالخوف. وضعت الهاتف على الطاولة، في حين كان رنينه لا يزال يدوي. التقطت الهاتف بسرعة، وضغطت على زره الخلفي، لكتم صوت الرنين، ثم أعدته إلى الطاولة. كانت شاشة الهاتف لا تزال مضيئة ما يعني أن المتصل لم يتوقف عن اتصاله منتظرًا أن أرد. وكأنها ساعات

طوال مرت عليَّ قبل أن ينقطع الاتصال. عندما انطفأت شاشة الهاتف، أخذته، وضغطت على زر تحويله إلى الحالة الصامتة، ثم وضعته على الطاولة.

لقد فعلت ذلك في الوقت المحدد، لأن شاشة الهاتف ما لبثت أن أضاءت مرة ثانية، وأظهرت رقم الرجل الهندي. خرجت من غرفتي، ومررت أمام غرفة ليلى ببابها المغلق، ثم فتحت الباب الذي يشرف على الفناء، وولجته، حيث كان ضوء ورشة أبي موقدًا. لم أكن أرغب في الذهاب إليه، فشرح وتوضيح ما قد حدث وصولًا إلى تلك المكالمة الهاتفية يتطلب الكثير من الطاقة، وفي ذلك الوقت من الليل كانت طاقتي قد نفدت. استندت إلى جدار الفناء، وطالعت صفحة السماء التي كانت تتراءى لي فوق منزل الجيران، حيث كانت النجوم أشد بريقًا. كان صوت مرور السيارات وهي تقطع الشارع يبلغ أذنيَّ، فبدا لي أن الوقت في الليل لم يتأخر بعد. التقطت بعض أنفاسي، وحاولت أن أهدأ. ثم ما لبثت أن عدت إلى الداخل، وتوجهت إلى غرفتي.

قبل كل شيء تفحصت شاشة هاتفي، كانت منطفئة. أخذت الهاتف عن الطاولة، واستلقيت على السرير. فتحت سجل المكالمات الواردة: أربع مكالمات لم يُرد عليها. كان الرجل الهندي قد اتصل أربع مرات. الرجل الهندي اتصل؟ ألم يمت؟

وقبل أن يتفتق ذهني عن إجابة هذا السؤال، اهتز الهاتف النقال في يدي، وظهر على شاشة الهاتف تنبيه يفيد بوصول رسالة نصية. فتحت الرسالة الواردة. كان في أعلى الشاشة في خانة اسم المرسل يظهر بدلًا منه رقم هاتف الرجل الهندي، ثم أسفل منه نص الرسالة التي جعلتني حتى صباح اليوم التالي غير دار بما يجب أن أرد: «أنا في أمس الحاجة إلى مساعدتك. أرجو أن تحضر غدًا في تمام الساعة الرابعة مساءً أمام محطة مترو الخامس عشر من خُرداد، سآتي إلى هناك لملاقاتك، يجب أن تأتي رجاءً، وتأكد من أني سوف أرد لك ذلك المعروف.»



الفصل التاسع عشر

أمضيت أنا ونادر نيتنا على الذهاب إلى خندق بوابة غار غداة غدٍ على أن يبيعني نادر لأيَّاز ذي العيون الأربع. في مطلع الصباح بينا كنت قد نمت توًا، انتبهت من رقادي على صوت ضربات تقرع الباب. كان الدكان لا يزال مظلمًا، وأنا الذي صحوت في الحال، كنت لبضع لحظات مشوشًا حائرًا أين أكون. أفي بيتنا؟ قصر نويان خان؟ أم... حتى تذكرت أن هذا المكان هو دكان أبي نادر لتجليد الكتب، وأني قد بت فيه نائمًا بعد أن شققت أنا ونادر حديثًا مطولًا. على هذه الحال راح كل شيء يتوارد إلى ذهني، حتى نهضت على إثر عدة ضربات تقرع الباب تارة أخرى. مضيت إلى الباب، ورفعت المزلاج الخلفي للباب، وفتحته، فتدفق الضوء في الخارج دفعة واحدة داخل الدكان، وسطع نورٌ على عيني. وقتئذٍ رأيت شابًا ناحلًا يرتدي أسمالًا رثة باهتة، ويتقبع بقبعة بيضاوية بالية. فما هممت لأقول شيئًا، حتى سبقني نادر طارحًا السلام، فألفيت صوته ليس بغريب عن مسمعي.

دققت بسحنته، فألفيته نادرًا وقد غدا وجهه مغبرًا وسخًا، وقد خلع نظارته وضيق عينيه. باغتتني صدمة رؤية نادر بهذا الشكل وتلك الحال. نظرت إليه قليلًا، وحاولت أن أتكلم، غير أنه بدرني قائلًا: «لا تخف، إنه أنا نادر»

ثم نظر عن يمينه وعن شماله، وسرعان ما دخل الدكان.
قلت: «ماذا حلَّ بثيابك؟!»

فقال: «إني الآن ألبس ثياب قَنَّاء، إذ إنَّا ذاهبان إلى تحت الأرض. لقد ذهبت باكرًا إلى الحمام العمومي، وهناك أخذت ملابس أحد حفاري القنوات، ووضعت مكانها ثيابي.»

فقلت: «وي! لماذا؟»

فضحك وقال: «انظر أولًا، أهذه الثياب على قياسي أم لا؟ ثم أخبرك السبب.»

نظرت إليه من يافوخه إلى إصبع قدمه. كان يرتدي قباء رثًا من شدة خَلَقه واتساخه، ومن كثرة رقاعه لم يعد يُعرف أي لون كان عليه في الأصل. ويرتدي بنطالًا أسود اللون قديمًا قصيرًا مثقوبًا من عند ركبتيه، ولا تكاد رجلا بنطاله المُنسَّل الخيوط ذاك تبلغ كاحليه. كان قد خلع حذاءه ذا اليُديتين(23) وانتعل بدلًا منه حذاء كيوة باليًا. قلت: «قياس بنطاله عليك قصير.»

فقال: «أعلم، هكذا أفضل.»

فسألته وإني لتعروني دهشة: «لم لبست هذه الأسمال؟»

أما نادر الذي تذكر توًا ما هو وراءه، فما لبث أن استدار،

وأغلق باب الدكان، ثم قال: «شرلوك هولمز... ألم تقل إني مثله؟»

فقلت: «حسنًا قلت، ولكن لم صرت على هذه الهيئة؟!»

فقال: «ليلة أمس لم أزل أفكر حتى الصباح، فكرت لو كان شرلوك هولمز عازمًا على الذهاب إلى أيَّاز ذي العيون الأربع ليعثر على تلك الطفلة المسروقة، فما عساه يفعل؟ وفي النهاية رسمت خطة تشبه خططه. عندما كان شرلوك هولمز يعتزم الذهاب في طلب أحد أولاء المجرمين والجناة واللصوص، كان يتنكر في هيئة أخرى؛ فيرتدي لباس رجل فقير مملق، لئلا يتعرفه أحد. وإني فعلت الشيء ذاته، ارتديت لباس رجل فقير لئلا يتعرفني أحد.»

عاودت النظر إليه من رأسه حتى أخمص قدمه، فألفيته وقد فعل كل ما يمكن فعله ليبدو كفقير بئيس. سألته: «الآن علام تنوي بهذه الهيئة؟!»

فضحك نادر وقال: «أصحبك معي إلى أيَّاز، وأبيعكه!»

تنكدت حالي من كلامه هذا، وداخل قلبي همًا. فسألته بصوت متهدج: «وهل تريد أن تبيعني أيَّاز؟!»

فأجاب نادر ضاحكًا: «مثلًا... مثلًا أريد أن أبيعك أيَّاز.»

ثم سحب إلى الأمام المقعد الذي جلست عليه ليلة أمس، وجلس هو عليه، وقال: «لقد قال تيمور إن إيَّاز هذا خطره عظيم، ومن العسير الدخول إلى أرض مُلكه. ففكرت في أن أتنكر في هذا الشكل، وأصير أخاك مثلًا. ثم نذهب معًا إلى خندق بوابة غار نبحث عن أيّاز، وكأن في هذا الجَوّ مثلًا استشرت مسغبة في قريتنا، ومات أبونا، ولم نعد نملك خبز كفافنا، فجئت بك لأبيعكه. وبهذه الطريقة نلج أرض أيَّاز، ونسعى لنعرف أين توجد عالية، فنخلصها من بين أيديهم.»

فقلت: «ولمَّا أن نذهب إلى أيَّاز كيف نتبين أن عالية هناك؟ وكيف ننقذها؟»

فقال نادر: «إن نور المصباح الآن لا يمتد إلى ما هو أبعد من وطأة بساط أرض أيَّاز. لمَّا نبلغ ذلك المكان، ننظر أمامنا ونقرر ما سنفعل. والآن برأيك هل هذه الخطة موفقة؟ وهل ستأتي معي إلى أيَّاز؟»

حتى وإن كانت خطة نادر لم تنل قبولي، فما كنت لأرفض له طلبًا. كيف وقد فقد كل ماله الليلة الفائتة بسببي أنا. واليوم كاد يخاطر بحياته مرة أخرى من أجلي. قلت له: «أمر كهذا محفوف بالخطر، من الممكن أن يصيبك مكروه.»

برم نادر شفتيه، وأطبقهما، وما لبث أن قال: «تلك الليلة عندما كنت أعقم الموتى خارج بوابة المدينة، أخبرني أناس

كثر أن هذا الأمر محفوف بالخطر، وقالوا أني قد ألتقط عدوى الوباء، لكن في نهاية الأمر كان على أحدنا أن ينهض بذلك الأمر. والآن أيضًا ثمة فتاة قد وقعت في شراك رجال من الممكن أن يؤذوها وينزلوا بها عظيم البلاء، وعلى هذا فيجب على أحدنا أن ينجيها منهم.»

تنهدت وقلت: «لقد سخرك الله لي، إذ وضعك في طريقي.»

فضحك نادر وقال: «ما دام الأمر كذلك، فيجدر بي أن أعينك... الآن قل لي هل ستأتي لنقفو أثر أيَّاز ذي العيون الأربع؟»

فقلت: «نعم، سوف آتي.»

فقال نادر: «هذا رائع.»

ثم تفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي، وقال: «لقد مضت عليك ليلتين، حتى غدوت بما فيه الكفاية أشعث أغبر، لكن يجب...»

ومد يده، ثم اجتذب جيب قميصي الأبيض، وانتزعه. وبجانب جيب قميصي، كان قد قُدَّ جزء من قميصي هو الآخر. ووقعت المسكوكة التي كانت قد تبقت من نفقة طريقي. فقال نادر: «خذ مسكوكتك، وضعها في ثنية بنطالك.»

انحنيت، والتقطت عملة القِران، وثنيت كمر بنطالي، ثم دسست العملة بين جنباته. فقال نادر: «لنذهب الآن قبل أن يأتي أبي.»

خرجنا من الدكان. لفحت وجهينا الريح الباردة نسبيًا التي كانت تعبق بالخريف. ولما كان الشارع أزحم مما كان عليه أمس. قال نادر: «إن أعداد المصابين بالكوليرا لفي انخفاض، هكذا تجاسر الناس وأقبلوا على الخروج إلى الشارع.»

وإلى الأمام قليلًا وقفنا في الشارع، لنستقل عربة. لكن مع لباس نادر وهيئته تلك، لم يكن ليسمح لنا أحد بالركوب. حتى أمسك نادر نقوده، وأخذ يلوح بيده إلى سائقي العربات المارة، فسمح أحدهم أخيرًا لنا بالركوب. وفي الطريق أفاض نادر في حديثه عن خطته، وأخبرني أن عليّ أن أصدق أنه أخي بالفعل، وأظهر كم أنا وجل قلق. وقال من الأفضل أن نذكر أننا نحن الاثنين قد قدمنا من قرية سلطان آباد ساوة، ثم أخذ يستفسر مني عن قريتنا، حتى إذا ما سألوه في أي وقت عن شيء أجابهم بلا تردد. مضت بنا العربة، حتى توقفت قبل بضع خطوات من الخندق. وعندئذٍ دفع نادر الأجرة إلى سائق العربة، وزاده مسكوكتين أخريين، ثم طلب منه أن يمكث في مكانه منتظرًا ريثما نعود. فما كان من سائق العربة الذي كانت الصدمة قد باغتته من بذخ نادر

وإسرافه مع مثل هذا اللباس والمنظر، إلا أن حملق إلينا، ثم أومأ رأسه بالموافقة، وقال إنه سوف ينتظر. ارتجلنا من العربة، ومشينا، حتى غدونا أمام الخندق. لم يكن الخندق عميقًا إلى الحد الذي كان يتردد عنه. بدا أن القوم لم يزالوا يتنقلون فيه جيئة وذهابًا، حتى تداعت أسواره، وبرزت أرضيته مرتفعة. بلغ عمقه ما يزهو من ستة أقدام تحت سطح الأرض، بحيث يتمكن هؤلاء الذين كانوا لا يرغبون لأي سبب كان المرور عبر بوابة المدينة والخروج، من الفوت فيه والخروج من فتحة ناحيته الأخرى، هذا ما لم يقعوا في قبضة مأموري النواقل.

كانت ثمة رائحة كريهة تضوع من أعلى الخندق، مزيج من رائحة القمامة والنفايات، وروث الماشية والإبل، ورائحة الحطب. قال نادر متقززًا: «لقد حللنا بمكان لا يضاهيه مكان آخر قذارة ومرضًا، رحماك يا إلهي!»

ثم أضاف قائلًا: «حذار أن تلمس شيئًا.»

هبطنا منحدر الخندق. مررنا ببعض أكوام من القمامة كان قد تجمع عليها الذباب وتضوع بنتن الرائحة، حتى وصلنا إلى أرضية الخندق. وهنالك قال نادر: «الآن أي اتجاه علينا أن نسلك؟»

ثم تلفت حوله قليلًا، وأشار إلى جهة بعينها، وقال: «وكأنما

تلك الجهة مأهولة.»

نظرت في الاتجاه الذي كان قد أشار إليه، فأبصرت بضعة أكواخ متداعية وظُلل مهترئة هذي من قطع الأخشاب، وتلك من خرق الأقمشة. فقال نادر: «لنذهب.»

سلكنا طريقنا، ومرة واحدة خرج علينا من وراء إحدى كومات التراب بضعة أطفال بين كبير وصغير وطويل وقصير. كانوا نحو خمسة أو ستة أطفال، وما سوى اثنين منهما يستر كل منهما عُرى الجزء العلوي من بدنه قميص ممزق بالٍ، كان الآخرون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم. كانت بشراتهم متنوعة بين بشرة سمراء وذات حُمرة، وكانوا أملسي الرؤوس كافة. هتف نادر: «يا أولاد، أين أيّاز؟ في أي ناحية يوجد مسكن أيّاز؟»

وقف الأطفال لوهلة، وحدجونا بنظراتهم، لم يقل أي منهم شيئًا. فكرر نادر سؤاله: «أيّاز... أيّاز ذو العيون الأربع أين هو؟»

بالطريقة نفسها راح الأطفال ينظرون إلينا مجددًا. كانت قاماتهم قصيرة وطويلة، بيد أنهم جميعًا في الحجم ذاته، إذ كانوا دقيقي الأبدان رقيقي العظام. وقد تجمع على وجوههم الداكنة الملطخة بالوسخ أفواج من الذباب الذي التزق ببشَرَاتِ وجوههم، وبلغ عيونهم وأفواههم.

قال الذي كان أكبرهم سنًا: «لنذهب.»

هتفوا معًا، ثم ابتعدوا عنا. تأمل نادر الأطفال وإنهم ينأون عن نواظرنا، ثم قال: «إما أنهم لا يفقهون لنا قولًا، أو يخشون قول شيء.»

ثم ربت على كتفي من الخلف، وقال: «لنذهب.»

اتخذنا بضع خطوات قدامًا، فأطل علينا من تحت شبه ظُلَّة لصيقة بإحدى كومات التراب رجل مُكْتنز العضل، ونظر إلينا واضعًا يديه على جانبي شاله المعقود حول خصره. فور رؤيته، قال نادر: «أيَّاز... نريد الذهاب إلى أيَّاز ذي العيون الأربع... أين هو؟»

ودون أي رد منه، رمقنا بعينيه الصغيرتين الضيقتين اللتين كانتا تغوران في وجهه الملفوح الداكن، لكن نادر عاوده الكلام: «أيَّاز... أريد أن أقابله، أتدري أين هو؟»

عاود الرجل الصمت، وبدلًا من أن يجيب، ولىَّ ظهره إلينا، وعاد من حيثما خرج تحت الظُلَّة. عندما رأى نادر أن الرجل لا يجيبه، ربت كالعادة على كتفي، ثم قال: «لنذهب.»

استأنفنا السير، ويا لسكون الخندق حينذاك! فما كان يُسمع فيه من حِس ولا حَسيس، اللهم إلا غوغاء قادمة

من بعيد ومن خارج الخندق. وما سرنا بضع خطوات، حتى أطلق أحدهم على حين غرة منا صفرة. كانت صفرة طويلة وداوية انتصب لها شعر جسدينا في فضاء الخندق المسكون بالصمت. استدرنا، ونظرنا وراءنا. لم يكن من أحد هناك، وقفنا مترددين نقدم أرجلنا ونؤخرها، حتى قال نادر: «لنذهب.»

حولنا وجهتنا، وواصلنا المسير، مررنا بأكداس التراب والقمامة، والأكواخ المتداعية، والمظلات البالية المتسخة. هذه المرة انبعث صوت الصفرة من أمامنا. كانت تمامًا مثل التي صكت آذننا من قبل، وبعدها بزمن قصير دوت صفرة أخرى، غير أن صوتها كان أخفت من سابقتها ما دل على أنها أُطلقت من مكان بعيد منا. كان ثمة خطب ما، فأخذ نادر يدي وقال: «كن حذرًا!»

لم أكن أدري أي شيء عليّ أن أحذر منه وأتوقاه. ربما لم يكن نادر نفسه يعرف أيضًا، إذ لم يزد على كلامه شيئًا، وكل ما فعله هو أن توانى في مشيته. وما كدنا نتقدم بضع خطوات أخر، حتى فجأة شخص أمامنا من خلف ساتر ترابي رجلان رفيعان فرِعان يرتدي كل منهما قباءً قديمًا مغبرًا. وما هي إلا أن ظهر على جانب الخندق الآخر رجل آخر كان يطابقهما شكلًا وهيئة إلى حد كبير. زلفوا ثلاثتهم إلينا،

فتلبثنا في مكاننا، في حين ظلوا يقتربون منا ويحملقون إلينا. نظرت إلى الأوشحة التي كانوا تمنطقوا بها حول خصورهم، كان اثنان منهما يعلقان سيفًا، والآخر يقبض على سكين كبير متقدمًا. راحوا يقتربون، حتى توقفوا على مبعدة خطوتين منا أو ثلاث خطوات. قال الرجل الأصلع الذي كان لا يضع قبعة على رأسه، وشاربه الكث يغطي شفتيه: «إلى أين؟!»

انقطعت أنفاسي، وقد تعرقت يدي في يد نادر، فقد هالتني رؤية أجساد الرجال الضخمة وسيوفهم وسكاكينهم. أفلت نادر يدي، والتفت نحو الرجال قائلًا: «أريد مقابلة أيَّاز، أيَّاز ذي العيون الأربع.»

فجأة استشاط الرجل الأصلع غضبًا، فقال: «اقطع لسانك البذيء، والفظ ما نطقت، وقل أيَّاز خان!»

ارتبك نادر، فقال: «أجل، أيَّاز... أيَّاز خان، لقد ذكر أحدهم خارج الخندق اسمه هكذا، فكذلك أخذناه عنه.»

امتدت يد الرجل إلى مقبض سيفه المدسوس في مِنطقه، ثم قال: «وما شأنك أنت أيها البائس المائت بأيَّاز خان؟ ماذا تريد منه؟ أخبرني!»

فقال نادر: «جئناه من مكان بعيد، أريد أن أخبره بنفسي.»

فقال الرجل: «لا مسوغ لذلك، أتظنها زريبة تعمها الفوضى، حتى يطلب كل قروي وضيع رؤية أيَّاز خان؟ إما أن تقول ماذا تريد منه، أو تغرب عن وجهي لئلا أجز عنقك.»

فقال نادر: «أريد... لقد قدمت من مكان بعيد، ضاقت بي الحال، وسمعت أن أيَّاز خان يشتري الأطفال، فجلبت معي هذا لأبيعه له.»

ثم ضرب على كتفي من الخلف، فشزرني الرجل، ثم ما لبث أن قال لنادر: «أي حمار ذاك الذي قال لك أن أيَّاز خان يبتاع الأطفال، اغرب، اغرب من هنا، انصرف، لئلا أسفك دمك.»

ثم سحب مقبض سيفه، واستله حتى نصفه من غمده. حينئذٍ قال نادر: «لدي رسالة أيضًا لأيَّاز خان.»

لقد ذهلتُ لسماع مثل هذا الكلام من نادر، إذ لم يذكر لي أي شيء بخصوص تلك الرسالة. رفعت رأسي ورنوت إليه. كانت دماء وجهه قد غيضت، وثُرى في صحيفة وجهه قطرات العرق وهي تنز من مسام بشرته بغزارة.

عندئذٍ أشهر الرجل سيفه، وسأله: «رسالة؟! أي رسالة؟! ممن؟!»

قال نادر: «من... من تيمور نبَّاش القبور. فلقد ذهبت إليه أولًا لأبيع هذا الصبي، لكنه لم يشتره، وأشار عليَّ بالذهاب

إلى أيَّاز خان، وحملني رسالة أبلغها إليه.»

أعاد الرجل سيفه داخل غمده، ثم قال: «مذ ساعة رأيتك، وأنا أردد في نفسي كيف يجرؤ هذا القروي على المجيء هنا، ولا تقولن لي أن تيمور نباش القبور بذاته لا يجرؤ على أن يأتي هنا، فأرسلك أنت لتبلغ رسالته. على كلٍ ماذا قال؟ أبلغني فحوى رسالته؟»

فقال نادر: «يجب أن أبلغها أيَّاز خان بنفسي.»

فقال الأصلع بصبر نافد: «لا داعي، أخبرني برسالتك، وأنا سأبلغ أيَّاز خان.»

فقال نادر: «ولكن!»

فقال الرجل: «ليس من لكن. إما أن تقول، أو تخسأ عني.»

فأطرق نادر قليلًا، ثم ما لبث أن قال: «حسنًا، سأقول، أبلغ تيمور نباش القبور سلامه إلى أيَّاز خان، وقال إن تيمور وعصابته يريدون أن يعملوا تحت كنف أيَّاز خان. وقال إنه ما عاد يجني شيئًا من نبش القبور وسرقة أكفان الموتى، واختلاس المال، قال أيضًا إنه مذ أسبوع لم يدخل جوف رجاله شيئًا خلا العشب.»

وما كاد نادر يصل بمنطوقه إلى هنا، حتى رفع الأصلع

رأسه، وانطلقت قهقهاته تدوي، مثلما ضحك الرجلان الآخران. وجعل أحدهما وسط ضحكه يثغو مقلدًا ثغاء الغنم بضع مرات. ثم ما لبثت أن تعالت ضحكات ثلاثتهم، حتى احمرت وجوههم من فرط الضحك. عندما سكنوا، قال الأصلع: «انقضوا إذن على العشب انقضاضًا ليعتلفوه؟! عندما طلب منهم أيَّاز خان أن يأتوه صاغرين ليقبلوا يده، ويعملوا تحت إمرته، ما كان من نبَّاش القبور ذاك إلا أن ثني عطفه وتعزز. أتراه الآن يوسط القرويين ليأتي ويعمل تحت كنف أيَّاز خان؟!»

ثم خاطب نادرًا بنبرة أشد حزمًا: «حسنًا هيا انصرف، ها قد أخبرتني برسالتك، وسوف أبلغها بنفسي أيَّاز خان.»

فقال نادر: «لكن تيمور طلب مني أن أبلغها أيَّاز خان بنفسي.»

فقطب الرجل جبينه، وقال: «أولما تضاحكنا، تطاولت وقاحة؟! اخسأ وإلا حززت عنقك وأهدلت رأسك إلى صدرك.»

أما نادر الذي بدا أنه قد آيس من استرضاء الرجل، أمسك يدي، وقال: «لنذهب.»

وقتئذٍ قال الرجل الذي كان افتعل صوت الخروف لصاحبه

الأصلع: «لربما يريد أيّاز خان ذو العيون الأربع أن يعرف من جاء بالرسالة. وتستجلب سخطه، إن أنت أثنيته عن الذهاب إليه.»

صك الرجل الأصلع بظهر يده اليمنى صدر الرجل، وقال: «كم أنت بليد الفهم! أعلم ذلك، إنما أردت أن أبلوه لأرى أيذهب أم لا.»

ثم التفت إلى نادر، وقال: «تعال، بلغه رسالتك في الحال، واغرب من هنا.»

نشق نادر نفسًا عميقًا، ثم قال: «أمرك... إن أمكن هذا الصبي أيضًا...»

فقاطعه الرجل، وقال: «لا يهم، فلن يدفع أيّاز خان في الصبي نقيرًا.»

فقال نادر: «كما تشاء.»

ثم أشار الرجل إلى الأمام، وقال: «اذهبا.»

مشيت أنا ونادر، وسار الرجل الأصلع والرجلان الآخران معنا جنبًا إلى جنب. تقدمنا في الخندق، ومررنا ببعض السواتر الترابية، حتى أمرنا أحد الرجال أن ننعطف وأشار بيده جهة اليمين. انعطفنا يمينًا، ومن هناك صرنا إلى منحدر،

ثم مررنا بجدار طيني مرتفع إلى حد ما وممتد طولًا. وما هي إلا أن تزحزحنا في أثناء السير، فسرت بجانب الجدار حتى كادت كتفي تلتصق به. آنئذٍ مرَّ بسمعي صوت طفل، مرَّ بسمعي من جوف الجدار صوت بكاء طفل. لم يكن طفلًا واحدًا، بل طفلين أو ربما ثلاثة أطفال. أرهفت أذني، إذ كان قد بهتني سماع صوت طفل من داخل الجدار. حاولت أن أتوقف عن السير، وأسترق السمع، غير أن الرجل الذي كان خلفي، نكز كتفي، وقال: «هيا، لا تتلكأ.»

اجتزنا الجدار الطيني، وبلغنا بضعة سلالم تفضي إلى أسفل، ثم انعطفنا يسارًا، وهناك رأينا بابًا صغيرًا كان يقف عليه ليحرسه رجل جسيم قد دس في شال خصره سيفًا كبيرًا. لما وصلنا إلى الباب، قال الرجل الأصلع الذي كان معنا لذاك الذي يحرس الباب: «هذان جاءا برسالة إلى أيّاز خان.»

فقال الحارس: «أية رسالة؟ من أين؟»

فقال الأصلع: «هذا ليس من شانك، عليّ أن أخبر أيّاز خان نفسه.»

رفع الحارس رأسه، وقال: «أيّاز خان يستريح في غرفته، وأمر أن لا يدخل عليه أحد.»

تظاهر الرجل الأصلع بأنه سوف يرجع، ثم قال: «كما يحلو

لك، إذما سألني فيما بعد لمَ لم تخبرني في الحال، أقل إنك لم تسمح.»

فما كان من الحارس إلا أن قال: «انتظرا!»

وولج الغرفة، ثم ما لبث أن خرج، وقال: «ادخل.»

قال الرجل الأصلع لنا: «ابقيا حيث أنتما، يجب أن أذهب أولًا لكي أخبره.»

ثم ولج الغرفة، حيث لم يتراء لنا داخلها شيء سوى الظلام. ارتعدت فرائصي لرؤية السكاكين والسيوف التي كان يمسكها رجال أيَّاز. وراحت فكرة أني سأرى أيَّاز ذا العيون الأربع بعد لحظات تجيش في نفسي عظيم القلق. لم يمتد بنا الوقت، حتى خرج الأصلع، وطلب منا الدخول. أمسك نادر يدي، واجتزنا عتبة الباب يدًا بيد، وولجنا إلى فضاء شبه مظلم، ثم استدبرنا الرجل. لم يكد يمضي وقت، حتى ألفت عيوننا الضوء الخافت. كانت مساحة الغرفة تبلغ عشرة أقدام في اثني عشر قدمًا على وجه التقريب، وإنها لتزخر بلفائف السجاد والبسط المصنوعة من جلد الغنم التي كانت مكومة بعضها على بعض. وكانت ثمة جِرار كبيرة وصغيرة، إضافة إلى سِلال الخوص في الجانب الآخر من الغرفة. ويوجد كرسي كبير مكسو بالجلد، قوائمه ذهبية اللون لامعة لصيق بالجدار المواجه للباب مباشرة. فلوت الغرقة بعيني أفتش

عن أيَّاز. في البداية لم ألمح شيئًا، أما بعد ذلك أبصرت في زاوية الغرفة رجلًا ضخمًا بنيانه، كان يولي ظهره لنا واقفًا قبالة الجدار. كان قباؤه الأسود لا يُبصر منه إلا طيفه في إضاءة الغرفة الخافتة، وكان شعره الطويل الشائب الذي ينسدر من خلف رأسه إلى غاية قبائه يضفي إليه مهابة مخيفة. وقفت أنا ونادر خلف باب الغرفة. ألقى نادر السلام خافضًا صوته، كما ألقيت السلام، لكن أحدًا لم يرد. كان أيَّاز لا يزال يقف موليًا وجهه إلى الجدار ملتزم الصمت، فلم يقل شيئًا. وما هي إلا أن كرر نادر السلام: «سلام عليك!»

ثم قال أيَّاز وإنه يواجه الجدار: «لَسمع أيَّاز أشد حدة من سمع الكلب، فلا حاجة لأن تكرر على مسمعي كلامك، قل لي ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

بدا على نادر التوتر، وفي حين كان يحاول أن يتكلف محاكاة لهجة القرويين، قال: «أخبرك عن صدق، لقد أدرك الوباء قريتنا وهجم القحط، أما أبي رحمه الله فانقطع إلى دار البقاء، لذا أمرتني الوالدة أن أحضر أخي هذا ليكون في خدمتك علك تشتريه و...»

استدار أيَّاز فُجاءة نحونا، وحينئذٍ رأيت هيئته من الأمام. كان عريض المنكبين، وأزرار قبائه الأسود مفتوحة، وبطنه المنتفخ تحت قميصه الأبيض يبرز وسط قبائه. كان وجهه

ضخمًا عريضًا، وذا شعر طويل ينسدل على كلتا كتفيه، وعيناه متواريتين خلف غشاوتين سوداوين. كانت رؤيته تثير في النفس فزعًا وأي فزع تثير. عندما استدار، رفع من صوته، فقال: «ألم تقل إنهما قد جاءا برسالة؟»

كان يوجه كلامه إلى الرجل الأصلع الذي كان قد وقف خلفنا، فما كان من الأصلع إلا أن وجه صفعة محكمة إلى قفا نادر، وقال: «لا تثرثر، ولا تهدر وقت أيّاز خان، أبلغه رسالتك، وأغرب من هنا.»

فقال نادر: «حسنًا، حسنًا الآن سأقول.»

عبس أيّاز، ولزم موضعه دون أن ينبس بكلمة. قال نادر: «تيمور... أبلغ تيمور سلامه إليه، وقال إنه يود هو ورجاله أن ينضوا تحت كنفه، وقال إنه لم يعد يتحصل من سرقة أكفان الموتى على شيء، وقال إنه ورجاله يتضورون جوعًا، إذ إنهم مذ أسبوع لم يدخل جوفهم من طعام ما خلا عُشبًا.»

ثم التزم صمتًا، حتي إني كنت أسمع فحيح أنفاسه عن جانبي. كان أيّاز لا يزال واقفًا في مكانه بلا حراك، وكأنما كان يفكر في شيء. وبعد وقت قصير، قال: «أوَقال تيمور؟!»

فأجابه نادر: «أجل، تيمور نباش القبور»

عاود أيّاز الصمت، ثم ما لبث أن قال: «أقبِل.»

ظل نادر ساكنًا في مكانه، ولم ينبس بكلمة. فعاود أيَّاز قوله: «أأطرش أنت؟ أقبِل.»

سأله نادر: «أنا؟»

فقال أيَّاز: «أجل، أنت. ليبق ذلك الصبي في مكانه، أما أنت فتعال.»

تقدم نادر بضع خطوات، حتى اقترب من أيَّاز. وإذ بأيَّاز يقول: «قف!»

فتوقف نادر، عند ذاك قال أيَّاز: «تراجع بضع خطوات إلى الوراء.»

أما نادر الذي لم يكن مدركًا لأي شيء، فما لبث أن قال: «هل أتراجع؟!»

فقال أيَّاز: «نعم، تراجع.»

تراجع نادر نحو ثلاث خطوات إلى الوراء، فقال أيَّاز تارة ثانية: «قف!»

مرة أخرى وقف نادر في مكانه. فقال أيَّاز: «أقبل.»

هذي المرة ومن دون أن يفتح نادر فاه عاود تقدم الخطوات القليلات التي سبق أن تراجعها. لكن أيَّاز بغتة قال:

«قف!»

فتوقف نادر.

فقال أيَّاز: «اقعد على الأرض.»

جثا نادر على ركبتيه في صمت، ثم قعد على الأرض. مكث أيَّاز قليلًا، ثم رفع رأسه، والتفت إلى الرجل الأصلع قائلًا: «سل سيفك، واقطع أذني هذا.»

تقدم الرجل الأصلع في الحال، وأشهر سيفه من غمده، واتجه إلى نادر. وضع إحدى يديه أسفل ذقن نادر، ورفع رأسه، وألصقه بركبته. ثم إنه رفع يده قليلًا عن ذقن نادر، وأمسك بإحدى أذنيه، وباليد الأخرى وضع نصل سيفه الحاد على أذنه. تأوه نادر ألمًا، وصرخ قائلًا: «رحماك، رحماك، لم تريد قطع أذني؟!»

وأنا الذي كنت قد جزعت اندفعت متقدمًا، كيما أغيث نادرًا. لكن الرجل صكني على وجهي بظهر يده التي كانت ممسكة بالسيف صكة طرحتني أرضًا. وبينما كنت طريح الأرض، صرخت قائلًا: «دعه بربك!»

التفت أيَّاز صوب نادر: «قل لي من تكون؟ ولم تريد أن تحيط بأمر أيَّاز؟»

فقال نادر: «ماذا تعني بأني أريد أن أحيط بأمرك؟»

فقال أيَّاز: «تشبهت بالقرويين، وجئت برسالة تبلغها، لترى ما سيفعله أيَّاز. إن كنت ترجو ألا أقطع أذنيك، فقل لي من أنت ولمَ تريد أن تحيط بأمري؟»

فقال نادر: «أنا لا أكذب، لقد جئت من قرية سلطان آباد، حتى...»

فارت فورة أيَّاز، وقال: «لئن كذبت مرة ثانية على أيَّاز، لآمرنه بقطع رأسك بدلًا من أذنيك.»

ثم دنا منه قاب خطوتين، وقال: «يا لك من رُجيل! لقد وضعت قبعة قروية على رأسك، لكنك نسيت أن حاسة شم أيَّاز تفوق ما للكلاب. دهنت شعرك بزيت الخروع، وتقول لا أملك من الدنيا كفافي، وقد جئت لأبيعك الصبي. أما سمعت أن أيَّاز أحد سمعًا من كلب حتى إنه ليسمع خشخشة المسكوكات الأربعة أو الخمسة التي وضعتها في جيبك؟! أخبرني الآن ما الذي جاء بك إلى هنا، ومن أرسلك؟»

قال نادر ورأسه بين يدي الرجل الأصلع: «سأقول، سأقول. قل له أن يتركني لأقول.»

فالتفت أيَّاز إلى الرجل الأصلع، فقال: «دعه، أما إن كذب مرة أخرى، فافصل رأسه عن جسده تمامًا بإشارة مني.»

فقال الرجل: «سمعًا وطاعة أيَّاز خان.»

وترك رأس نادر، ثم ركله ركلة بين كتفيه، وطرحه أرضًا. نهض نادر لاهثًا وأشار إليَّ قائلًا: «صدقًا... صدقًا لقد سُرقت شقيقة صاحب هذا الصبي. وكنا نبحث عنها، فقيل لنا أن نأتي إلى هنا، هكذا أردنا أن نرى أهذي الطفلة لديكم هنا أم لا.»

سأله أيَّاز: «ومن أشار عليك بالمجيء إلى هنا؟»

فقال نادر: «تيمور، تيمور نباش القبور.»

سأله أيَّاز: «هل أرسلك برسالة منه؟»

فقال نادر: «لا، لم يقل شيئًا، لقد اختلقت هذا الأمر، لكي يدعوني آتي إليك.»

تلبث أيَّاز قليلًا، ثم قال: «حقًا... خلت نفسك كَيِّسًا فطنًا، أما كان الأحرى بك أن تسأل أولًا من هو أيَّاز، لتعي أن أرحام النسوة عجزت على أن تلد خِبًا بقادر على أن يضله.»

ثم التفت إلى حامل السيف، فقال: «ألق هذا الصبي مع الصبية الآخرين، وألق ذاك الآخر في مكان ما، ريثما أخبرك بعد ذلك ما نحن به فاعلون.»

فقال الأصلع: «أمرك أيَّاز خان.»

فقال الرجل: «سمعًا وطاعة أيَّاز خان.»

وترك رأس نادر، ثم ركله ركلة بين كتفيه، وطرحه أرضًا. نهض نادر لاهثًا وأشار إليَّ قائلًا: «صدقًا... صدقًا لقد سُرقت شقيقة صاحب هذا الصبي. وكنا نبحث عنها، فقيل لنا أن نأتي إلى هنا، هكذا أردنا أن نرى أهذي الطفلة لديكم هنا أم لا.»

سأله أيَّاز: «ومن أشار عليك بالمجيء إلى هنا؟»

فقال نادر: «تيمور، تيمور نباش القبور.»

سأله أيَّاز: «هل أرسلك برسالة منه؟»

فقال نادر: «لا، لم يقل شيئًا، لقد اختلقت هذا الأمر، لكي يدعوني آتي إليك.»

تلبث أيَّاز قليلًا، ثم قال: «حقًا... خلت نفسك كَيِّسًا فطنًا، أما كان الأحرى بك أن تسأل أولًا من هو أيَّاز، لتعي أن أرحام النسوة عجزت على أن تلد خِبًّا بقادر على أن يضله.»

ثم التفت إلى حامل السيف، فقال: «ألق هذا الصبي مع الصبية الآخرين، وألق ذاك الآخر في مكان ما، ريثما أخبرك بعد ذلك ما نحن به فاعلون.»

فقال الأصلع: «أمرك أيَّاز خان.»

ثم أمسك بتلابيب نادر، ورفعه عن الأرض. في الوقت ذاته، التفت نادر إليّ قائلًا: «اهرب يا رضا، لا تبق هنا، اهرب.»

كنت قد تيبست في مكاني، وما عدت أبصر وجه أمري. عاود نادر قوله: «اهرب، هيا.»

ولحظة ما فكرت في كل شيء، وارتأيت أنه لا مندوحة لي عن هذا الفرار. هكذا نهضت دفعة واحدة، وقبل أن يردعني رادع، وثبتُ خارج الباب، فجاوزت الحارس الواقف على الباب، كما جاوزت الرجلين اللذين كانا يقفان على مسافة أبعد منه ويتحدثان. اهتلكت في سيري بكل قوة أوتيت، وانكدرت أعدو وأعدو، حتى صعدت الدرج، ووصلت إلى المنحدر بجانب الجدار الطيني، فاعتليته أيضًا، ومنه صرت إلى داخل الخندق. سمعت أصوات رجال يجرون من خلفي، إذ راحوا يرددون: «امسكوه، امسكوه!»

كنت على يقين من أني يجب أن أخرج من تلكم المهلكة بأي طريقة كانت، وشعرت أني متى فررت، فسيكون بوسعي أن أنقذ نادرًا أيضًا. ارتقيت تلال التراب كقُطيطة، وألقيت بنفسي إلى حافة الخندق، وبعد عدة وثبات خرجت من الخندق. ركضت صوب المدينة، لا أربع على شيء. ولما أضحى الشارع مزدحمًا من حولي تدرُّجًا، وقفت خلف جدار، والتقطت أنفاسي اللاهثة، ثم سقت قدماي إلى موضع نزولنا

من العربة، حيثما كان سائقها لا يزال في مكانه مرتقبًا. تقدمت من العربة، وسرعان ما ركبت، وقلت: «لنتحرك الآن.»

الفصل العشرون

ما كنت لأجازف بأن يمتد طريقي بالعربة إلى مسافة أطول، إذ كنت أخشى أن تزداد أجرة الطريق وربما لا أملك ما يكفي من النقود. وحسبي تلك المسافة التي قد قطعناها في الطريق لتبث فيَّ يقينًا أن لا أحد يتعقبني. هكذا نزلت في شارع كبير هادئ لم أكن أعرف اسمه. وهناك سألت كيف السبيل إلى ساحة سبزه ميدان، المكان الوحيد الذي كنت أعرفه. ولطالما أردت أن أكون في مكان أخبره جيدًا، إذ كنت على هذا النحو أهون على نفسي الخوف. استفسرت عن مكان ساحة سبزه ميدان، ومضيت أسأل هنا وهناك، حتى وصلت إليها. لم تعد ساحة سبزه ميدان عامرة بالحركة والنشاط كسابق عهدها، إذ كان وباء الكوليرا قد ألزم الكثيرين البيوت. كان ثمة تجار وباعة متنقلون قد بسطوا بضائعهم في محيط الميدان، وقليل من الناس يذرعون بينهم الطريق غدوةً ورواحًا. كانت محطة ترام الخيل شاغرة، إذ كانت العربات قد غادرت، ولم يعد أي منها بعد. مشيت وتظللت بسقف البازار المقوس. كان البازار من داخله أشد برودة، حيث يجد المرء لريح الخريف هناك نسيمًا عليلًا. كان بين كل محل وآخر واحد مغلق، والحمالون والشيالون أقل عددًا مما مضى.

سلكت سبيلي إلى آخر البازار، حيث رحت أسير في الطريق هائمًا هكذا على غير هدى. لم أدر إلى أين أذهب، أو ماذا أنوي أن أفعل. كنت ذهبت لإنقاذ شقيقة رسول، فإذ بي أوقع نادرًا هو الآخر في براثن أيَّاز وعصابته والآن لا أعرف ما عساني أفعل. فكرت في أن أمضي قُدمًا لأذهب إلى دكان تجليد أبي نادر، وأخبره أن ولده قد وقع أسيرًا في أيديهم. ثم قلت لنفسي كيف لشيخ لا تنهض به همته لينظف دكانه مع أنفاس الصباح أن يخلص ولده من قبضة عصابة أيَّاز. أقصى ما بوسعه هو أن يسارع إلى النظمية التي كان نادر نفسه ذكر أن الفوضى تعمها هذي الأيام ولن يفعل أحد شيئًا. كان لزامًا عليَّ أن أتصرف بنفسي، لكن لم تكن بيدي حيلة لفعل شيء بمفردي. مررت بدكاكين البازار المفتوحة، وجعلت أنظر داخلها. كنت أفتش بعيني عن دكان منصور للبُلُو، المحل الذي كنت رأيت فيه أنا وشكور الميرزا حسن خان للمرة الأولى. تمنيت أن يظهر الميرزا مرة أخرى، ويبسط لي يد المساعدة. ولما وصلت إلى دكان منصور لبيع البُلو، ألفيته مغلقًا. كان مصراعي الباب قد ضما إلى بعضهما، وأُقفلا. لا ريب أنه لم يعد هنالك من أرز ولحم، ليطبخهما منصور، ويقدمهما للزبائن. تقدمت أكثر، ولم أكد أبلغ تيمجة حاجب الدولة، حتى رأيت سوادًا عظيمًا من الناس كانوا قد تجمهروا أمام دكان ما، ولا ينفكون يتصاخبون. لما دنوت أكثر، تنسمت

مشامي رائحة الخبز، ففطنت أنه مخبز والخلق يتزاحمون أمامه بمثل هذا لشراء الخبز.

كانوا جميعًا يتدافعون، وكل يبذل جهده ليتجاوز الآخرين متقدمًا ويشتري خبزًا. أما هؤلاء الذين حالفهم الحظ وتمكنوا من شراء الخبز، فإنهم حتى يفلتوا بأنفسهم من وسط تلك الغوغاء، صارت أنصبتهم من الخبز إلى قطع. وأحيانًا ما كانت تتلقف كل قطعة من خبزهم نهبًا أيدي هؤلاء الذين خاب مسعاهم في شرائه. كان السواد الأعظم من الناس الذين كانوا قد تزاحموا أمام الدكان من الرجال. ومن دونهم وقفت بعض النسوة متلحفات بالشوادر السوداء والنُقُب البيضاء على وجوههن يرتجين أن يجدن طريقة ليتقدمن، ورحن يرقبن الرجال.

مكثت في مكاني، وسرَّحت في المخبز نظري، فنقَّت عصافير بطني، وجَدَّ بي الجوع. دسست يدي في حُزَّة بنطالي لأتناول مسكوكة القِران التي أملك، بيد أنها لم تكن موجودة. يقينًا أنها سقطت من بنطالي في خضم هروبي. فكرت أنه لو كانت بحوزتي نقود، لم يكن ليبين أسوف أحصل على الخبز في وسط هذا الزحام أم لا، فكيف بي الآن وأنا خالي الوفاض. فكرت أني مع وضع كهذا حيث لا مكان لي فأبيت، ولا مال فأنفق فلا عجب أني سأموت فريسة

جوعي ملقى في جانب مزوي من الشارع.

وبينما كنت منغمسًا في تلكم الخواطر، وأعبي صدري برائحة الخبز الطازج، إذ بي أسمع نداء امرأة من خلفي تقول: «أي بُني... أي بُني!»

استدرت، ونظرت. كانت امرأة شابة تقف دوني وقد أسفرت نقابها الأبيض عن وجهها، وجعلت تنظر إليَّ. وبجانبها يقف بُنيّ صغير ذو أربع سنين يلوذ بطرف شادر أمه ويجذبه. هممت أن أجيبها لولا أن بادرتني المرأة قائلة: «أتريد أن تشتري خبزًا؟»

اضطربت حياءً، فقلت: «خبزًا... خبزًا... لا.»

بنبرة خافتة قالت: «إذن لماذا تقف هنا؟»

أجبتها ولا أزال مضطربًا: «أنا... كنت أشاهد فحسب.»

فقالت المرأة: «أين تسكن؟ أَوَجائع أنت؟!»

فقلت: «لا أسكن هنا، لست من طهران... ما أنا بجائع.»

فقالت المرأة: «إذن أنت غريب، من أين أنت؟»

فقلت: «من سلطان آباد ساوة.»

دست المرأة يدها في شادرها، ثم ما لبثت أن أخرجتها

ممسكة برغيف خبز. مدت بالرغيف إليَّ، وقالت: «هيا... هيا كُله، هوِّن عليك.»

فما كان مني إلا أن قلت: «لا أريد.»

وطفق الصبي الصغير الذي كان بجانب المرأة يشب على أطراف أصابع قدميه، ويحاول أن يتناول رغيف الخبز من يدها. لكن أمه رفعته عنه، وقالت: «خذه، خذه وكُله.»

تأملت محياها الأبيض الصبوح، وحاجبيها المزجزجين(24) المقرونين وكانا قد زادا جبينها الوضاء حُسنًا. أومأتُ إلى بُنيها، فقلت: «وأنت؟ ألا تريد أنت الآخر؟»

فقالت المرأة: «عندي ما يكفيني ويكفي أولادي. اليوم نَطعَم، وغدًا رزقنا على الله.»

ثم أشارت بالرغيف مرة بعد، وقالت: «خذه من يدي قبل أن يبرد.»

فمددت يدي إليها برفق، وتناولت الرغيف، وقلت: «سلمت يداك، جزاكِ الله خيرًا.»

أسدلت المرأة النقاب على وجهها، وقالت: «هنيئًا مريئًا.»

ثم أدارت لي ظهرها، ومضت في سبيلها. أتبعتها بصري، حتى نأت في أعطاف الطريق، ثم هممت بالمسير. كنت

أمشي ممسكًا برغيف الخبز، بيد أني ما استطعت النظر إليه. طويت الطريق راجلاً حتى إذ بلغت مكانًا خلوًا من الكظيظ، جلست إلى جدار هناك. أمسكت رغيف الخبز بكلتا يديَّ، وقلبت فيه البصر. كان رغيفًا كبيرًا يكفي ليَمرَأني. اقتطعت منه قُطيعة، ولقمتها. ولما كان هذا اذَّكرت آخر مرة ذقت في طهران للمحبة مذاقة، وساعتئذٍ طاف في ذاكرتي أني لست غريبًا في أرض طهران إلى هذا الحد.

الفصل الحادي والعشرون

كنت قد وقفت أمام محطة مترو الخامس عشر من خُرداد، وكدت أنظر إلى ساعتي للمرة العاشرة، وقتما جاءت الصبية بائعة بطاقات الحظ، وراحت تزعجني وتلح بشدة لأشتري منها بطاقة حظ. كان جسدها الضئيل يوحي بأنها وإن كانت ترتاد المدرسة فمن المحتمل أن تكون في الصف الثاني الابتدائي أو ربما الأول. كانت ترتدي الزي المدرسي وتضع على رأسها المِقْنعة(25). كانت ملابسها ملطخة ومتسخة جدًا حتى إني لم أستوعب كيف يسمحون بدخولها المدرسة بمثل هذا المظهر وتلك الهيئة. بينما كنت سارحًا، جاءت هي. كنت أفكر في مكالمات ليلة أمس، وتلك الرسالة النصية على الهاتف التي بسببها لم يغمض لي جفن حتى الصباح. فمن ناحية كنت أخشى مقابلة الرجل الذي اتصل بي من هذا الرقم، والتحدث إليه. ومن ناحية أخرى كانت ثمة أسئلة في ذهني لا أستطيع تفويت فرصة الإجابة عنها.

كنت أعلم أني وإن لم أُجب عنها، وإن لم أذهب في الموعد، وأقابل الرجل الهندي هو بذاته أو أي شخص آخر كان اتصل من رقمه، فلن تنتهي القصة. كنت أعلم أنه سوف يتصل بي مجددًا، كما كنت أعلم أنه بافتراض أن أحدًا لم يتصل، فإن هذا السؤال عما حدث سيظل يزعجني حتى آخر يوم في

عمري. فإني وإن تمكنت من مواجهة الضغط الناجم عن مكالمات الرجل الهندي المتكررة، ما كنت لأحتمل ضغط أسئلتي الشخصية. لم أزل أفكر حتى الصباح، وحينها اتخذت قراري. ذهبت صباحًا إلى المدرسة، وعندما انتهى اليوم الدراسي، تحركت إلى محطة المترو. وبعد أن بدلت القطار مرتين، وصلت إلى محطة الخامس عشر من خُرداد. كانت الساعة الثالثة والنصف حينما وصلت، إذ كنت قد وصلت قبل موعدي بنحو نصف ساعة. كان محيط المحطة كعادته يضج بالزحام. وفي حين كانت عربات الخيل تنقل الناس من أمام المحطة إلى مدخل البازار، والعربات اليدوية والدراجات النارية هنا وهناك تحمل على متنها الحمولات الثقيلة لتنقلها من مكان إلى مكان، سرت باتجاه البازار، ومشيت نحو ثلاثمائة متر، ثم نظرت إلى الساعة. بعد ذلك عدت صوب المحطة. نظرت إلى ساعتي مرة أخرى، وعدت صوب البازار. وفي آخر الأمر عندما أمست الساعة الرابعة إلا خمس دقائق وقفت أمام المحطة منتظرًا الشخص الذي يُفترض أن يأتي.

صارت الرابعة وأربع دقائق تقريبًا ولم يأت أحدًا. فكرت في قرارة نفسي أنه إذا لم يأت أحدًا، فسيكون كل شيء قد انتهى على خير. فعدم مجيء الرجل الذي كنت على موعد معه، لم يكن له معنى سوى أنه قد انصرف عن الأمر، وأنه يضع حدًا للأمر كله، ويحرر ذهني من عبء التفكير أيضًا،

ويجعلني استنتج أن كل شيء قد انتهى، ولم يعد هنالك شيء آخر أشغل ذهني بالتفكير فيه. قلت لنفسي سأظل منتظرًا حتى الساعة الرابعة والربع، فإن لم يأت أحد، أذهب إلى داخل المحطة، وأعد إلى منزلي. بينما كنت على تلك الحال، اجتذبت الفتاة الصغيرة بائعة بطاقات الحظ حزام حقيبة ظهري، وقالت: «اشتر بطاقة حظ يا عم.»

رمقتها، وقلت: «لا أريد، شكرًا.»

وحاولت أن أعيد ترتيب أفكاري كما كانت، غير أنها عاودت اجتذاب حزام حقيبتي، وقالت: «بالله يا عم اشتر، هيا اشتر.»

أزعجني إصرارها، فما كان مني إلا أن قلت: «قلت إني لا أريد، هيا اذهبي من هنا.»

رغم ذلك لم تستسلم الفتاة، فقالت: «اشتر، البطاقة الواحدة بخمسمائة تومان، إنها برخص التراب.»

وضعت مستاءً يدي في جيبي وأخرجت خمسمائة تومان، ودفعتها إلى الفتاة، أخذت الفتاة المال، وأخرجت مُغلفًا صغيرًا من بين المغلفات التي تمسكها، وناولتني إياه، ثم قالت: «افتحه، لتقرأ الطالع.»

طويت المغلف، وقلت وإني أضعه في جيبي: «حسنًا،

سوف أقرأه فيما بعد.»

فقالت الفتاة الصغيرة: «الآن هيا لنذهب معًا.»

سألتها بدهشة: «إلي أين نذهب؟»

فقالت الفتاة الصغيرة: «إلى المكان الذي ينتظرك فيه الرجل، لقد طلب مني أن أقول لك أن تأتي معي لأصحبك إليه.»

فسألتها مذهولًا: «من؟ من ينتظرني؟!»

فأجابت الفتاة: «قال لي أن أخبرك أنه هو الذي كان اتصل ليلة أمس.»

ودون أن تنتظر إجابة مني، سارت باتجاه البازار. لم أكن أتوقع مثل هذا الشيء مطلقًا. وقفت في مكاني، ورحت أنظر إلى الفتاة التي أخذت تبتعد. خطت الفتاة نحو اثنتي عشرة خطوة، ثم وكأنما فطنت أني لم أبرح مكاني، استدارت، والتفتت إليّ قائلة: «أقبل، هيا.»

تقدمت نحو الفتاة الصغيرة التي كانت واقفة وتنظر إليّ. وما كدت أصل إليها، حتى استدارت مرة أخرى، وتابعت سيرها. كانت تريد أن تتقدمني وأعقبها، فطفقت تخطو بقدميها الصغيرتين خطوات مسرعة. مررنا بعدة أزقة، حتى

وصلنا إلى زقاق ضيق يقطعه جدول ماء. انثنت الفتاة نحو الزقاق، وأتبعتها. تقدمنا على هذا النحو، حتى وصلنا إلى زقاق آخر، فوقفت الفتاة أمام باب معدني صغير. أعلى واجهة الباب كان قد خُط على لافتة حديدية بالبنط العريض عبارة: فلافل لبنانية. أشارت الفتاة إلى المكان وقالت: «هذا هو المكان، لندخل.»

وأشارت يمينًا، نحو السلالم التي كانت تفضي إلى أسفل. عندما نظرت وأنا بالأعلى، رأيت مكانًا تبلغ مساحته تقريبًا ستة أمتار، وُضعت فيه طاولتان صغيرتان. كان قد جلس إلى إحدى الطاولات رجل يرتدي سترة جلدية يدير ظهره لنا، ولا يمكن رؤية وجهه. حينها كانت الفتاة الصغيرة هبطت الدرج، وأخذت تنظر إليّ من هناك قائلة: «هيا تعال.»

ثم فتحت الباب، ودخلت هي. أتبعتها في النزول. أثارت رائحة الفلافل النافذة أنفي. كان أمامنا مباشرة مُبَرِّد صغير وقف خلفه رجل في الأربعين أو الخمسين من عمره شائب الشعر. وقتما رآني، قال: «تفضل.»

نزلت السلالم بحذر. أما الفتاة الصغيرة فذهبت إلى الرجل الذي كان قد جلس إلى الطاولة، وقالت: «ها قد جئت به.»

وفي الوقت ذاته قال الرجل الواقف خلف المبرد مرة ثانية: «تفضل...»

لم يستدر الرجل، وبينما كان لا يزال يدير ظهره لي، أدخل يده في جيب سترته وأخرج عملة ورقة مطوية، وأعطاها الفتاة الصغيرة. أخذت الفتاة العملة الورقية، ونظرت إليَّ قائلة: «تعال إنه هنا.»

تقدمت. وقبل أن أصل إلى الطاولة، تجاوزتني الفتاة، وسرعان ما صعدت السلالم. لما وصلت إلى الرجل ونظرت إليه، راح يدير وجهه في الوقت ذاته، ثم نظر إليَّ. لقد عرفته، إنه هو الرجل نفسه ذو الرداء الأسود الذي سبق أن رأيته في قصر نُويان خان من كانت تصرفاته المريبة تخيفني، ويدعوه الرجل الهندي أكبر. صدمت لرؤيته، فهممت تلقائيًا لألف وأعود أدراجي. غير أنه أمسك بمعصمي، وقال: «لا تذهب، انتظر.»

قلت وقد بدا عليَّ الارتباك: «ليس لي شأن بك...»

فاجتذبني من يدي، ليوقفني، وقال: «بالعكس، إنك في المكان الصحيح. لقد طلبت منك المجيء، لأتحدث إليك.»

ثم سحب يدي جهة الكرسي المقابل له، وقال: «اجلس، لا تخف. فقط أريد أن أتحدث إليك.»

تحركت بهدوء، وجلست إلى الطاولة. نظرت إليه، كان وجهه الحصاني أشعث غير حليق، و شعره ينسدل إلى

جبهته، وياقة قميصه الأسود كانت انثنت، ومن جانب واحد اندثرت تحت ياقة سترته الجلدية السوداء المدورة. وعندما يتحدث، كانت رائحة السجائر تفوح من فمه. ابتلعت ريقي، وانتظرته حتى يتكلم في الموضوع. أخذ الرجل يتأمل وجهي قليلًا، ثم راح يحدق إلى قطعة ورقية مطوية كان يقلبها بين أصابعه، وقال: «لقد طلب منك القائد شيئًا.»

- «القائد؟!»

- «الرجل الهندي الذي رأيته ذلك اليوم، كنت على موعد معه، لكن الأجل لم يمهله ليأخذه منك.»

فقلت مرتبكًا: «ماذا؟... وما كان من المفترض أن أعطيه؟»

فقال بصبر نافد: «أنت تعلم لا تتوهنا عن موضوع حديثنا. تلك المخطوطات، حفنة الورق التي ربما لا تعنيك في شيء.»

قلت: «صديقك، ذاك الرجل الهندي لماذا توفي فجأة هكذا؟»

نظر إليّ، وابتسم ابتسامة صفراء، ثم قال: «ربما لأنك لم تساعده.»

شعرت بالتوتر، فقلت: «أنا... عندما سقط على الأرض، لم أكن قد وصلت إليه بعد. ولما أن وصلت إليه، كان بقربه رجل

قال أنه قد مات.»

تأمل الورقة المطوية في يده، وقال: «ربما لو كنت أبكرت في الذهاب إليه، وأجبت مطلبه، لكان على قيد الحياة الآن.»

قلت بامتعاض: «هذه أمور لا علاقة لي بها، لقد رأيت الرجل الهندي قبل يومين فقط.»

وهممت أن أقوم. حينئذٍ قبض الرجل ذو الرداء الأسود على معصمي مرة ثانية، واجتذبني، وأجبرني على الجلوس: «انظر، إني أعلم أنك تخشاني، لكن ما شأني بك. إني لا أعرف الكثير عمَّا يحدث، إنما أرسلني إليك شخص آخر، لأحضرك. شخص كان القائد نفسه يعمل لديه. شخص إن عاونته، يدفع لك من المال ما تطلب.»

- «ليس لدي ما أعطيه لأحد، دعني أذهب.»

وهممت لأقوم مرة أخرى، بيد أن الرجل ذا الرداء الأسود أبقاني، وقال:

- «تعال معي، لنذهب إليه، واستمع بنفسك إلى حديثه. ثم إن أردت أن تقول لا، فقل.»

- «ولمَ لم يأت بنفسه من البداية؟!»

- «لا يستطيع المجيء، هنالك مشكلة لديه ستفهمها فيما

بعد. لقد طلب مني أن أتحدث إليك أولًا، إن وافقت فذاك خير. وإن لم توافق، أصحبك إليه حينها ليتحدث إليك بنفسه.»

فقلت بنبرة حازمة: «لن أعطي مذكرات رضا قُلي لأحد.»

أفلت يدي، وقال: «لا أعرف عمن تتحدث، تعال أولًا، وتحدث إلى سيدي، ثم قرر.»

نظرت إلى حافة الطاولة، وفكرت. عندما رفعت رأسي، صوب الرجل ذي الرداء الأسود نظره إلى عيني، وسألني: «هل ستأتي معي لنذهب إليه؟»

سألته: «الآن أين ذاك الذي تتحدث عنه؟»

الفصل الثاني والعشرون

كان قد انقضى المغيب عندما وصلت إلى مقهى قنبر وقد مشيت كل الطريق راجلًا أتساءل هنا وهناك عن عنوان المكان، حتى إني لم أعد أطيق السير. كان باطنا قدمي قد التهبا، وركبتاي تؤلماني. لكني في مقابل ذلك وصلت في الوقت المناسب، حيث كانت عربة ألماس أمام المقهى، والحصان الأبيض الهرم المربوط إليها واقفًا يحرك قوائمه للخلف تارة وللأمام أخرى. أما المقهى فكان مظلمًا من الداخل، ولا يتبدى للمرء ما خلف زجاج الباب. تقدمت، حتى صرت على مبعدة خطوتين من المقهى. آنذاك فُتح الباب وخرج منه رجل أسود اللون. لكنه كان مختلفًا عن كل السود الذين رأيتهم من قبل، إذ كان جميع من رأيتهم قبلًا ذوي أجسام تضاهي بنية ألماس. كانوا رقيقي الأبدان وقصراء برؤوس صغيرة سوداء ذات شعر قصير أجعد كأنها مُغطاة بصوفة لبادية. أما هذا فكان يختلف، كان أطول قامة من ألماس والسود الآخرين. وكان شعره الأبيض الملتوي الطويل يُظهر رأسه ضخيمًا، ولحيته البيضاء المهذبة تحيط بوجهه. وخلافًا لما يرتديه السود الآخرون من قمصان بيضاء طويلة، كان يرتدي قميصًا أسود يصل إلى كاحليه، وقد أضفى هذا عليه هيبة مهيبة. ذهلت لرؤية رجل أسود شائب الشعر،

فوقفت في مكاني أحملق إليه.

لكنه ما انتبه لي مطلقًا، وكأنما كان خياله يأخذه بعيدًا، غير مدرك لما يدور حوله. أقبل متئدًا، ثم تعداني، ومضى. عندما مضى، فتحت باب المقهى، ودخلته. أول ما دخلت صك وجهي الهواء الحار الرطب المعبأ برائحة التبغ. ومنذ الوهلة الأولى رأيت قنبر الذي كان يقف خلف طاولة البيع في المقهى ويثبت البلورة الزجاجية للفانوس الذي قد أوقده في مكانها. ألقيت عليه التحية.

فقال: «ملْحبًا، لا شيء لدينا لتأكله.»

فقلت: «لا أريد شيئًا، أريد ألماس.»

هذه المرة توسم قنبر وجهي، وقال: «ألست ذاك الصبي الذي كان قد جاء إلى هنا قبل بضعة أشهُل بصحبة ألماس؟»

فقلت: «أجل، إنه أنا.»

انحلت عقد وجه قنبر، فضحك وقال: «هل أنت بخيل؟!»

كم سرني ترحيبه واطمئنانه على حالي، فقلت: «أنا بخير.»

فقال قنبر: « ولماذا إذن عدت إلى طهلان مَلْة أخلى؟!»

فقلت: «جئت لأدرس، أدرس عند الميرزا حسن خان.»

دفع قنبر نحو الجدار إناء زجاجي تبرز منه زهرة بيضاء اللون قد وُضع على طاولة البيع، وقاطعني قائلًا: «لقد ذهب ألماس إلى الحمام ينثُل على وجهه غَلْفة ماء، اذهب، واجلس، فسوف يأتي الآن.»

سرت إلى منتهى المقهى. وخلافًا للمرة الفائتة كانت معظم الدكك شاغرة، ولم يكن يجلس هناك غير رجلين أسودين على إحدى الدكك، ويدخنان الشيشة. أقبل قنبر من ورائي، وعلق الفانوس الذي كان قد أسرجه فوقهما على مسمار مدقوق في الجدار. ثم أشار إلى إحدى الدكك الأخرى، وقال: «اجلس ليثما يأتي.»

وقبل أن أجلس، أطل ألماس. كان يجهده حمل دلو ماء كبيرة يتقدم بها من آخر المقهى. لما رآني عرفني فورًا، وقال: «لضا أهذا أنت؟!»

فقلت متهللًا: «أجل، إنه أنا.»

وضع دلو الماء على الأرض، والتقط أنفاسه. كانت قطرات العرق تنطف من رأسه الصغير ووجهه الأسود الناحل. مد يديه الباديتين عظامهما نحوي، وأمسك بكلتا ذراعيّ، وقال: «كيف حالك؟ بخيل؟»

فقلت: «بخير.»

فقال: «الشكل لله، اجلس هنا، ليثما أقدم الماء لذاك الحيوان، وأجيء.»

ثم حمل الدلو الكبيرة مرة ثانية، ومضى بها. جلست على الدكة، وتأملته وهو يتحرك. مرَّ أمام طاولة قنبر، وبصعوبة فتح باب المقهى، وحمل دلو الماء الثقيلة خارجًا. ثم قلبت النظر في الدكك الشاغرة، واللوحة المعلقة على الجدار، صورة حضرة الإمام عليّ وولديه الإمام الحسن، والإمام الحسين، وذاك الغلام الأسود الواقف بجانبهم. تذكرت الليلة التي كنت قد قضيتها في ذلك المكان، الليلة التي خلصني فيها ألماس من شرك رجال نُويان خان، وجاء بي إلى المقهى. الليلة التي نمت فيها آمنًا بعد ردح من المخافة، ثم في صباح اليوم التالي لتلك الليلة بعون من ألماس قصدت بيت الميرزا حسن خان. تذكرت الدرويش وما سمعته منه عن ألماس وموت زوجه عنبر. تذكرت الزهور التي كانت عنبر ترسلها بعد وفاتها إلى ألماس. وبينا كنت سارحًا في هذا، أقبل ألماس عائدًا، وجلس إلى جواري، وقال: «متى قدمت إلى طهلان؟»

فقلت: «قبل ليلتين.»

فقال: «وأين كنت في تينك الليلتين؟»

لم أدر بم أجيبه. أطرقت هنيهة، ثم قلت: «سأروي لك القصة مُسهبة.»

تفحصني ألماس قليلًا، وبمجرد أن رأى قميصي الممزق وبنطالي المترب، قال: «هل أنت بخيلْ؟»

فقلت: «نعم، بخير، أنا بخير الآن بعدما رأيتك.»

سألني ألماس: «هلاّ تأكل شيئًا؟ ألست جائعًا؟»

فقلت: «لست جائعًا. لقد تناولت شيئًا في الظهيرة.»

فقال ألماس: «ماذا أكلت؟ أين؟ فلا شيء الآن في هذه المدينة في الأيدي متوافل.»

فقلت: «أكلت خبزًا. لقد وهبتني امرأة خبزًا.»

أرجع ألماس نفسه إلى الوراء. ضم رجليه إلى الدكة، وتربع، ثم قال: «إن كنت تشعل بالجوع، فلدي قليل من الخبز، صحيح أنه يابس، ولكننا عادة ما نفته في الماء، ونأكله. لدي قليل من الكشك المجفف أيضًا.»

فقلت: «شكرًا لك، لست بجائع.»

فقال ألماس: «ولكن ألست مليضًا؟!»

وقبل أن أجيبه، وضع كفه على جبهتي ليجس حرارتي، ثم أردف: «كلا، حمدًا لله، عليك بالحِلْص لئلا تُبلى بالوباء، الحمد لله أن صال الجو أبلَد، فبذلك يقل انتشال الوباء، ولعله

ينتهي في غضون يومين، لكن الحِلْص الحِلْص.»

فقلت: «حسنًا.»

ثم وضع ألماس كلتا كفيه على الدكة، وأناخ رأسه إلى الوراء، وقال: «حسنًا، الآن أخبلني أين كنت في تينك الليلتين؟ ولم تخلقت ثيابك هكذا وتمزقت؟»

رفعت رأسي، فبلعت رضابي، فأخذت نفسًا عميقًا، واستقر أمري فورئذٍ على أن أخبره بكل شيء. قلت كل شيء، كل شيء حتى قصة شكور وعودته من عالم الموتى. فكرت في سريرتي أن أكثر شخص يمكنه أن يصدق ما مررت به أنا وشكور، هو نفسه ألماس. لذا أخبرته كيف أني عندما كنت في طهران المرة الماضية عزمت أنا وشكور وإنَّا في قصر نويان خان على الفرار. وكيف غرق شكور في الحوض، وعاد. وكيف صحبني معه إلى عالم الموتى. ثم أخبرته عن أوبتي إلى طهران، ولقائي مرة ثانية بشكور ورسول في عالم الموتى. وقصة تعرفي إلى نادر، والبحث عن عالية، وتورط نادر وحبسه. على تلكم الحال كنت بادئ الأمر مرتاحًا متخففًا، أما بعدما فرغت من كلامي، فقد تربص بي الخوف. خفت ألا يصدق ألماس كلامي. خفت أن يظن أن كل ما قلته تلفيقًا من لدني، وما يدريني كم من مظنة سوء أخرى كانت لتسقطني من ناظريه. لذلك رفعت رأسي وتأملت وجه

ألماس الأسود، وعينيه الدقيقتين اللتين كان يتعذر على الواحد رؤيتهما في شبه الظلام المحيق بالمقهى. تقصيت النظر لأستقرئ من عينيه شيئًا، لكن قراءة عين ألماس لم تكن بمطلب يسير في هذا الجو المظلم. رأيت كيف انقبضت أساريره. لم تعد هيئته ذاتها التي كانت من قبل، وكأن نصبًا ألم به أو تعبًا أمضّه. وما كانت إلا بضع لحظات نظر فيها إليّ، ثم أطرق رأسه، وطفق يمرر أصابعه على نقوش الكليم المفروش على الدكة الخشبية التي نستوي عليها. على هذا النحو أمسى الخوف ملء ضلوعي، غير أني لم أرغب في التراجع. أردت أن أبصِّره أن ما أفضيت به إليه ما قلته لأحد قبل ذاك، لذا فضضت الصمت بيننا، فقلت: «تلك الليلة التي جئت فيها إلى هنا، الليلة التي أعنتني على الهروب، كان هنا درويش حدثني عنك، وحكى لي كيف جرت الأمور في قصتك أنت وزوجك...»

انتظرت أن يقول ألماس شيئًا، لكنه ظل صامتًا. وخلت أن ربما كان كلام الدرويش أيضًا غير صحيح، فازداد خوفي خوفًا. قلت: «زوجك... عنبر.»

رفع ألماس رأسه ساعتئذٍ، ونظر إليّ محدقًا. ثم أنشأت عيناه تتلألآن بمائهما، وتبرقان. وقليلًا ما بات ينظر إليّ، ثم قال لي بصوت متهدج: «عنبل؟!»

فقلت: «أجل، عنبر.»

فقال ألماس بالنبرة والصوت نفسهما: «أَوَقال الدلويش هذا؟!»

فقلت: «أجل، ذاك الدرويش الذي أمضى تلك الليلة في المقهى.»

وكأن ألماس لم يسمع كلامي، كرر: «عنبل...»

فقلت: «قال الدرويش أنك تذهب مرة كل أسبوع تقصد ينبوع عليّ، وهناك تكلمها، فتهديك زهرة، زهرة بيضاء اللون.»

فقال ألماس: «إني لا ألى عنبل لَأي العين. إنما أناجيها بقلبي، فتجيبني.»

فقلت: «ولكني رأيت شكورًا رَأي العين. لقد خرج من الحوض، وأخذني معه إلى داخله، وما أكثر ما رأيت هناك!»

ثم أمسكت عن الكلام، ولزمت الصمت. كذا فعل ألماس، وعاد يرخي عينيه إلى الأرض. ولما أن نظرت من حولي، كانت نحو ثلاث دكك اكتظت بجالسيها، إذ بدأ معشر السود يتوافدون لقضاء ليلتهم في مقهى قنبر. كان دخان الشيش قد عبأ جو المقهى. اعتقدت أنه لا ينبغي أن أبقى صامتًا،

والآن بعد أن بحت بمكنوني لا بد أن أمضي حتى النهاية. التفتُ إلى ألماس، فسألته: «هل تصدقني؟»

رمقني ألماس، وقال: «تلك الليلة قالت لي عنبلْ أنك تتحلى بالصدق.»

نشقت نفسًا عميقًا، وقلت: «الحمد لله!»

وسألته: «هل ستعينني؟»

أما ألماس فقد انشغل مرة ثانية بالعبث بالزخارف المنقوشة على الكليم. أمضني صمته، فما هممت لأتحدث، إلا وقال بهدوء: «لقد توفي الدلويش قبل زمن ليس ببعيد. ذات ليلة نام، فلم يطلع عليه صباح.»

اغتممت لسماع هذا الخبر الحزين. ومر في خاطري لين كلام الدرويش، ولطف تصرفه. فقلت: «رحمة الله عليه، كان امرأً طيبًا.»

ثم عاودت النظر إلى ألماس، وسألته: «هل ستعينني؟»

فقال ألماس: «كيف أعينك؟»

فقلت: «لا أعرف في طهران أحدًا ما سواك، أعني لأنقذ نادرًا، وإن استطعت أنقذ عالية أيضًا.»

فقال ألماس: «على النحو الذي ذكلته، فإن هؤلاء اللجال

جبابلة عتاة، لا يمكننا أن نبلي لهم بمفلدنا، لا بد أن يؤازلنا أحد.»

فقلت: «مثل من؟ فما من أحد ليعين.»

فقال ألماس: «ذاك الذي ألسلك للقيام بهذه المهمة هو نفسه من يجدل به أن يعينك.»

فقلت: «شكور؟!»

فقال: «أجل.»

فقلت: «ولكن... لا يسع شكور المجيء، فلا يمكنه أن يبتعد عن الحوض.»

فقال: «لن يأتي إلى هنا، نحن من سنذهب إليه.»

فقلت: «نذهب نحن إلى شكور؟! أهذا يعني أن نذهب إلى قصر نُويان خان؟! ونلج الحوض؟!»

فقال ألماس: «أجل، سوف نذهب إلى هناك.»

فقلت: «لقد لذت من هناك فرارًا، فهل الآن إليه أعود؟ إذا أمسكوا بي هذه المرة، يقتلوني ولا ريب.»

فقال: «يجدل بنا أن نذهب عند منتصف الليل، في الوقت الذي يخلج شكول من الحوض، ونذهب بطليقة ما بحيث لا

يلانا أحد.»

فقلت: «إنه لأمر بالغ الخطورة.»

فقال: «لا بد أن نجد سبيلًا تمكننا من دخول القصل.»

فقلت: «أنا أعرف السبيل إليه.»

الفصل الثالث والعشرون

عندما وصلنا إلى قصر نُويان خان كان الليل قد أوشك أن ينتصف. لقد جئنا بعربة ألماس ومضينا بها حتى ساحة سبزه ميدان. وهناك أودع ألماس عربته لدى أحد رفاقه كان يُدعى كافور. كان كافور ذاك هو الرجل الأسود الشائب شعره الذي رأيته من قبل أمام مقهى قنبر. كان يعيش في مخزن كبير قرب البازار. ولو أتيحت لي فرصة، لكنت استفسرت عنه ألماس واستنبأت.

لكنّا تلك الليلة كنا ملتهيين تمامًا بكيفية خلاص نادر وعالية.

طرق ألماس الباب غير مرة، فقدم كافور إلى الباب مطلًا برأسه الكبير ذي الشعر الأبيض، وتحادثا. كنت جالسًا على متن العربة، وأرقبهما معًا. وما هي إلا أن دخل كلاهما المخزن، واستغرق حديثهما فيه بعض الوقت. ثم من بعدئذٍ خرج ألماس، والتمس مني أن أنزل من العربة. نزلت ووقفت مكاني. أمسك ألماس بخطام حصان العربة، وسحبه تجاه باب المخزن الكبير. ساق العربة نحو الداخل، ثم خرج هو. أتبعه كافور نحو مدخل الباب، وتوادعا. ثم اتجه ألماس إلى حيثما كنت أقف. فما تقدم قليلًا، حتى استدار، والتفت صوب كافور الذي كان لا يزال واقفًا أمام باب المخزن، ثم

قال: «ألجو الله أن...»

فقال كافور أيضًا: «ألجو ذلك.»

ثم توجه ألماس نحوي، وقال: «لنذهب.»

مشينا قاصدين حي عود لاجان، وقصر نويان خان. كان المكان برمته مظلمًا، ويخيم عليه السكون. وأحيانًا ما كنا نلمح ظلًا لنفر أو اثنين يسيران في الأزقة. كانت تعصف ريح صر تقشعر لها الجلود، وبوسع المرء أن يسمع نباح الكلاب عن بُعد وعن قرب. كان قصر نُويان خان بأسواره السامقة، وبنيته التي تماثل المارد رابضًا في آخر الزقاق متقوسًا. بمجرد أن وصلنا أريت ألماس المجرى المائي في نهاية جدار القصر، وهمست إليه: «هذا هو، لقد خرجت من هنا.»

نظر ألماس إلى مجرى الماء، وداس أرضه برفق، ثم قال: «أأنت سددت مجلى الماء ذاك؟»

فقلت: «أجل، ببضعة أحجار لا أكثر، ما تلبث أن تتفتت بركلتين فحسب.»

فسأل ألماس: «جميع من هنا نائمون؟»

فقلت: «عادة ما يرقد الجميع في هذا الوقت.»

فقال ألماس: «لنتحلك إذن.»

ثم انحنى ليلتقط الحجارة التي كانت تسد مجرى الماء، وأعنته على ذلك أيضًا. فجمعنا معًا الحجارة، وفتحنا منفذًا صغيرًا أسفل جدار قصر نُويان خان. لم تكن فتحة كبيرة، غير أني كنت أستطيع العبور منها، أما ألماس فلا. عندما رأى ألماس أن الفتحة صغيرة وضيقة، أخذ يطرق ما حولها بيده، لكنه ما كان شيئًا رخوًا ليّنًا، حتى يمكن قلقتله ورفعه. فلما أن خاب أمله، قال: «إنها صغيلة، لا أستطيع العبول منها.»

فقلت: «أما أنا سأعبر، وأخرج من المكان نفسه.»

فقال ألماس: «وماذا عني؟!»

فقلت: «انتظرني هنا، ريثما أعود.»

فقال ألماس: «ماذا لو أُمسك بك؟»

فقلت: «لن يُمسك بي، ولكن إن لم أعد بعد مدة، فاذهب أنت....»

فسألني ألماس مغتمًا: «إلى أين أذهب؟»

فكرت قليلًا، ثم قلت: «ابق هنا، وادع لي أن أعود.»

فقال ألماس: «ولكن...»

ثم ابتلع بقية كلامه. وعندما ساد الصمت، قلت: «سأذهب الآن.»

أوقفني ألماس وقال: «عدني.»

فقلت: «بماذا؟»

شد يده على بطنه، وزوى حاجبيه، وقال: «أن توافيني بأخبال عنبل.»

نظرت إليه، كانت عيناه الضيقتان تفيضان بالتوسل. فقلت: «حسنًا.»

ثم انثنيت، وأدخلت رأسي في الفتحة. ربت ألماس على ظهري، وقال: «ليعينك الله.»

زحفت على مكث، وولجت فتحة المنفذ. في أول الأمر هجمت أسراب من الأرضات والنمل على رأسي ووجهي. نفضت يدي وأزلت ما علق بوجهي عدة مرات. حبوت على بطني حتى نهاية الفتحة، ووصلت إلى الجانب الآخر من سور القصر الممتد. وقبالة وجهي كانت جُنَينَة القصر بما تحويها من أجمات وأشجار. توعر عليّ إخراج نفسي، حتى خرجت، ونهضت. ومن بين الأشجار لمحت ظلال القصر في نهاية الفناء، حيث كان الظلام يخيم على أبوابه ونوافذه. اتكأت إلى الجدار، وجلست. كان عليّ أن أتجه إلى الحوض، لكني لم أجرؤ. لم أكن أعرف أيمكنني دخول الحوض بمفردي أم لا. كان واردًا إن ذهبت وحدي إلى هناك بدلًا من أن يفضي

بي المقام إلى عالم الموتى، أختنق في الماء، وأثوي بعالم الموتى خالدًا مخلدًا. كان غاية آمالي أن يأتيني شكور. وكنت أعرف أنه على علم بما يجري لي، ويرى كل شيء من مقامه في الأعلى، وأنه وكيفما استطاع فسوف يشرع في التحرك. مثلما حدث قبل ليلتين حينما جاء لينقذني، وينتشلني من الغرفة تحت السلم.

مشيت على رسلي، حتى اجتزت تربة الجُنينة الطرية، وأوصلت نفسي إلى أرضية الفناء المعبدة بالحجارة. والآن إذ رأيت الحوض الكبير في وسط فناء القصر ومياهه الداكنة التي تتلألأ تحت القمر المنير، ونفحة ريح الخريف الباردة التي كانت تُجري على سطحه بعض المويجات، اقتربت من الحوض بترو وإحدى عينيّ على مياه الحوض والأخرى على إيوان الطابق العلوي للقصر. ولما لم يعد يفصلني عن الحوض إلا خطوات معدودات، إذ بي أسمع صوت شيء ما يتحرك في الإيوان بالأعلى. فتقهقرت بسرعة، وركضت بهدوء على أطراف أصابعي لكي أدخل الجُنينة، وأتوارى بين أشجارها. وبينما اجتزت رصيف الفناء، وهممت لأصير إلى تربة الجُنينة، تعثرت قدمي بجرة خزفية كانت على حافة الجُنينة. فانقلبت الجرة، وسقطت على الأرض المعبدة بالحجارة، وتهشمت. وراح صوت تهشمها يدوي في سكون الليل دويًا، حتى تخايل لي أن كل من بالقصر الآن قد انتبه

من رقدته على وقع الصوت. ذهبت إلى منتهى الجُنينة، والتصقت بالجدار خلف إحدى الأشجار. تكرر على مسمعي الصوت الذي كنت سمعته من أعلى الإيوان، ثم أدركت أذناي وقع خطوات شخص على أرضية الفناء. التمست النظر من بين أشجار الفناء، حينئذٍ أبصرت نور فانوس كان يحمله أحد ما يبدو أنه قد سمع صوت انكسار الجرة، فجاء إلى الفناء، ليرى ما الخبر. تحركت فورًا واتبعت الطريق الذي جئت منه، لأهرب وأعود إلى الزقاق. عدا أن تنقلي بين الاشجار كان باعثًا لهفهفة الأغصان. وقتئذٍ هتف من كان يحمل بالفانوس قائلًا: «من هناك؟»

تعرفت صوته، كان راضيًا. تصعدت أنفاسي، وجعل قلبي يدق كأنما يُزمع للخروج من قفصي الصدري. في خفية اختبأت خلف شجرة. عاود راضي الهتاف: «من بين الأشجار؟!»

ثم إني لمحته وهو يتقدم، إذ كان يتحرك متمهلًا حذرًا تجاه الجُنينة. فلما كان ذاك تسللت على أطراف أصابعي كيما أجد عنه فكاكًا. وعلى الرغم من أني سعيت بما في استطاعتي لأتحرك دون أن يُسمع لي حِس، ارتطمت مرة أخرى بالأغصان والأجمات فتردد صوت خشخشتها عاليًا. فجأة صاح راضي قائلًا: «أأنت رضا؟!»

بلغ الخوف مني ذروته، حينما ذكر اسمي. وسرعان ما أوصلت نفسي إلى الجانب الآخر من الجُنينة، ومضيت مختبئًا وراء الدوح الذي كان يفوق الأشجار الأخريات حجمًا وطولًا. حينئذٍ قال راضي: «إنه أنت، أعرف، لقد رأيتك. إما أن تخرج أو آتيك بنفسي.»

تفرق عليّ رأيي. فمتى طالتني يد راضي مرة ثانية، أُقتل لا مرية. أو ترزأني الرزايا حتى أجد الموت أهون لي مما ألقاه. كنت قد ضللت طريقي إلى منفذ مجرى الماء، وبات ذهني أشتاتًا، وقرب قلبي أن يقفز من بين أضلعي. توجهت صوب آخر شجرة كانت قرب الجدار، واختبأت خلفها، فاستندت إلى جذعها، وجلست ضامًا إليّ ساقيّ. لكني ما لبثت أن سمعت صوت راضي من خلفي إذ قال: «الآن لئن لم تجئ بنفسك، لآتينك. ومتى أصل إليك، فالويل لك.»

امتقع وجهي، وتصاعدت أنفاسي. أحنيت رأسي إلى الوراء، وألصقتها بجذع الشجرة، ثم أغمضت جفني. كان بوسعي سماع حفيف خطى راضي على أرضية الجُنينة وهو يدنو مني. كانت يداي الملفوفتان حول ركبتي تتصببان بالعرق، وجسمي ينتفض. ولما اقتربت خطاه أكثر، صككت أسناني حِذر الخوف. وها قد أمست الخُطى التي تدنو قاب قوسين أو أدنى، ثم من بعد شعرت بوجود شخص يقف لدُنّي. ما

كنت لأجرؤ على أن أفتح عيني. إلى أن حطت على كتفي يد، ومن فرط ذعري طفرت من مكاني. وأخذت الدهشة بمجامعي لما أن وجدت شكورًا يقف عند رأسي بدلًا من راضي. فما كدت أفتح فمي، حتى بادرني شكور:«صه...»

ضغط شفتي معًا، فارتفع صوت شكور مرة أخرى من مسافة قريبة: «رأيتك يا رضا عندما تورطت.»

نظرت حولي، وهمست: «راضي... قادم إلى هنا.»

فقال شكور: «لا تخف. لقد ألهاه رسول.»

ثم وضع يده الباردة في يدي، وقال: «لنذهب سريعًا، قبل أن يأتي أحد آخر.»

مشينا إلى الحوض معًا. وغادرنا الجُنينة سريعًا، ثم اجتزنا أرضية الفناء، ومنها أدركنا الحوض. غير أني هذه المرة بلا خوف وتردد وطئت حافة الحوض، وبصحبة شكور نفذت إليه. وسرعان ما ارتفع ماء الحوض السخين، ووضعت قدمي كما كان من قبل في عالم الموتى. أمسك شكور بيدي وسحبني معه. ومن الفضاء المنير صرنا إلى الفضاء المظلم، ثم علقنا في الفضاء المنير مرة أخرى. حرر شكور يدي، ووقف إلى جواري مُعلقًا في الفضاء. ثم إني انغمست مجددًا في رؤية المشهد حولي، إذ كان كل شيء لا يزال على

حاله عجيبًا غير مألوف. كنت مذهولًا لوجودي في فضاء رحب شتان بينه وبين أي مكان. كان الشعور بأنك تستطيع رؤية العالم أجمع في آن واحد أمرًا تحار فيه الألباب. عندئذٍ بادرني شكور قائلًا: «كنت أعلم أنك ستأتي.»

فقلت: «لقد وقعت في حيص بيص يا شكور، لم أستطع إنقاذ تلك الطفلة، لقد سُرقث.»

فقال شكور: «أعلم.»

فقلت: «وما لبثث أن ورطث امرأً آخر فحُبس.»

فقال شكور: «سنجد لهذا الأمر مخرجًا، ليطمئن بالك.»

ثم انتقل من جانبي إلى جانبي الآخر، وقال: «ينبغي أن تعرف أولًا ما حدث، ينبغي أن تعرف كيف سُرقت تلك الطفلة، لتتمكن من إنقاذها فيما بعد.»

فقلت: «حسنًا قل، قل لي ماذا حدث؟»

فانتقل شكور أمامي، وقال: «هل تتذكر أني قلت لك إنهم سوف يأخذون عالية إلى قصر آخر وهو أيضًا ملك لثويان خان؟»

فقلت: «نعم.»

فقال: «وذهبت أنت، وثنيت أباها عن إرسالها إلى ذلك

القصر، أليس كذلك؟»

قلت: «بلى.»

فقال: «نُويان خان وأيَّاز متواطئان معًا، نُويان خان يسرح الأطفال الذين يجمعهم إلى أيَّاز، وهو بدوره يبعث بهم إلى بلاد الروس، حيث يُباعون هناك. يشتري أيَّاز الأطفال من نُويان خان بثمن بخس، ويبيعهم بباهظ الأثمان إلى أحد التجار الروس. يوم أخذ أبو رسول عالية وتقدم بها نحو ذلك البيت، كان نُويان خان وأيَّاز كلاهما بالبيت. كان أيَّاز قد أحضر رجاله، وجاء نُويان خان ومعه راضي أيضًا. وأخذا يقيمان الحساب معًا، وقبض نويان خان ثمن الأطفال الذين كان قد سلمهم إلى أيَّاز. ولما كانا يعلمان أن عالية ستأتي هي الأخرى، تحاسبا بشأنها أيضًا. وهذا يعني أن أيَّاز قد دفع ثمن عالية أيضًا إلى نويان خان. على أنه عندما عدل أبو عالية عن تسليم ابنته، كان على نُويان خان أن يرد المال إلى صاحبه. وذاك أمر مطلبه على نُويان خان عزيز. من هنا عقدا أمرهما على سرقة عالية، فخرج راضي واثنان من رجال أيَّاز في عربة استدبروا بها عالية، ليسرقوها قبل أن تبتعد بونًا بعيدًا.»

فقلت: «لقد رأيت راضيًا ذاك اليوم في الشارع.»

فقال شكور: «أجل، وظننت أنه يبحث عنك. لكنه إنما جاء

ليقفو أثر عالية. أما من كان يبحث عنك أنت فهو فرُّوخ الذي قد أُجبر بعد هروبك مرة أخرى على مغادرة قصر نُويان خان، ليمشط الطرقات بحثًا عنك. بيد أنه لم يكن في شارع الناصري آنذاك، بل كان يفتش عنك في ساحة سبزه ميدان.»

سألته: «أما زال يبحث عني؟»

فقال شكور: «أجل، بالطبع، عيونه تقص أثرك في كل مكان، لكنه الآن عاد إلى سابق عمله.»

فقلت: «والآن ماذا عليَّ أن أفعل؟»

فقال: «لا شيء، عليك أن تتم مهمتك، أي أن تخلص عالية وربما الأطفال الآخرين أيضًا، كذا تخرج صديقك نادرًا من هناك.»

فقلت: «كيف السبيل؟ وأين أنا من جبروت أيَّاز وعصابته.»

فقال شكور: «ثمة نفر ينتظرك بالخارج أيضًا، ألماس، لا تستهن به هو ورفاقه، فقد يتأتى منهم الكثير ليفعلوه.»

فقلت: «ولكن نفرين لمثل هذه المهمة لقليل.»

فقال شكور: «أعلم، ولكن لا مفر، فلا فرصة أمامك إلا هذه الليلة، لأنهم صبيحة غد سيحشرون الأطفال في عربتيَّ سفر، تسيران بهم إلى الحدود الروسية. ومن المحتمل أن يقتلوا

نادرًا في الغداة، لئلا يعلم بأمره أحد.»

لما سمعت كلامه، رجف قلبي فزعًا، فقلت: «يجب ألا نسمح بحدوث هذا.»

فقال شكور: «إذن أعرني أذنيك، وأنصت لما أقول.»

وما لبث أن تحول عن وجهي، ووقف بجانبي، ثم قال: «انظر هناك بالأسفل. ذاك الخندق، حيث يوجد أيَّاز وعصابته.»

نظرت أسفل مني، فرأيت الخندق. كان الليل قد أغطش، بيد أن كل شيء كان لا يزال يُرى للعين واضحًا جليًا. رأيت مسار الخندق الضيق بأكواخه وعرائشه التي كانت قد أُنشأت على جانبيه. رأيت الناس الذين كانوا قد رقدوا على الأرض في العراء. كان ثمة حطب شبه محترق يتصاعد منه الدخان، والكلاب تحوم حول أكوام القمامة وتنبش. وفي نهاية المطاف رأيت غرفة أيَّاز، الغرفة نفسها التي كانت تحت سطح الأرض. نظرت محدقًا، فألفيت أيَّاز يرقد على بساط من جلد الغنم، ولا يزال بطنه الكبير المكسو بالشعر الذي ينتأ من بين أزرار قميصه المفتوحة، يعلو وينخفض مع وقع أنفاسه. قال شكور: «أوترى؟»

فقلت متحمسًا: «نعم، نعم، أرى.»

فقال: «أوترى أيَّاز؟»

فقلت: «أجل، إنه نائم.»

فقال: «انظر، فوقه، حيث يوجد خنجران معلقان على الجدار، بجانبهما مجموعة مفاتيح، هل تراها؟»

أمعنت النظر، فرأيت مجموعة مفاتيح كبيرة وطويلة في حلقة معدنية كانت قد عُلقت على الجدار، فقلت: «أراها.»

فقال شكور: «إن مفتاح المكان الذي حُبس فيه الأطفال يوجد بينها.»

فسألته: «وأين الأطفال؟»

فقال: «في غرفة سرية يصعب العثور عليها. لكني سأريكها. انظر هناك، اِنْءِ بناظريك مسافة عن غرفة أيَّاز، أيان تراجعت لتصعد السلم، تجد جدارًا ظهره خالٍ، أوترى؟»

نظرت، كان الجدار ذاته الذي كنا قد تجاوزناه وقتما ذهبنا إلى أيَّاز، حتى أدركنا السلالم التي تفضي إلى أسفل، ووصلنا إلى غرفة أيَّاز. فقلت: «أراه.»

فقال: «الأطفال هناك.»

فقلت: «أفي الجدار؟!»

وتذكرت أنَّا في أثناء مرورنا بجانب الجدار كنا قد سمعنا صوت طفل. قال شكور: «أجل، ثمة فتحة مثقوبة أعلى الجدار، تؤدي إلى محبس الأطفال الذي يوجد تحت الأرض ببضعة سلالم ضيقة، لقد خبأ أيَّاز الأطفال هناك، حتى إذا جاء جنود النظمية في أي وقت لا يتمكنون من إيجاد أثر لهم. هذا المنفذ عليه قفل، مفتاحه لدى أيَّاز. يجب أن تتمكن من أخذ المفاتيح من فوق أيَّاز.»

فقلت: «إنه لأمر وعر المُلتمس!»

نظرت أمام غرفة أيَّاز، ورأيت الرجل الذي كان يتمنطق بسيف قصير، ويراقب المكان، فقلت: «يوجد حارس أيضًا.»

فقال شكور: «ليس هذا وحده، هناك آخران يقفان على السلم، وخلق كثيرون في أنحاء ذلك المكان نائمون.»

فسألت: «نادر، أين نادر؟»

فقال شكور: «في غرفة أخرى، لتمد عينيك إلى ما هو أبعد قليلًا من غرفة أيَّاز، ثم انظر إلى ذلك الجدار المواجه للسلم.»

اتبعت الطريق الذي كان وصفه لي شكور بصري. وفي موضع شبيه بغرفة أيَّاز، أبصرت غرفة صغيرة مظلمة تنحدر تحت سطح الأرض بقدر بضع درجات. كانت الغرفة تزدحم بقطع أخشاب، وحطام أشياء، ووسط قطع الأخشاب رأيت

نادرًا مستندًا إلى صندوق، ويضم ساقيه إلى صدره ساهيًا فكره. كانت ملابسه البالية قد صارت مِزقًا، ووجهه جريحًا مُدمى. فقلت: «رأيته، وكأنه أُبرح ضربًا.»

فقال شكور: «أجل، كانوا يريدون أن يعرفوا أيوجد كلام لم يبح به بعد أم لا.»

فقلت: «يبدو في حال سيئة.»

فقال: «ليس إلى هذا الحد، صحيح أنه قد نال ضربًا، لكنه الآن يفكر في إيجاد طريقة للهروب.»

فقلت: «علينا أولًا أن ننجيه.»

فقال شكور: «على هذا النحو سيصبح الاثنان ثلاثة، وحينئذٍ يكون إنقاذ الأطفال أيسر على ثلاثتهم وأهون.»

فسألته: «هل على الباب قفل؟»

فقال: «لا، لقد وُضع ترباس على الباب من الخارج فحسب، ولكن على الباب يقف حارسًا، انظر...»

أبصرت رجلًا بدينًا كان قد جلس على مقعد ورأسه الأصلع كان متهدلًا نحو صدره، وقد أخذته سنة من النوم.

فقلت: «كيف يمكنني أنا وألماس التصدي لهذا؟!»

فضحك شكور، وقال: «لا يغرنك جسده، فإنه لخؤوف من القطط، على أنه أسرَّ هذا الأمر ولم يدع أحدًا إلى حدّ الآن يعلم به. لكنه اليوم مذ جلس أمام غرفة نادر يحرس الباب، تحرك من مكانه ما يقرب من ثلاث مرات فور سماعه مواء قط، بل إنه في إحدى المرات ارتقى الدرج. وجلس إلى الساتر الترابي، ريثما يمضي القط، ثم ما لبث أن عاد إلى مكانه. إن كان بوسعك أن تأخذ قطًا معك، أو مثلًا تموء مواء القط، فسوف يبتعد عن تلك الغرفة، وحينئذٍ تذهب، لترفع الترباس فتفتح الباب، وتُخرج نادرًا.»

سررت لسماع كلامه الأخير، فضحكت وقلت: «مرحى! إني لماهر في تقليد مواء القطط.»

قال شكور: «يتعين عليك أن ترسم خطة لذلك. مثلًا تفتعل شيئًا ما، حتى بعدما يخرج نادر، يلاحقكما الجميع، فيمضي أحدكما ليجلب المفاتيح، و ينقذ الأطفال.»

فقلت: «سأفكر لعلي أهتدي إلى حل.»

فقال شكور: «توخ أشد الحذر، هؤلاء قوم أجلاف لا يرحمون.»

ثم أمسك يدي، وقال: «حان الآن وقت الرحيل، فقط تذكر أن عليك إنهاء مهمتك الليلة وإلا فغدًا يسبق السيف العذل.»

فقلت: «ما دمت مُطلعًا على كل شيء، ألا تخبرني هل سأوفق في تأدية المهمة؟»

فقال شكور: «ما أنا بمطلع على كثير من الأشياء، أما أحدها فهو غيب المستقبل، أي لا أعلم ما سيؤول إليه الأمر من بعد.»

فقلت: «فلتدع لي أن أوفق في أمري.»

فقال: «نحن صديقان، كذا الحال لا يزال لساني رطبًا بالدعاء لك.»

ثم ما لبث أن سلك يديه تحت منكبي، وثبتهما، ليدفعني صعدًا، ولكن قبل أن يفعل ذلك قال: «لدي رسالة لذاك الذي ينظرك بالخارج، ألماس.»

فتذكرت في الحال مبتغى ألماس. وما فتحت فمي، حتى قال شكور: «سمعت ما التمسه منك وأنتما واقفان أمام سور القصر بالخارج، مثلما سمعت عنبر ذلك. وقد حملتني رسالة كي تبلغها إياه. قالت قل له: آمِن بصدق حديث تتسمعه بقلبك،... قالت أيضًا شيئًا آخر، قالت: لا تتعجل رؤيتي، بل اسع لتحيا حياة طيبة قبل قدومك إليَّ. كيفما كنت فوق الأرض سعيدًا، أهنا في مقامي هنا بالًا، وأنعم بالرضا أيضًا.»

ثم دفعني بتمام قوته إلى أعلى.

الفصل الرابع والعشرون

خرجنا من محل الفلافل، وعدنا إلى الأزقة التي كنا جئنا منها، حتى وصلنا إلى الشارع الرئيس، ثم سرنا باتجاه شارع ناصر خسرو. قال لي الرجل ذو الرداء الأسود إن سيده هناك، في نُزل للمسافرين في شارع ناصر خسرو، ولم يذكر لي اسمه. قال: «سيخبرك باسمه إن أراد.»

ثم أضاف قائلًا: «لا تخف، إنه ليس إنسانًا سيئًا.»

كل ما ذكره عنه، فضلًا عما كنت سمعته من الرجل الهندي ذلك أن الرجل الذي سوف أقابله رجل موسر، ومستعد لأن يبذل ماله لينال مبتغاه مهما كلفه الأمر. لكن تُرى ما الذي يضطر رجل غني مثله إلى أن يقيم في نُزل للمسافرين في شارع ناصر خسرو؟

كان الرجل ذو الرداء الأسود يتقدمني بخطوة. كان يمشي متسارع الخُطى، ومهما فعلت لأسايره كتفًا بكتف، لم أتمكن. كان عليمًا بالأزقة المختصرة والدروب، بحيث لا يعترض طريقنا الزحام. وصلنا إلى شارع ناصر خسرو من بعض الشوارع الخالية نسبيًا من الزحام، ثم من بعد أن اتجهنا قليلًا إلى شمال الشارع، وصلنا أمام مدرسة دار الفنون. لم أكن قد رأيت المدرسة من قبل، لفت نظري اسمها المخطوط

على واجهة الباب المكسو بالقيشاني. وقفت قليلًا، واسترقت النظر إلى الفضاء المظلم بين درفتي بوابة المدرسة الخشبية الموارية. كم وددت أن أذهب، لأرى المدرسة من الداخل. لكني فجأة تذكرت الرجل ذا الرداء الأسود، ورأيته يقف على بعد خطوات قليلة أمامي، ويرمقني. عدلت وضع حقيبة ظهري على كتفي، وسرت نحوه بخطى مسرعًا. وقبل أن أدركه، انعطفت بضع خطوات نحو الأمام داخل أحد الأزقة التي كانت تبرز منها لافتة مكتوب عليها عبارة: مضيفة الناصري. ولما وصلنا إلى نُزل المسافرين وطئنا سجادة حمراء باهتة كانت مفروشة أمام الباب، وصرنا إلى داخل المكان. أول ما لفت نظري كان طاولة الاستقبال الخشبية الطويلة مع لوحة الاستقبال المعلقة بسلسلة معدنية فوقها، ومن خلفها خزانة خشبية شبكية ذات رفوف مكعبة بنية اللون مفرغة كان قد عُلق بداخل كل مكعب منها على حدة مفتاح غرفة من الغرف. كان يجلس خلف طاولة الاستقبال رجل سمين قصير رأسه ووجهه تقريبًا بلا شعر. لما رآنا، قام ورحب بقدومنا. سأله الرجل ذو الرداء الاسود: «أين سيادته؟»

أجابه الرجل السمين: «لقد شرفنا سيادته في المطعم الآن، وقدمت له الشاي.»

استدار الرجل ذو الرداء الاسود، ونظر إليَّ، ثم أشار إلى اليمين، وقال: «لنذهب إلى المطعم.»

ثم سار أمامي. مررنا بردهة ضيقة وطويلة تفوح منها رائحة البصل النافذة، حتى بلغنا بابًا خشبيًا. دفع الرجل ذو الرداء الأسود الباب، وفتحه، ثم التفت نحوي وقال: «ادخل.»

عبرنا معًا الباب الخشبي، ودخلنا قاعة كبيرة تعج بطاولات طعام تحيط بها كراس مخملية حمراء من كل ناحية. كان أكثر ما يلفت الانتباه في المكان بعد الطاولات ذات الكراسي الحمراء هو الصورة الكبيرة جدًا التي كانت تقريبًا تغطي الجدار الذي أمامنا بالكامل. كانت صورة لأحد شوارع طهران القديمة تزدحم بالمباني العتيقة والعربات التي تجرها الخيول والناس يتنقلون بينها. كانت قد أُبرزت أسطح جدران بعض تلك المباني بالقش وأسطح بعضها الآخر بالطوب. وكانت صور الناس والعربات مسطحة حينًا ومستوية بسطح الجدار، وحينًا آخر بارزة ولامعة تستلب النظر. وبينما كنت أتأمل الجدار، قال الرجل ذو الرداء الأسود: «إنه هناك، هناك بالآخر.»

وأشار بيده إلى نهاية القاعة، والطاولة التي كانت لصيقة بجدار اللوحة، والرجل ذي الشعر الشائب الجالس إليها: «هيا، اذهب إليه.»

ثم ما لبث أن عاد متجهًا إلي الباب الذي كنا جئنا منه. عدلت وضع حقيبة الظهر على كتفي، وسرت تجاه الطاولة التي كان الرجل جلس إليها. لم أكد أتخذ بضع خطوات نحو الأمام، حتى بدا وجه الرجل غير مألوف لي. كان أسود البشرة، وجهه أسود تمامًا. بدا رأسه أكبر مما ينبغي، كذلك قامته، إذ كان نصف جسمه العلوي مرتفعًا عن سائر الأشخاص الذين رأيتهم خلف طاولاتهم في المطعم. وكان رأسه الضخم مكسوًا بشعر متجعد ذي لون أبيض خالص، كذلك كانت يطوق وجهه لحية ببياض الشعر وخالص لونه نفسهما. كان يستند إلى كرسيه، ويرتشف الشاي من الفنجان الذي كان يمسكه. وما كدت أتقدم نحو أربع خطوات أخرى، حتى أدركت شيئًا آخر. أدركت أن ذلك الرجل الأسود لم يكن يجلس على كرسي مثل سائر الكراسي الأخرى، إذ كان ظهر كرسيه يختلف. مع ذلك فكلما دنوت منه، كانت خطواتي تتباطأ. وقفت تقريبًا على بعد خطوتين منه. حينئذٍ أدار الرجل الأسود عينيه اللتين تبدوان بيضاوين في صفحة وجهه الفاحم صوبي، وقال: «أهلًا بك، تفضل.»

ثم أشار إلى الكرسي المقابل له. سرت الخطوتين المتبقيتين، ووصلت إلى الطاولة. ألقيت عليه السلام، فرد الرجل الأسود قائلًا: «مرحبًا.»

ووضع فنجان الشاي على الطاولة، وقال مرة ثانية: «تفضل.»

سحبت الكرسي المواجه له، وخلعت حقيبتي عن ظهري، ووضعتها على كرسي، ثم جلست إلى الطاولة. وضع الرجل مرفقيه على الطاولة، وعقد أصابعه، ثم ما لبث أن قال: «سررت لرؤيتك.»

لم أدر بماذا أجيبه، تلعثمت قليلًا، ثم قلت: «ذاك الرجل قال إنك تريد أن تقابلني وتتحدث إليَّ.»

ثم إني تأملت شعره الطويل المجعد الذي كان يطوق رأسه كحلقة من الدخان.

«أجل ليلة أمس عندما وجدت رقم هاتفك مسجلًا في هاتف سانجي المسكين، قررت أن أتحدث إليك بنفسي. لكنك لم ترد على الهاتف، فتحدثت إليك في نهاية الأمر عبر رسالة الهاتف النصية. وإني ممتن لقدومك.»

فقلت: «لم يكن خطأي أنا. ذلك السيد... السيد سانجي فجأة سقط أرضًا. ولما وصلت إليه، كانت قد وافته المنية.»

وكأنما كان الرجل الأسود يحاول أن يطرد ذبابة عن وجهه، أخذ يحرك يده في الهواء، ثم قال: «أعلم، أعلم، أعلم سبب وفاة سانجي المسكين. إني ما دعوتك إلى الحضور إلى هنا

للحديث عن وفاة صديقي الحميم سانجي. إنما أريد التحدث عما سبق أن طلبه منك سانجي، عن مجموعة من النصوص المخطوطة تعني لي الكثير.»

فقلت: «ليس في متناول يدي وفرة منها. فكثير من الأوراق قد تلفت. أي أن أصلها قد تلف.»

عقد الرجل حاجبيه، وتساءل بنبرة يشوبها القلق: «تلفت؟ ماذا تعني بأن أصلها قد تلف؟»

فقلت: «حسنًا، بعض من صفحاتها الأولى ملتصق بخلفية لوحة، لكني بالطبع كنت قد دونت نسخة منها.»

«نسخة دقيقة؟»

«أجل.»

اتسعت تجاعيد الرجل قليلًا، وقال: «أرجو ألا يلحق بهذه المخطوطات مزيد من الضرر، لقد قدمت من الهند إلى هنا بحثًا عنها، ومستعد لأن أشتريها منك بأي ثمن تطلب.»

«لا أريد المال في مقابل المخطوطات، فحياة رضا قُلي ميرزا تعني لي الكثير، كل ما ألمَّ به من أحداث يعني لي الكثير، حتى إني لا أريد أن أستعيض عنها بالمال.»

فكر الرجل قليلًا ثم ما لبث أن قال: «ومن يكون رضا قُلي

هذا؟»

فقلت: «إنه صاحب تلك المخطوطات، تلك المخطوطات هي كل مذكرات رضا قُلي ميرزا، كيف قدم إلى طهران، وما وقع له من أحداث.»

أطبق الرجل الأسود جفنيه، واختفى بياض عينيه لحيظات. ثم ما لبث أن فتحهما مجددًا، وضغط براحتيه على حافة الطاولة، وتراجع نحو الخلف. عندئذٍ أدركت أن الكرسي الذي كان يجلس عليه ليس كرسيًا عاديًا، بل كان كرسيًا متحركًا، أحد تلك الكراسي التي عادة ما يجلس عليها الأشخاص ذوو الإعاقة. أطبق شفتيه قليلًا، وقال: «هل وجدت تلك المخطوطات في ذاك القصر؟»

«لا، لقد اشتراها أبي عن طريق الصدفة من أحد أسواق الحِراج حيث تُباع الأشياء القديمة، كان يريد أن يصنع لوحة يوظف فيها فن الصور المدمجة، فاشترى تلك الأوراق ليلصقها بلوحته. ثم بعد ذلك اطلعت عليها، فأصبحت شغوفًا بها.»

حدق إليّ قليلًا، ثم قال: «إني لا أريد هذه المخطوطات التي تملكها، أبحث عن شيء آخر.»

فجأة تغير سير الأمور، فقلت مستغربًا: «ولكني لا أملك

شيئًا آخر، كل ما لديّ هي كتابات رضا قُلي ميرزا تلك.»

تنهد الرجل تنهيدة طويلة، وقال: «لقد تصور سانجي المسكين أن المخطوطات التي أبحث عنها في متناول يديك، ولكن يبدو في الظاهر أن لديك شيئًا آخر... ومع ذلك ربما يمكنك أن تقدم لي العون، كي أعثر على ذلك الشيء الذي أبتغيه، لأن سانجي كان يقول أنك تعرف ذلك القصر جيدًا.»

«لقد اكتشفت كل ما أعرفه عن القصر من مخطوطات رضا قُلي ذاتها.»

«ألم تلمح في مخطوطاته شيئًا يدور حول مخطوطات أخرى، حول كُتيب أو مثلًا مجموعة من الأوراق؟»

«لا أعتقد أني لمحت شيئًا، لا يحضر في ذهني شيء من هذا الآن.»

عقد الرجل الأسود ذراعيه على صدره، ثم قال: «هذا...رضا قُلي هذا ما علاقته بذلك القصر؟»

فقلت: «كان أسيرًا هناك، لقد سُرق.. وهناك سخروه للعمل لديهم. كان يعمل نساجًا للسجاد.»

رفع الرجل الأسود رأسه، وأخذ يطالع زاوية سقف المطعم،

وكأنما يتحدث إلى نفسه، فقال: «لتحرير جماعة من الأطفال الأسرى.»

لم أفهم مغزى كلامه، فقلت: «ماذا؟!»

فقال: «لا شيء، أتصور أن ثمة صلة تربط بين الشخص الذي تتحدث عنه وبين ما أفتش عنه.»

سألته: «عم تبحث؟»

أطبق جفنيه أحدهما على الآخر مرة أخرى، وضغط شفتيه الغليظتين، ثم قال: «حسنًا، سأخبرك بكل شيء، وأرجو أن تخبرني بكل ما تعرفه أيضًا، هكذا تسير الأمور بيننا بسلالة. اتفقنا؟»

فقلت: «لقد أخبرتك بكل شيء تقريبًا.»

فقال: «ينبغي أن تساعدني في أن أتعرف إلى ذلك القصر، وإن لزم الأمر، في إيجاد الشيء الذي أبحث عنه هناك.»

«وما هو؟»

أجاب: «مخطوطات جدي، جدي الأكبر، عبد أسود اسمه كافور.»

«كافور؟»

سألني متلهفًا: «هل تعرفه؟»

فقلت: «قرأت اسمه في مذكرات رضا قُلي ميرزا.»

««ماذا قرأت؟»

«أشياء كثيرة، ولكن لم يكن ثمة كلمة واحدة من بينها عن مخطوطاته تلك. ماذا تحوي تلك المخطوطات؟»

نتيجة بحث علمي دقيق لعبد أسود كان في أصله عالمًا. إنه رجل خاطر بروحه لينقذ وفقًا لقوله جماعة من الأطفال الأسرى وقعوا في أسر عصابة من الأشرار.»

«وهل ذلك التذكار من جدك يهمك إلى هذا الحد؟»

هز الرجل الأسود رأسه يمنة ويسرة، ثم قال: «أنا أصلًا لا أبحث عن تذكار. إنها مسألة حياة أو موت. لو كانت تلك المخطوطات في يدي، لما مات سانجي. وإذا لم أحصل عليها عما قريب، ربما ألحق أنا الآخر به في القريب العاجل. لهذا فالأمر إلى هذا الحد مهم بالنسبة لي.»

لم أستطع استيعاب ما كنت أراه وأسمعه. فقلت: «هَلاَّ وضحت لي الأمر أكثر، فإني لا أفهم ما تقول.»

فقال الرجل الأسود: «أنا نفسي لا أعلم كل شيء. لقد توصلت مؤخرًا إلى المعلومات التي أطلعتك عليها، غير أن

المسألة في أصلها تعود إلى قبل نحو مائة سنة أو يزيد، عندما كان جدي كافور لا يزال حيًا.»

الفصل الخامس والعشرون

لَليل الخندق أخوف منه في نهاره، حيث كانت ظلال أكوام التراب والقمامة بما يتخللها من ضوء، وهذه الأكداس المكدسة من الأكواخ المتداعية، مع نور القمر خلف السحب الذي كان يبين تارة ثم لا يكاد يبين قد خلقت أجواءً مخيفة. وأوشك ثقل الصمت الذي لم يكن يفضه سوى حركة كلب أو قطة بين قطع الأخشاب أن يجعل القلب من فزعته هواء.

تلمست أنا وألماس الوسائل حتى ندخل الخندق خلسة وبهدوء، لكن هيهات. فقبل أن ندخل حاولت أن أتصور في مخيلتي موضع غرفة أيَّاز ومحبس نادر والأطفال على النحو الذي أبانه لي شكور، لندخل من أقرب مكان إلى غرفة أيَّاز فنحد من المسافة التي علينا أن نتحركها داخل الخندق. وكان الأمر على ما رجمته، إذ إننا لما دخلنا الخندق صرنا إلى موضع ينأى عن مهجع أيَّاز زهاء خمسين قدمًا. على أن دخولنا كان مدججًا بالأخطار، ولم يخل من ضجيج. ففي أثناء هبوطنا منحدر الخندق لا أدري تحديدًا ما الذي أتت أقدامنا عليه، وهو ما كان زلقًا، فزلت أقدامنا، وتقدمنا في سير متمعج بين رقائق الصفيح، وقطع الخشب، حتى وقفنا على بعد نحو ثلاث خطوات من رجلين كانا ناما أسفل المنحدر. حسبت لوهلة أنَّا علقنا منذ أولى خطواتنا، والآن

قد انتهى أمرنا تمامًا. عدا أننا وجدنا الرجلين في ثَقلة النوم مستسلمين. وكانت جُميرات الفحم التي كانا أشعلاها لا تزال محمرة اللون ينسل منها خيط دخان رقيق. وبينما كنا واقفين، صات منهما الذي كان منكبًا على وجهه ثم ما لبث أن تقلب. أما ذاك الآخر فكأنه لم يكن موجودًا. نظر ألماس الذي كان قد تسمر في مكانه خيفة لحيظات إلى هذين الرجلين، ولما تيقن أنهما لا يزالان نائمين، وشوشني قائلًا: «إلى أي طليق نمضي الآن؟»

أشرت تجاه غرفة أيَّاز، وقلت: «إلى الناحية الأخرى.»

ثم حاولنا معًا السير قرب جدار الخندق قدر الإمكان، لئلا يتمكن أحد من رؤيتنا في العراء والقمر من فوقنا مُتَجَلّ. مشينا بتؤدة على أطراف أصابعنا منحنيين، وفي الوقت ذاته لم ننفك نقلب النظر فيما حولنا، لنتثبت من أننا لن نتعثر بأحد في طريقنا. وقتما تقدمنا قليلًا، تناهى إلى أسماعنا حديث يُدار بين رجلين. ومع سماعنا الصوت، تلبثنا بالمكان. أرهفنا آذاننا، فإذ بمنشأ الصوت من داخل أحد الأكواخ الذي كان إلى الأمام قليلًا قرب جدار الخندق، وكان مبنيًا على تل ترابي. كان الكوخ يعلو سطح الأرض، بحيث يستطيع من بداخله أن يستشرفوا منه المكان كله بوضوح. التصقنا كلانا بجدار الخندق، وجلسنا على الأرض. أما ألماس الذي كان

يلهث، فقال: «ماذا بمقدلونا الآن أن نفعل؟»

كان من الصعب إجابة سؤاله، فالناس في الكوخ كانوا من أتباع أيّاز، وأينما لمحونا في أثناء مرورنا أمامه، نهلك لا ريب. قلت: «لنتراجع حتى نبتعد عن الكوخ، ثم نعود لنتقدم مرة ثانية.»

فقال ألماس: «إن تلاجعنا، لبما يستيقظ اللجلان النائمان، أو لبما يُقبل شخص آخل ويلانا.»

«رأيت أنه كان على حق. ثم إني فكرت في نفسي أنهما يتحدثان، وغير منتبهين لما في الخارج. فإن مررنا برفق واحدًا واحدًا، فقد لا يرانا الرجلين. قلت لألماس: «سأمر وحدي أولًا، وإن أمسكا بي، فلذ بالفرار. أما إن مررت ولم يرني أحد، فانسل أنت الآخر، وهلم إليّ.»

فقال ألماس: «الأمل خطيل للغاية!»

فقلت: «ليس منه بُد آخر.»

ثم قمت، وحاولت أن أسير برفق دون أن يشعر بي أحد ما استطعت إلى ذلك سبيلًا. وعندما ارتفع صوت الرجلين اللذين كانا يتكالمان، تقدمت رويدًا رويدًا، حتى اجتزت الكوخ وتقريبًا تقدمته. وعلى حين غرّة ضحك الرجلان بصوت عالٍ، فانبطحت على الأرض محاذرًا. ولبثت على

هذه الحال بضع لحظات، إلى أن شرعا في الحديث مرة أخرى. اطمأن قلبي أنهما ما أبصراني، فسرت حبوًا على يديَّ ورجليَّ، حتى اجتزت الكوخ وابتعدت عنه. حينئذٍ نهضت ونظرت ورائي. ولما كان لا يزال بوسعي رؤية طرف رداء ألماس الأبيض وقد جلس إلى جدار الخندق، أومأت إليه أن تعال. مكث ألماس هنية، ثم قام، وتحرك خُفية وإنه منثن. حينئذٍ بلغ قلبي حنجرتي، وابتهلت إلى الله أن يتمكن ألماس أيضًا من المرور من أمام الكوخ، حتى مرَّ دون أن يراه أحد. عندما التقينا، كان ألماس يلهث، وقطرات العرق تتلألأ على وجهه الأسود. قلت: «الحمد لله أن مرَّ الأمر بسلام.»

وأشرت إلى الأمام، وقلت: «غرفة أيَّاز أمامنا.»

كنت قد قدرت الأمر أننا سنصل أولًا إلى الجدار الطيني العريض، الذي هو في الأساس المنفذ المؤدي إلى محبس الأطفال، ثم بعد ذلك نصل إلى الدرج الذي يُفضي إلى أسفل ويوصل إلى غرفة أيَّاز. لقد رأيتهما عن قرب بعيني. لكن على النحو الذي أرانيه شكور فمتى اجتزنا غرفة أيَّاز، نصل إلى سلالم أخرى تُفضي مثل ما قبلها إلى أسفل، ثم بسطة صغيرة، ونبلغ الغرفة التي حُبس نادر فيها. وفي أثناء طريقنا ونحن في العربة كنت أنا وألماس قد أجمعنا أمرنا على أن نذهب أولًا إلى نادر. كان من المفترض أن أموء مواء القط،

لأفزع الحارس، ونُخرج نادرًا من محبسه. وكان من المفترض بعد أن يخرج نادر نفتعل بعض جلبة، لكي نتجذب انتباه الجميع إلينا، فيتعقبونا. وحينئذٍ يفر نادر وألماس، أما أنا فأختبئ في ركن ما وأتربص أن يركض الجميع متعقبين نادرًا وألماس، فأخرج عندئذٍ، وأذهب لآخذ المفاتيح من غرفة أيَّاز، وأنقذ الأطفال. كانت هذه هي الخطة التي رسمتها كاملة، بيد أني لم أكن متيقنًا تيقنًا قاطعًا من إمكانية تنفيذها. في حقيقة الأمر كان كل ما أرجوه هو أن نُخرج نادرًا، فيعيننا بدوره لنجد طريقة أفضل، كنت أرجو أن يتفتق ذهنه عن فكرة أفضل. كان هذا تمامًا هو السير ونور المصباح، ذاك النهج الذي تعلمته من نادر، بقدر ما ينير لنا المصبح الدرب نسير قُدمًا. ثم إنه لا بد أن ينير الدرب أمامنا مرة ثانية، وحينئذٍ يمكننا أن نتخذ قرارًا آخر.

ثم إني رحت أموء مواء قط مع نفسي، لأتحقق من أني لا يزال بوسعي تقليد هذا الصوت كسابق عهدي. وأخيرًا تمنيت ألا يكون حارس غرفة نادر قد بُدل بآخر يقوم مقامه، وأن يبقى ذاك عينه الذي يخاف القطط.

ولما ابتعدنا عن الكوخ برجاله، عمَّ الصمت مرة أخرى أرجاء المكان. لم يكن هناك من صوت عدا نباح بعض الكلاب التي كانت تحوم حول القمامة والتي كانت تخدش بنباحها بين

فينة وأخرى سكون الخندق. تقدمنا بترو وهدوء هكذا شيئًا فشيئًا إلى أن اقتربنا من الجدار الطيني والسلالم التي تؤدي إلى غرفة أيَّاز. وهناك سمعنا حديثًا يُدار بين نفرين، غير أنه هذه المرة نجوى. كان الصوت من قاع السلم. جلسنًا قليلًا خلف الجدار الطيني، واسترقنا السمع. خمنت أن اللذين وقفا على السلم رجلان من رجال أيَّاز، ولئلا يوقظاه راحا يتهامسان. لم يكن ثمة صوت آخر. ولم يكن بمقدور اللذين كانا واقفين في قعر السلم أن يلمحانا. لذلك قمنا بهدوء، وانحنينا واحدًا تلو الآخر سائرين أمام الدرج، وأوصلنا نفسينا إلى صف السلالم الآخر الذي يُفضي هذه المرة إلى محبس نادر.

اجتزنا السلالم، حتى أدركنا تلًا ترابيًا كبيرًا، كان تقريبًا على سطح الغرفة التي سُجن فيها نادر. وسرعان ما تراجعنا وراء هذا التل، وجلنا بأبصارنا في المكان. لم يكن هناك من أحد. كان الصمت والهدوء المطبقين على الخندق إطباقًا أخوف وأغرب من أن يسرانا. تقدم كل منا برفق وحذر، حتى وصلنا إلى مكان يتسنى لنا رؤية قاع السلم منه. وصلنا إلى حافة سقف الغرفة. نظرنا من هناك إلى أسفل، ورأينا من تحتنا مباشرة الحارس الذي كان ارتخى على مقعد بجانب باب الغرفة تحت نور فانوس معلق على الجدار، ويدلي رأسه إلى صدره وقد أخذته إغفاءة وهو في مطرحه.

سألني ألماس: «هل هو ذا؟»

أنعمت النظر في هيئة الحارس وتكوينه، بدا مثل ذاك الذي أرانيه شكور.

فقلت: «نعم، يبدو مثل ذاك الذي رأيته.»

فقال ألماس: «فالتشلع في المواء إذن، هيا.»

انبطحنا كلانا على سطح الغرفة، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وأخذت أموء فأموء: «ميو... ميو...!»

كررت هذا الأمر مرة تلو مرة، ثم نظرت إلى أسفل. كان الحارس قد رفع رأسه، وراح ينظر أمامه وكأنما لم يصبه خوف، ويكأن صوتي لم يفعل به شيئًا غير أن قطع عليه غفوته. وعلى نحو ما كان رأسي مرفوعًا، استرقت النظر إلى الحارس، ومرة أخرى جعلت أموء: «ميو... ميوا!»

لم يبد الحارس حركة لافتة. كل ما فعله هو أن رفع يده، ومرش أسفل حلقه. جعلت أشك في أن ربما يكون شكور قد التبس عليه الأمر، وأن الحارس لا يخاف القطط، أو يكون الحارس قد بُدل فانصرف الرجل الذي يخاف القطط مثلًا ليستريح، وينام. توجس قلبي خيفة أن أخفق في القيام بذي المهمة أيضًا. تبلعت ريقي، وعاودت الكرَّة: «ميو... ميوا!...»

هذه المرة هز الحارس رجليه، ورفع رأسه، وأداره إلى حيث آويت. وسرعان ما خفضت رأسي، وتسارعت حينها نبضات قلبي، وتصعدت أنفاسي. حاولت أن أحتفظ برباطة جأشي، ثم ما لبثت أن نشقت نفسًا، ورحت أموء وأموء. كررت هذا الأمر غير مرة. ثم رفعت رأسي بحذر شديد، ونظرت من حافة السطح إلى أسفل، فرأيت الحارس وقد جفل وطفق يمشي أمام الغرفة. الآن بات بوسعي أن أفطن أنه خائف، فانتشيت بالفرح. خفضت رأسي، ومجددًا جعلت أقلد مواء القط. وما هي إلا أن عاودت رفع رأسي، فلم أر هذه المرة ما خلا طرف رداء الحارس الأسود الذي كان يصعد السلم. ها قد أتت خُطتي مبتغاها، فقد صعد الحارس السلم، ومن المحتمل أنه الآن ابتعد بضع خطوات عن السلم، وسطح الغرفة. كانت الفرصة مواتية لنهم بإخراج نادر من الغرفة. جعلت أموء نحو ثلاث مرات أخريات، لأوقن من أن الحارس قد نأى عنا وعن غرفة نادر. ثم أشرت إلى ألماس، وقلت: «لننزل الآن.»

تشبثت بحافة السطح، وأدليت نفسي، ثم وثبت إلى أسفل. فعل ألماس عقبي الشيء ذاته. وسرعان ما تقدمنا نحو باب الغرفة، ورفعنا الترباس الثقيل عن الباب، وفتحناه. كان الظلام يكتنف الغرفة من الداخل، ولم يكن يتراءى لنا شيء كثير. ناديت هامسًا: «نادر...»

لم أسمع جوابًا. عاودت النداء: «نادر... نادر...»

لم يلب ندائي أحد. التفت إلى ألماس: «أين تراه يكون؟»

فقال ألماس: «لبما أُغشي عليه.»

دخلنا الغرفة. وما لاح للعين في ظلام الغرفة من لائح إلا ظلال الصناديق وأكياس القماش، وقطع الأخشاب التي كانت قد انتثرت في كل مكان.

ناديت مرة أخرى: «نادر، أين أنت يا نادر؟ أنا رضا، جئت لأنقذك.»

لم يأتني جواب. ألقيت نظرة خلف الصناديق، والأغراض الأُخر في الغرفة، ولم يكن لنادر من أثر. ثنيت طرفي إلى ألماس، وقلت: «كأنه ليس هنا!»

ناديت للمرة الأخيرة: «نادر، أين أنت يا نادر؟!»

وهذه المرة أجابنا رجل من الخارج: «أتبحثان عن هذا؟!»

فور سماعنا الصوت، استدرنا، ونظرنا وراء ظهورنا. كان قد وقف في إطار باب الغرفة من الخارج ثلاثة أنفار، كانت ملامح وجوههم بائنة في نور القمر. أما الذي كان يقف في الوسط فكان نادرًا، وإلى جانبه حارس الغرفة ذاك، وإلى جانبه الآخر يقف شخص لم أكن لأصدق أنه هناك بتاتًا،

راضي.

تجمدت في مكاني، ودار رأسي بي، حتى إن قدميَّ تراختا وما عادتا تنوءان بحملي. وقفت أنا وألماس في مكاننا جامدين كصنمين، ننظر واجمين إلى أولاء الذين وقفوا في إطار الباب. أمسك الحارس يد نادر ولوى ذراعه خلف ظهره، ورمقنا راضي بنظرة مصحوبة بابتسامة تُلقي في روع المرء صورة الشيطان. ولما أن رآنا متيبسين، بادرنا قائلًا: «أمستغرب، ها؟ لم تك تتخيل أن تقع هكذا في الفخ؟!»

ثم هز رأسه مشيرًا إلى ألماس، وقال: «أردت أن تتصدى للجميع بذاك الأسود الزنجي؟! خزاك الله... هيا اخرجا.»

تحركت أنا وألماس بهدوء ورفق دون حتى أن ينظر أحدنا إلى الآخر. صرخ راضي: «لا تتلكآ، هيا تحركا.»

ثم أردف ضاحكًا: «أيَّاز خان ينتظر بالخارج أن يقطع رأسك.»

تقدمنا، وقرب الباب تأملت وجه نادر؛ لم يكن يعتمر قبعته، وكان شعره على وجهه متشعثًا، والدم من أنفه يَنطِف. لما أن رآني أنظر إليه، قال: «لمَ أتيت إلى هنا؟ كنت من نفسي سأفعل.... آه!»

فما كان من الحارس الذي كان يقف إلى جانبه إلا أن ثنى

ذراعه، ولم يدعه يستمر في حديثه. أما راضي فزعق مرة أخرى: «هيا... بسرعة...»

سحب الحارس نادرًا جانبًا، وأفسح أمامنا سبيلًا للخروج. في الوقت ذاته مد راضي يديه وأمسك بكتفي، وجرني إليه. كانت أظفاره الحادة اللاذعة تنشب في كتفي غرسًا، فتأوهت لا إراديًا ونفرت إلى الخارج. كذاك فعل راضي مع ألماس، وقال: «يا لكم من بائسين هالكين!»

ثم دفعنا إلى الأمام، وبدأنا بالسير. كان الحارس قد ثبت يد نادر خلف ظهره، ثم جعل يتقدمنا بخطوة. أدار نادر رأسه بصعوبة نحوي، وقال: «أهذا صاحبك الذي كنت تتحدث عنه؟ ما اسمه؟... آه!»

لوى الحارس ذراع نادر مرة أخرى، ثم قال: «اخرس، لا تنطق بكلمة!»

لم يكن كلام نادر ونغمة صوته أصلًا يشبهان ظاهره المضطرب الهائر في شيء. إنما كان في مزاج رائق، وما من بينة في صوته تدل على حزن وغم. كان على أحسن ما يرام ما جعل عقدة لساني أنا الآخر تنحل، فأجبته: «ألماس... اسمه ألماس.»

فقال نادر: «رائع... آه...!»

أمسك راضي بطوق قميصي من الخلف، ولكمني بيده المقبوضة الباردة على مؤخرة عنقي، وقال: «مه، اخرس، تقدم.»

ارتقينا الدرج، ووصلنا إلى أرض الخندق. كانت الريح الخريفية قد اشتدت، واختلط صياح بعض الديكة من بعيد بنباح الكلاب. دفعنا راضي والحارس تجاه غرفة أيَّاز. توهمت أنهما سوف يسوقانا إلى غرفته، غير أنهما مرا بالسلالم المفضية إلى غرفته مرور الكرام. حتى إذ تقدمنا قليلًا أبصرت أيَّاز الذي كان قد استوى على رابية من التراب، ويحيط به قرابة ستة رجال أشداء كان كل منهم يغمد في شاله المُحتزم به سيفًا طويلًا. أما أيَّاز نفسه فكان يبدو للعين أضخم مما بدا عليه قبل ذاك. إذ كان عرض منكبيه، وبروز بطنه، وضخامة رأسه، وانتثار شعره في مهب الريح، وعصابته السوداء التي يعصب بها عينيه، كان كل ذلك قد لفه بهيبة مرعبة. وعلى مبعدة خمسة أقدام من موضع وقوف أيَّاز، جأر راضي: «توقفوا.»

ثم دفعني أنا وألماس، لنقف إلى جانب نادر. وما لبث الحارس أن أفلت يد نادر، وقهقر هو حتى وقف دوننا. دلك نادر ذراعه قليلًا، ثم خشعت الأصوات كافة وشخصت الأبصار إلى أيَّاز، طال الصمت حتى كاد أن يكون مخوفًا،

ويكأن الجميع كانوا يدركون أن لا أحد يحق له أن يتكلم سوى أيّاز. في نهاية الأمر تكلم أيّاز، إذ ولّى وجهه شطرنا، وقال: «الليلة، عندما أقتلكما، سوف أقتلع قلبيكما (ثم رفع ذراعه وأطبق يده) أريد أن أقبض عليهما بيدي قبضًا لأرى ما مبلغ حجمها؟ أريد أن أعلم بأي قلب اجترأتما على دخول أرض أيّاز؟ تريدان أن تعثيا في بساط ملكه فسادًا، وتريدان أن تأخذا أحدًا من داخل أرضه، وتسيرا به هكذا؟!»

ثم أطرق قليلًا، وقال: «ولد صغير لم يبلغ الحُلم، وشاب معتوه خبل، بصحبة أسود زنجي!»

ثم رفع صوته، وكأنه يريد التحدث إلى رجاله، فقال: «أليس كذلك؟... الزنجي الواقف بجانب الولد الصغير... أليس كذلك؟»

أجابه الحارس الذي كان يقف خلفنا: «بلى أيّاز خان، هذا صحيح.»

أنغض أيّاز رأسه، وقال بنبرة أخفت: «أجل... حقًا أن السود يتهادون بنعومة، يمشون مشية النسوة.»

ثم صرخ فينا: «إن أيّاز ليبصر كل شيء، يعرف كل شيء، كل شيء مطوي بيمينه، لا سيما في الليل. النهار للآخرين، أما الليل فلأيّاز. من ذا الذي يجرؤ على أن تطأ قدمه ليل أيّاز؟!

الليل ملك لأيّاز، بل ليالي طهران كافة ملك لأيّاز. قبل ثلاثين عامًا أهدت التراخوما ليالي طهران لأيّاز. لذا فوقتما يعسعس الليل ويسجي الكون بظلامه، يبصر أيّاز أجلّ وأوضح. إن أيّاز ليعلم بنبأ أيما امرؤ أينما يكن في طهران نائمًا متى تقلب في نومته من ذات اليمين إلى ذات الشمال... أيأتي الآن ثلاثة ضِئال، ثلاثة واهنين ليخادعوا أيّاز؟!»

ثم إنه ضحك هازئًا في فتور، وأردف: «هل تصورتما حقًا أن المجيء إلى أرض أيّاز مطلبًا سهلًا حتى تنحدرا زلقين هكذا في منتصف الليل، وتنفذا إلى الخندق؟! أَوَتمران من أمام الجميع هكذا، ولا يدري بكما أحد ولا يشعر؟!»

تجمدت في مكاني فورما سمعت هذا الكلام منه. الآن فقط فهمت مغزى نوم هذين الرجلين في مفتتح طريق الخندق، أو ضحك ذينك عندما مررنا أمام كوخهما. كان التفكير في أننا قد تلوعب بنا إلى هذا الحد يزيدني ضيقًا. خفض أيّاز صوته قليلًا، ثم قال: «قلنا لا ضير... ندعهما يأتيان، لنلهو بهما قليلًا... لقد أتى علينا حين من الدهر لم نر دمًا غزيرًا موفورًا... الآن خبروني ماذا نفعل بهم؟»

حينئذٍ أدلى كل واحد من رجاله بدلوه ، فقالوا:

«نذبحهم.»

«ننهال عليهم حتى نفريهم إلى أشلاء.»

«نسيخهم في الأسياخ.»

«نمزقهم إربًا أربًا نرمي بها إلى الكلاب.»

رفع أيّاز يديه بهدوء. وبهذا التصرف منه، تغشّى الجميع صمت. ثم بعد ذلك قال: «أحضروا لي ذاك الفتى أولًا، ذاك الذي أردت أن تُقطع أذناه أمس، قبل أن أنصرف عن ذلك. لا تحسبوا أن قلبي كان عليه شفوقًا، كلا، بل إني قلت لنفسي ربما غُمي عليه، فلا يستطيع الكلام، إذ لا رمق فيه. أما الآن فلأقطعنه قطعًا،... سأبدأ أولًا بأذنيه، ثم أجدع أنفه، فأسمل عينه، وختامها أقتلع قلبه من بين جوانحه. آتوني به.»

فما كان من الحارس الذي خلفنا إلا أن نكز نادرًا في ظهره، ودفعه، وقال: «تقدم.»

فتقدم نادر خطوتين، ثم إنه وقف، وأدر رأسه نحوي قائلًا: «لا تنظر يا رضا.»

عاود الحارس دفع نادر، فتقدم نادر، حتى صار قاب خطوة من التل، بحيث كان أيّاز يشرف عليه مباشرة. حينذاك انمات قلبي، وغمرت مقلتي الدموع. وبينما كانت أدمعي مستهلات، صرخت: «أسألك بالله إلا تركته.»

هذه المرة، ضرب راضي بجُمع كفه قفاي، وقال: «مه. الآن يحين حينك أنت الآخر.»

عدا أني لم أسكت، فصرخت ثانية: «الذنب كله كان ذنبي. كنت أبحث عن تلك الطفلة، أما هذان الاثنان فلا جناح عليهما.»

صفعني راضي على قفاي مرة أخرى، وقال: «اخرس!»

وخلف أستار الدموع أبصرت نادرًا وإنه ماثل بين يدي أيَّاز. رفع أيَّاز رأسه، كان شعره الطويل يهفو مع الريح، وغشاوتا عينيه السوداوان تشبهان عينين كبيرتين مخيفتين. كانوا جميعًا صامتين يترقبون سماع أمر أيَّاز التالي. أما أيَّاز فوقف في مكانه ساكتًا، وأما أنا وألماس فكدنا نلتصق ونحن واقفان. حينها ناجيت ربي: «نجه يا رب!»

ودون أن ينطق ألماس بكلمة، استدار، ونظر خلفه. طرق راضي على كتفه، وقال: «علام تبحث؟ لا تنظر خلفك.»

كان صياح جمع من الديكة قادم من بعيد هو الصوت الوحيد الذي فضَّ السكوت، وفي غمرة هذا السكوت ارتفع بغتة صوت يشبه عواء ذئب. انتفض ألماس في موضعه فور سماعه عواء الذئب. كذلك فإن أيَّاز ورجاله سمعوا عواء الذئب، لكن أحدًا لم يفغر فاه. وما هي إلا أن قال أيَّاز:

«طرأت عليّ فكرة أفضل... ذلك أنه لا لذة في أن تقتل الناس بنفسك. إنما اللذة اللذة في أن تجعل الناس يقتلون بعضهم بعضًا.»

ثم رفع صوته، وقال: «ذاك الأسود، احضروه ليمتثل أمامي، أريده.»

فما كان من راضي إلا أن طرق ظهر ألماس، ودفعه قائلًا: «تقدم.»

تقدم ألماس قاب خطوتين. ثم جاءه الحارس الذي كان يقف بجانب نادر، وأمسك بيده، وساقه ليقف إلى جانب نادر. والتفت إلى أيّاز خان قائلاً: «تحت أمرك أيّاز خان!»

قال أيّاز: «أعطه سكينًا.»

أما الحارس الذي لم يكن يفهم ما يحدث فقال: «ماذا يا أيّاز خان؟»

فقال أيّاز خان مغاضبًا: «لا تطلبن من أيّاز خان أن يقول كلمة مرتين، نفذ ما أُمرت به.»

مضطربًا سل الحارس سكينه من طرف نطاقه، ودفع بها نحو ألماس قائلًا: «تعال، خذها.»

ولكن ألماس لزم مكانه. وحينئذٍ زعق الحارس قائلًا: «خذها

أيها الزنجي، ألم تسمع ما قال أيَّاز خان؟»

رفع ألماس إحدى يديه بحذر، وتناول السكين من الحارس. قال أيَّاز: «اجدع أذني هذا الفتى بداية، حتى آمرك بما تفعله من بعد.»

لم يرتمز ألماس، ورغم أني ما تمكنت من رؤية وجهه، كنت أدرك يقينًا مدى الخوف الذي يسكنه. ظل هكذا مُطرقًا، ولم ينبس بكلمة. وما كانت إلا لحظات حتى ألقى السكين أرضًا، ثم ثنى ركبتيه، وقعد على الأرض. أما أيَّاز الذي انتبه لما حدث، فصاح من أعلى الرابية الترابية: «ليهال على رأسك التراب، قم وإلا قطعت أذنيك بنفسي.»

تلبث ألماس في مكانه لا يتحرك. التفت الحارس إلى أيَّاز خان قائلًا: «أفأضرب مؤخرة عنقه يا خان؟»

وقبل أن يجيب أيَّاز، تصاعد عواء الذئب مرة بعد، فشحذ الجميع آذانهم، غير أن أحدًا لم يفتح فاه. كان الجميع مترقبين أن يقول أيَّاز شيئًا. سكت أيَّاز مدة، ثم التفت إلى رجاله وخاطبهم قائلًا: «ثمة غريب بالقرب... ربما كانوا بعضًا من الغرباء أيضًا...»

وإذ فجأة بصوت مهيب يدوي في الآفاق لم يمهله حتى يكمل كلامه. زلزلت الأرض، وسطع نور شديد في كل مكان.

كان النور متوهجًا حتى إني فورئذٍ غميت بيدي عينيَّ. ثم دوى ذاك الصوت المهيب مرة أخرى، ومن بعده سمعت صراخ وصياح رجال أيَّاز. ولم يطل الوقت حتى قبض أحد على ذراعي، واجتذبني قائلًا: «تعال معي، لا تتنفس.»

كان صوت ألماس. خفضت يدي، ونظرت بطرف عيني. كان النور قد خبا وهجه قليلًا. قال ألماس: «هيا...»

رفعت رأسي، وأبصرت نادرًا الذي كان يعدو إلى جانب ألماس. ثم ما لبث أن صرَّ بأذني صوت انفجار من خلفي كانفجار متفجرة. اشرأبت عنقي، فأبصرتُ فوق الخندق شواظًا كبيرًا عجيبًا من نار كان يرمي من داخله بشرر عظيم يفور فورًا وقد أضاء المكان بأسره. مرة ثانية قال ألماس: «لا تتنفس.»

كنت في حيرة من أمري، واستغلق عليَّ فهم ما يقول. ولما وصلنا إلى جدار الناحية الأخرى من الخندق، ركضنا بجانب الجدار، ونأينا عما كان يدور من خلفنا. ولم نكد نمضي إلى الأمام حتى توقف ألماس ونادر، مثلما توقفت. كمم ألماس بيده أنفي وفمي، وقال: «لا تتنفس.»

وبيده الأخرى كمم أنفه وفاه. كذلك سد نادر بإصبعيه فتحتي أنفه. التصقنا ثلاثتنا بجدار الخندق ونظرنا أمامنا. وعلى مبعدة منا حيثما كان وقف أيَّاز ورجاله، كان ثمة دخان

وغبار كثيف يتصاعد. كانت صيحات رجال أيَّاز من بين الغبار تطرش الآذان، وفي وسط ذلك الملأ، أبصرت رهطًا منهم يشتبكون مع بعضهم بالسيوف ويتعاركون. أشار ألماس إلى أن ننطلق، فمضينا ونأينا بأنفسنا مرة أخرى عن الغوغاء وعركتهم. كنت أجد صعوبة في عدم التنفس، فلما تقدمنا قليلًا توقف ألماس، وقال: «الآن بمقدولك أن تتنفس.»

وقفت، وقلت: «ماذا حدث فجأة هكذا؟»

فقال ألماس: «لقد جاء كافول...»

فقال نادر: «من؟!»

أجاب ألماس: «سأخبلكما فيما بعد، ذلونا الآن نذهب لنبحث عن الأطفال.»

فجأة أتانا من خلفنا رجل، وركل ألماس في ظهره، وطرحه أرضًا، كان راضيًا. ثم سدد إلى نادر ركلة، وركلني من بعده أيضًا. ثم قال: «تف عليكم، أدري ما فعلتم، ولكنكم لن تتمكنوا مني.»

ثم وثب تجاه سور الخندق، وسرعان ما ارتقاه وولى مدبرًا. عندئذٍ وعلى مسافة قريبة منا رأيت بعض السود يهبطون منحدر الخندق وإنهم ليهللون, وكان بعضهم ممسكًا بهراوة طويلة خشبية. نهض ألماس، وأشار إلى السود الذين كانوا

ينحدرون، ثم قال: «كافول،... ذلك أيضًا صنيع كافول.»

نظر نادر إلى معشر السود، وقال: « ولكني لا أفهم ما يدور هنا.»

ثم التفت إليّ قائلًا: «أوتدري أين الأطفال؟!»

كنت أعرف مكانهم، إذ قد أرانيه شكور، فقلت: «أجل، في سجن تحت ذاك الجدار. والمفتاح في غرفة أيَّاز.»

ثم سرت تجاه غرفة أيَّاز، وقلت: «لنذهب.»

أما ألماس فأشار إلى السود الذين كانوا لا يزالون يهبطون منحدر الخندق، وقال لنا: «سأمضي طليقي إليهم.»

فقلت: «حسنًا، اذهب أنت، سنذهب لنقفو أثر الأطفال.»

ثم من بعد ذلك عدوت أنا ونادر تجاه غرفة أيَّاز. وصلنا إلى الجدار الطيني العريض، والسلالم المجاورة له. لم يكن أحد أمام غرفة أيَّاز، فدخلنا. وفي داخل الغرفة المظلمة، رحنا نفتش عن الخنجرين المعلقين على الجدار، ونبحث عن مجموعة المفاتيح التي كان شكور أرانيها. لكنَّا ما وجدنا أية مفاتيح، كان يوجد مسمار كبير مدقوق في الجدار اتضح أنه كان موضع المفاتيح، غير أنها لم تكن معلقة على المسمار. فكرت في نفسي للحظة أنه إذما نما إلى علم أيَّاز خبر

مجيئنا، فلا بد أنه التقط المفاتيح وأخذها معه قبل الخروج من الغرفة. تناولت نفسي لومًا وتقريعًا لعدم انتباهي إلى هذا الأمر مبكرًا. قلت لنادر: «لقد أخذ أيّاز المفاتيح معه.»

ثم ركضنا معًا خارج الغرفة، وصعدنا الدرج. حتى إذا وطئنا أرض الخندق، كانت حدة صخب الناس وصياحهم وصريخهم قد انخفضت. مضينا قُدمًا قرب موضع وقوفنا من قبل. كان الدخان انقشع والغبار خمد، ورائحة التراب والبارود تملأ المكان. رأينا بعض نفر كانوا قد انطرحوا أرضًا مخضبين بالدماء مثخنين بالجراح. فقال نادر: «ما الخطب؟ ويكأنهم كانوا مشتبكين!»

فقلت: «أجل، إني قد أبصرتهم، كانوا يتعاركون.»

ابتسم نادر ساخرًا، وقال: «إنما اللذة اللذة في أن تجعل الناس يقتلون بعضهم بعضًا.»

نظرنا حولنا، كان رجال أيّاز مُلقين على الأرض في كل مكان، وأبعد منهم قليلًا كان جسد أيّاز نفسه الضخم على الأرض مرتميًا. أشرت إليه وقلت: «إنه أيّاز، ذاك المرتمي هناك أيّاز.»

تقدمنا حتى وقفنا على أيّاز. كان قد انبطح على الأرض، وقد انغرز في ظهره حتى المنتصف سيف طويل، ومن جانب

السيف المغروز كان خيط رفيع من الدم آخذًا في التدفق.
قال نادر: «لقد توفي، قُتل.»

في تلك اللحظة نهض الرجل الذي سقط على الأرض بجانب أيَّاز، وجلس بجانبه. كان وجهه مبللًا بالدموع، وقد خلفت نداوة الدموع المخلوطة بالتراب على وجهه لطوخًا وحلة. أخذ الرجل يحملق إلينا، ويبكي شاهقًا بالحسرة مرة بعد المرة، ثم قال: «لقد قتلته، لقد قتلت أيَّاز خان،... قسمًا بربي لم يكن الأمر بيدي،... لم أدر كيف حدث... قولا له، قولا له وإلا فسوف يحيل حياتي إلى جحيم، إن أدرك أيَّاز خان أني قتلته، فسوف يحيل حياتي إلى جحيم.»

لم يلق نادر للرجل المنحني على الجثة بالًا، وما لبث أن قال: «لا بد أن تكون المفاتيح معلقة بحزامه.»

شد طرف قباء أيَّاز المُدمى، وسل حزامه من تحت بطنه. ثم وضعه جانبًا، وخلع مجموعة المفاتيح المعلقة بحزام أيّاَز، وقال: « لا بد أنها هي.»

ثم سألني: «ألا تخبرني أين الأطفال؟»

فقلت: «هناك، تحت الجدار الطيني.»

وركضنا معًا صوب الجدار.

الفصل السادس والعشرون

تحرك الرجل الأسود على كرسيه المتحرك، وتناول إبريق الشاي عن الطاولة، وملأ فنجانه الفارغ، ثم قال: «لا أدري إلى أي مدى ستبدو قصة عبد أسود مثيرة بالنسبة لك. لا أدري أتعلم شيئًا عن تاريخ الاستعمار والرق أم لا. لا أدري هل يمكن لمخيلتك أن تتصور كيف أن رجلًا حرًا يعيش حياته، وكل أموره تسير على ما يرام، لكنه ذات صباح هب من نومه ليرى بضعة رجال يقفون على رأسه. لم يجيئوا لشيء إلا لأنه ذو بشرة سوداء، فيقيدونه في الأغلال، ويقتادونه معهم أسيرًا، عبدًا يعرضونه للبيع، ليُسخَّر للعمل لدى الآخرين حتى آخر عمره بلا مقابل. كان جدي الأكبر كافور واحدًا من آلاف الأشخاص الذين أُسروا بهذه الطريقة. كان لا يزال طفلًا عندما قدمت جماعة من البحارين من ذوي البشرة البيضاء، وأسروه هو والآخرين قسرًا، وعلى متن سفينة برتغالية ساقوهم إلى خارج أرض آبائهم أي زنجبار.»

ثم ثبت عينيه عليّ، وكأنما أراد أن يفهم هل استوعبت بالفعل ما يقول. شعرت أن عليّ أن أخبره بشيء، ليصدق أني أفهم كلامه. فقلت: «لقد قرأت عن هذا الموضوع في الكتب، كذلك كان رضا قُلي ميرزا قد تحدث في مذاكرته عن عبد آخر يدعى ألماس.»

انفرجت غضون وجه الرجل الأسود، فقال: «ألماس؟... لقد لعب دورًا مهمًا في القصة التي أود إخبارك بها. سرني أنك تعرفه، الآن ازددت يقينًا بأنه يمكن لأحدنا أن يساعد الآخر.»

وبعد أن مكث قليلًا، سألني: «هل قلت إنك قرأت عن جدي كافور شيئًا؟!»

«أجل، ليس كثيرًا بالطبع!»

أمسك الرجل الأسود بيد فنجان الشاي. كان ينظر إليه، حينما قال: «كان كافور ابن مُداوي القبيلة. كان أبوه الذي لا أعرف اسمه قد ورث منصب مُداوي القبيلة وطبيبها عن أبيه. وقد ورث هذا المنصب أبو أبيه هو الآخر عن أبيه، وأبو ذاك بدروه ورثه عن أبيه. في الواقع لقد كانوا مداويين جيلًا بعد جيل، وكانوا قد عرفوا وخبروا بخصائص الأعشاب الدوائية. فمعرفتهم بأوراق الشجر، والبذور، وغرسات الأجمات والأشجار التي كانت تنشر في ربوع الغابات والمناطق الجبلية، أمكنتهم من صنع الأدوية المختلفة، وعلاج الأمراض المتنوعة. في سلالة كافور كان كل ابن يرث علم أبيه، ويضيف إليه شيئًا، ثم يورثه بدوره لابنه من بعده. هكذا ازدادت معرفتهم عبر الأجيال. كانوا يكتشفون ويخترعون أشياء ربما لا تزال حتى اليوم غريبة ولم يُتوصل إليها بعد. لكن مجيء المستعمرين البيض، عطل مسيرة تقدمهم

وتطورهم. كان كافور لا يزال طفلًا عندما قدم المستعمرون البيض إلى أرضه. وكان قد بدأ لتوه يتعلم من والده علم الطب. عرَّفه أبوه بالنباتات العشبية وخصائصها، وعلَّمه طريقة تشخيص الأمراض، وبيَّن له كيف يصنع لكل علة الدواء الخاص بها، لكن المستعمرون قدموا فجأة، وهاجموا سكان زنجبار بأسلحة لم يعهدوها من قبل. وقُتل كثيرون منهم من بينهم والد كافور الذي كان يحظى بكل الاحترام والتقدير من الناس. وأتوا على ثروات الناس وممتلكاتهم فنهبوها كاملة، وقيدوا كثيرًا من الناس كان فيهم كافور نفسه بالزناجير، وسيقوا في أسوء الظروف إلى متن سفينة كبيرة يقودها بحارة برتغاليون أبحروا بهم قاصدين قارتي أوربا وأمريكا ليُباعوا كعبيد. كانت سفن هؤلاء الناس على ما يبدو في حالة مزرية. كان مستوى النظافة في السفينة غاية في السوء ما تسبب في إصابة غالبية العبيد بالمرض في طقس الصيف الحار. كان العبيد السود يسلمون أرواحهم واحدًا تلو الواحد، حتى كافور الذي كان حينئذٍ لا يزال طفلًا لم يسلم من المرض، بيد أنه قد حظي بعناية العبيد الآخرين الذين كانوا يولون أباه احترامًا وتقديرًا، ولم يذروه يموت. أثار تفشي المرض وموت العبيد قلاقل قادة السفينة. كانوا يخشون أن يموت كل العبيد، فيلحق بهم الضرر ويخسرون مكاسب تجارتهم، لذلك فإنهم عزموا على تغيير وجهتهم

وأبحروا إلى الخليج الفارسي. وهناك على شاطئ إحدى البلدان العربية باعوا إلى التجار العرب عددًا كبيرًا من العبيد الأحياء المرضى بثمن زهيد، ثم ما لبثوا أن رحلوا. كان كافور أيضًا من بين أولئك العبيد. تنقل العبيد المباعون من مكان إلى آخر مرة بعد المرة، حتى استقر ببعضهم المقام في نهاية الأمر في ساحل مدينة بوشهر بإيران. أما كافور فقد بيع إلى أحد التجار الإيرانيين. رجل كان يملك بيتًا للتجارة في طهران أيضًا، اسمه الحاج حسن علي خان معين التجار. صحب معين التجار كافورًا الذي كان قد صار بعد خروجه من السفينة بحال أفضل إلى البيت ليصبح غلامه إذا جاز التعبير، ثم إنه بدل اسمه إلى كافور وإلا فإن أباه كان قد أسماه من قبل اسمًا إفريقيًا أصيلًا، اسمًا ربما كان هو نفسه كان نساه.»

عندما وصل الكلام إلى هنا، رفع رأسه، ونظر إليّ، ثم قال: «كان الحظ قد حالف جدي بفضل مرضه على متن تلك السفينة. كان محظوظًا أن كان معرضًا للموت وهذا ما ساقه لينتهي به المقام في أرض طهران، حيث يلقى العبيد معاملة أفضل مما في البلدان الأخرى. ووفقًا لما ذكره جدي، كان معين التجار يعامله معاملة حسنة. صحيح أنه كان مجرد خادم لديه، لكنه في كثير من الأحيان راح يهتبل الفرص المُسخرة لأبناء سيده أنفسهم. حتى عندما رأي معين التجار

ذكاء وقريحة غلامه الأسود، سمح له بأن يدرس مع أبنائه، ويتعلم القراءة والكتابة. كانت أجواء بيت معين التجار، والذهاب إلى الكُتَّاب، والاطلاع على الكتب كلها عوامل أمكنت كافور من أن تستعيد ذاكرته مرة أخرى الأشياء التي كان قد تعلمها من والده في أثناء عيشه في زنجبار، وهكذا أقبل على تصنيع الأدوية. وفي أوقات فراغه كان يذهب إلى خارج المدينة، ليجمع الأعشاب المختلفة، ويصنع منها أدوية عشبية. حتى ذات يوم وبمجرد أن عاد الحاج من مدينة بوشهر، أصيب بالحمى، ولزم الفراش. وفي غضون ذلك اجتمع لديه لفيف من الأطباء والحكماء يعالجونه لكنه كان بلا مفعول، وظل وضع الحاج الصحي يتردى يومًا بعد يوم. حينذاك صنع كافور مسحوقًا وأذابه في الماء، وطلب من الحاج أن يتناوله. خامرت الحاج الشكوك في البداية، بيد أن كافورًا طلب منه أن يوليه ثقته. تناول الحاج الدواء، وأبدى تحسنًا قليلًا. وعكف كافور على تقديم الدواء للحاج عدة مرات حتى برأ تمامًا. وعندما تعافى قال كافور للحاج إنه قد التقط عدوى الحمى من مريض كان أحد البحارين جلبه معه من أرض أخرى إلى مدينة بوشهر، فابتلي الحاج على هذا النحو بالمرض. أعجب الحاج بكافور إعجابًا بالغًا، وراح يحثه على أن يستزيد تحصيلًا وعلمًا، بل ويجد له بعض الكتب عن الطب هنا وهناك، فيحضرها له ليقرأها.

استغل كافور من جهته هذا الموقف أيضًا، وجعل يقبل أكثر من ذي قبل على تحصيل الطب، وصُنع التراكيب الدوائية. ومع تقدمه في السن قليلًا، قام ببعض رحلات إلى البندر بإذن من معين التجار. وهناك راح يستفسر السود الرُّحَّل الذين كانوا يجيئون ويرحلون، ويتعلم من كل واحد منهم شيئًا جديدًا. وأحيانًا ما كان بعض هؤلاء السود يعطونه بعضًا من الأعشاب العلاجية أو أشياء مما بحوزتهم، فيجمعها ويحفظها لديه ليستخدمها. ثم بعد زمن أعتق الحاج كافورًا، وأعمله لديه في بيت التجارة، وزَوَّجه. خلاصة القول هيأ له ظروفًا مناسبة. عندئذٍ ذاع صيت كافور لدى كثير من أهالي طهران، وأخذوا يقصدونه لتلقي العلاج من شتى الأمراض. خاصة السود منهم والعبيد الذين نالوا حريتهم والذين كان من بينهم واحد يُدعى ألماس وهو الذي يعرفه كل منا.»

فقلت: «كم أود أن أعرف ما هو دور ألماس في هذه الأحداث التي جاءت بك إلى هنا؟!»

أسند الرجل الأسود مرفقيه إلى الطاولة، وأشبك أصابعه، ثم قال: «كان ألماس وجدي كافور صديقين مقربين. يبدو أن جدي لم يكن اجتماعيًا مع الآخرين. غير أن علاقة وثيقة كانت تربطه بألماس، وكثيرًا ما كانا يلتقيان، ويتجاذبان معًا أطرف الحديث. ربما لأن ألماس كان فقد زوجته بسبب

إصابتها بأحد الأمراض فأراد جدي بوجوده أن يخفف قليلًا وطأة الحزن والغم عن رفيقه ألماس.»

فقلت: «زوجة الماس لم تمت مريضة، الظاهر أنها وقعت من أعلى جبل، فماتت.»

نظر الرجل الأسود، وقال: «ربما أكون مخطئًا، جعلني أسلوب كلام جدي أعتقد أنها ماتت مريضة، أي أني اعتقدت أن كافورًا في البداية كان يعتزم إنقاذ زوجة ألماس و... »

فسالته مستغربًا: «أسلوب كلام جدك؟! ماذا تقصد؟!»

فقال: «أسلوبه في كتاباته، كل ما ذكرته لك إنما عرفته من كتابات جدي. فجدي كافور كان أحد الأشخاص القلائل في عصره الذين كان لديهم مذكرات يومية، أي أنه قد دوَّن مذكراته الشخصية.»

فسألته: «هل هذه المذكرات بين يديك الآن؟»

فأجاب قائلًا: «نعم، لقد عثر عليها بعد ذلك جدي ياقوت وسط المتعلقات التي خلفها أبوه، وجلبها معه إلى الهند. ولكن قبل أن يسلمها إلى ابنه، أي إلى والدي، وافته المنية، ثم وجدتها أنا بالصدفة قبل مدة.»

كان الأمر ممتعًا بالنسبة لي. فقلت: «ولكني لم أقرأ عن

ياقوت شيئًا.»

استند الرجل الأسود إلى كرسيه، وقال: «كان ياقوت ابن كافور الوحيد. في الواقع كان ولده الوحيد، إذ لم يكن السود الذين يتزوجون يتكاثر نسلهم بالبنين والبنات.»

«كيف غادر ياقوت إيران وسافر إلى الهند؟»

كان ياقوت لا يزال طفلًا عندما توفي كافور. لا أعرف ما السبب تحديدًا، لكن يبدو أنه مرتبط بقصة إنقاذ الأطفال المحبوسين تلك التي قد أشار إليها في مذكراته. وبعد مدة من تورط كافور في قصة إنقاذ الأطفال، انقطع مداده، وتوقفت كتاباته. لذلك فإني أخمن أن كافورًا قُتل في غمرة تلك الأحداث، أو ربما مات لأي سبب آخر. ومع وفاة كافور بدأت مرحلة عصيبة في حياة ابنه ياقوت وأمه. في البداية لم يبخل الحاج معين التجار عن تقديم العون لهما، لكن بعد مدة من الوقت تُوفي الحاج، ولم يساعدهما أبناؤه الذين لم يكونوا يشبهونه في شيء. كان ياقوت يبلغ من العمر نحو ثلاثة عشر عامًا عندما رحل مع أمه إلى بوشهر وعمل على متن إحدى المراكب في البندر. هذا ما أخبرني به والدي، ابن ياقوت وحفيد كافور. ولكن ما يهم الآن ليس قصة جدي. لقد وقعت حادثة مهمة قبل عدة سنوات من رحيل ياقوت إلى البندر، وقتما كان جدي كافور لا يزال على قيد الحياة.»

- «وهل لهذه الحادثة علاقة بألماس؟»

- «بالضبط!»

- «كيف؟!»

في السنة التي تجرعت طهران ويلات المجاعة والكوليرا، وكان الناس يقاسون شظف العيش لاحظ كافور أن ألماس يعاني من ألم بدني. سأله عمَّا به، غير أن ألماس لم يعطه جوابًا شافيًا وقال إن كل شيء بخير. وبعد مزيد من إصرار كافور واستفساره، أدرك أن ألماس يشتكي من آلام في البطن مذ زمن طويل، لكنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد، ولم يخبر به أحدًا، خاصة وأن الناس كانوا حينذاك يموتون بوباء الكوليرا واحدًا تلو الآخر، فتصور ألماس أنه لا ينبغي له أن يفكر في نفسه. تفحص كافور ألماس، وفهم أن ألماس يعاني من وجود ورم في معدته، ورم ربما كان شيئًا يشبه الورم السرطاني. عكف كافور على علاج ألماس بأنواع مختلفة من العلاجات الدوائية، غير أن ألماس لم يكن يتحسن، وظلت حالته النفسية تسوء يومًا بعد يوم. وعلى ما يبدو كان يردد أنه سيرحل عما قريب، ويلقى أخيرًا زوجته المتوفاة وجهًا لوجه. لكن كافور لم يكن ليتخلى عنه ويتركه. وبعد تفكير عميق، اتخذ قرارًا كبيرًا، إذ قرر إجراء عملية جراحية لألماس، واقتلاع الورم من معدته. لا يخفى عليك

أن مثل هذا الأمر في ذلك الوقت كان غاية في الصعوبة، إذ لم تكن آنذاك الإمكانيات الطبية والأدوات الجراحية مثل تلك الموجودة الآن متوفرة على الإطلاق. وأول الأشياء التي كانت تعوزها جراحة كتلك وسيلة أو عَقار لتخدير المريض. وقد وجد كافور هذا العَقّار في إحدى سفراته إلى البندر، حيث وُفق في شراء شوال من عشبة عجيبة محلية اسمها جونجادا من بحارة إحدى السفن التي كانت قادمة من زنجبار. وقد صنع من هذا العشب مسحوقًا عجيبًا كمية صغيرة منه تكفي لأن تجعل المرء يُصاب باضطراب ذهني قصير الأمد، كان المحاربون الأفارقة يستعملونه في غاراتهم على قبائل العدو. وأسماه مسحوق التخدير.

كذلك فإن قدرًا كبيرًا من هذا المسحوق، يجعل المرء يفقد وعيه إلى حد يمكن معه إجراء العملية الجراحية. على هذا قصد كافور ألماس، واقترح عليه أن يجري له عملية جراحية مستخدمًا فيها مسحوق الجونجادا ذاك. لم يلق الأمر قبولًا من ألماس في البداية، عدا أنه أمام إلحاح كافور ما لبث أن أذعن بالموافقة. اتفقا معًا على أن تُجرى الجراحة في اليوم التالي. لكن وبعد بضع ساعات من تحديد الموعد، تقريبًا في آخر الليل، ذهب ألماس إلى جدي كافور، والتمس منه العون لإنقاذ عدد من الأطفال قد سرقهم جماعة من المجرمين، وسوف يشيعونهم صبيحة غد إلى روسيا. على ما يبدو،

فإن عدد هؤلاء المجرمين كان كبيرًا ما دفع بألماس لأن يطلب من كافور أن يكسر شوكتهم ويقعدهم عاجزين. فقال كافور أولًا إن صناعة مسحوق التخدير سوف يستغرق وقتًا طويلًا، وليس من الواضح أيكون قد تمكن من إعداده قبل أن يطلع عليهم صباح غد، والأمر الآخر أنه سيحتاج كمية كبيرة من عشب الجونجادا، وإن أراد أن يصنع كمية كبيرة من مسحوق التخدير تفي بعددهم، فلن يتبقى لديه شيء يستخدمه في جراحة ألماس. لكن ألماس ألح عليه لكي يقوم بهذا الأمر بأي طريقة كانت، وقال إنه لم يعد يريد إجراء هذه الجراحة. وفي نهاية الأمر اضطر كافور إلى أن يذعن لكلام ألماس. فمضى إلى مختبره، وهناك خلط عشب الجونجادا ببضعة أشياء أخرى، ثم أغلاه بالماء الحار، وبخر السائل الذي استخلصه، وصنع منه ما يطلق عليه مسحوق التخدير. ثم إنه سكب هذا المسحوق في متفجرات مصنوعة من البارود، فملأها به، وما لبث أن ذهب بصحبة جماعة من السود الآخرين في طهران قاصدين وكر هؤلاء المجرمين. والظاهر أنه وفق إلى مبتغاه فهزمهم، وأنقذ الأطفال.»

ابتسمت مغتبطًا، ثم قلت: «أجل، أعرف. كان رضا قُلي أيضًا هناك. لقد ذهب رضا قُلي ميرزا وصديق له اسمه نادر في إثر الأطفال في البداية، ثم بعد ذلك عاونهما كل من ألماس وجدك، حتى انتهى كل شيء على خير ما يرام.»

عض الرجل الأسود على طرف شفته السفلى متأسفًا، ثم قال: «الظاهر أن كل شيء انتهى على خير، ولكن هذه ليست حقيقة الأمر.»

- «لمَ تقول هذا؟! هل وقع شيء آخر؟!»

- «للأسف نعم... فإضافة إلى أن ألماس كان معرضًا للموت نتيجة تخليه عن إجراء العملية الجراحية، ثمة مكروه وقع لجدي هو الآخر. لقد قلت لك إن كافورًا غلى عشب الجونجادا سريعًا، ثم بخره مرة أخرى، ليحوله إلى مسحوق. في أثناء عمله كان على عجلة من أمره ما جعله يترك في الكأس على الأرض بعضًا من السائل القرمزي الذي كان من المفترض أن يبخره. وقبل أن يعيد ترتيب المكان من حوله، التقط المتفجرات المحشوة بمسحوق التخدير، وانصرف. ولما أن هم بالعودة إلى منزله، كان قد طلع عليه الصباح. لكن في وقت مبكر من الصباح، استيقظ جدي ياقوت الذي كان وقتئذٍ يبلغ من العمر نحو خمس سنوات، وسار إلى مختبر والده. وهناك رأي الكأس الملآنة بذاك السائل القرمزي، فحاول أن يتناول كأس الشراب عن الأرض وتجرع ما فيها. في تلك الأثناء قدم كافور، وفطن إلى أن ابنه قد تجرع ما في تلك الكأس. كان قلقًا للغاية، لعلمه أن تناول شراب الجونجادا المُغلى، يمكن أن يشكل خطرًا

كبيرًا. فذلك العشب كان سحرة قبائل زنجبار يدسونه في طعام أعدائهم خلسة، ليصيبهم بشيء كلعنة أبدية، لا تطالهم وحدهم، بل يمتد أثرها إلى الأجيال اللاحقة من بعدهم. في الواقع إن تناول ذاك الدواء يتسبب في أن يغدو عمر الأشخاص أقل من المعدل الطبيعي، والأشخاص الذين كانوا يتناولون ذلك الدواء فإنهم عادة ما كانوا يموتون بمجرد أن يبلغوا الخامسة أو السادسة والعشرين. وهذا الموت له أعراض مختلفة، فتارة يباغتهم الموت فجأة، وتارة أخرى يصير على هيئة شلل تام يسري ببطء من أعلى الجسد إلى أسفله. ولما كان كافور يدرك أن هذا الأمر سيظهر أثره لاحقًا، سعي على الفور بكل جهده ليجد دواء يتسنى له أن يبطل أثر شراب عشبة الجونجادا المُغلى. لقد أجرى كثيرًا من الأبحاث، وخلط النباتات بالأعشاب المختلفة. ويبدو أنه تمكن بطريقة ما من صنع دواء يبطل مفعول الجونجادا في الجسم. ولقد سجل نتائج أبحاثه تلك في كُتيب واحتفظ به. وكما أورد في مذكراته، أنه بينما كان في تلك الأيام في طور البحث والاختبار للعلاج، كان لا يزال مشتبكًا في نزاعه مع المجرمين سارقي الأطفال. تلك الاشتباكات التي جرت برجله إلى معترك الأحداث ثانية، وتسببت في فقدان كتيب أبحاثه أيضًا.»

- «وكيف فُقد؟!»

- «لا أعلم تحديدًا كيف. سبق أن قلت إن مذكرات جدي لم تكتمل. وكأنما قُتل. في الصفحات الأخيرة أشار أكثر من مرة في مذاكراته إلى الظروف السيئة والخطيرة التي عانى منها، وقد ذكر فيها أن كتيب أبحاثه وقع في أيدي ساكني قصر يقع في زقاق صاحب الديون. هذا ما ذكره لا غيرا والقصر القديم الوحيد الذي يوجد في محيط زقاق صاحب الديوان هو نفسه القصر الذي تعرفه أنت.»

فكرت لبعض الوقت، ثم سألته: «أهذا يعني أن جدك لم يوفق في علاج ابنه؟ أي أنه...»

قاطعني الرجل الأسود، وقال: «لقد تُوفي جدي ياقوت في سن الخامسة والعشرين، في حيدر آباد الدكن بالهند. وفي غضون ثلاثة أشهر شُل جسده شللًا تامًا من أعلى الجسم إلى أسفله، ثم ما لبث أن تُوفي. حينها كان قد أُنجب له ولدان أحدهما أبي. توفي والدي في السن نفسها تقريبًا، بالفعل كان موته موتًا مفاجئًا دون أن يصيبه شلل. أما أخوه، أي عمي، فما لبث أن أصابه الشلل قبل أن يموت. كان عمي قد تزوج بامرأة هندية بيضاء البشرة، وكان نتاج ذلك أن أنجبت له ابنًا أبيض البشرة. لا ريب أنك تعرفه، كان قد اختار له اسمًا هنديًا بالكامل: سانجي بيهاي، والآن...»

ضرب بكلتا يديه على مسندي الذراعين على جانبي كرسيه

المتحرك، وأردف: «هل تعلم لمَ أطلب منك العون؟!»

- «هذا يعني أنك تريد...»

- «أريد أن أعثر على كُتيب أبحاث كافور، لأعرف ما هي وسيلة علاج هذا المرض، وكيفية إبطال مفعول دواء الجونجادا. لأني ربما لا أفكر بنفسي، أما عندما يتعلق الأمر بحياة ولديَّ اللذين رُزقت بهما فلا يمكن أن أبقى هكذا غير مبالٍ.»

فجأة طرأ سؤال على خاطري لماذا لم يفكر أناس من قبله كأبيه وجده في علاج هذا المرض. وهذا ما سألته عنه. فأجاب قائلًا: «لأنهما كانا يجهلان طبيعة المشكلة، لقد أخفى كافور الأمر عن زوجته، ربما لأنه لم يرد إخافتها. وعندما غادرت زوجته وابنها ياقوت طهران حملا معهما بعض متعلقات كافور الشخصية، كان من بينها دفتر مذكراته. لكنهما لم يقرآ مذكراته قط، فكما تعلم وقتها لم يكن الجميع يجيدون القراءة والكتابة. كذلك لم يكن ياقوت متعلمًا، لكنه كان تاجرًا ماهرًا. وسرعان ما تمكن من تأسيس مشروعه التجاري في مدينة بوشهر والبدء به. لقد سافر نحو مرتين مع السفن المُبحرة إلى الهند، وتعلم فنون التجارة هناك. وشيئًا فشيئًا تحسن وضعه، فأنشأ في حيدر آباد الدكن شركته التجارية. وعندما تُوفي، طوَّر ابنه أي أبي تجارته

وأنماها، فنقل شركته التجارية إلى دلهي، كما أسس فرعًا آخر في مدينة طهران، وهو الفرع الذي يعمل فيه أكبر الآن. أصبحت عائلتنا غنية جدًا، لكن هذا المرض لم يدعها لحظة تهنأ بثروتها تلك.»

- «وأنت كيف عرفت؟»

- «بالصدفة البحتة. ذات مرة بينما كنت أتفقد أغراض أبي القديمة، لمحت تحت الصناديق والعلب المتنوعة صندوقًا صغيرًا بدا وكأنه كان مهملًا تمامًا ومنسيًا. وجدت داخله دفتر مذكرات جدي، فقرأته، وبعد ثلاثة أسابيع بالتمام شُلت ساقاي. حينئذٍ قررت المجيء مع سانجي إلى طهران، والسعي بشتى الطرق لكي أهتدي إلى الكتيب الثاني ذاك.»

ومن بعد ذلك سكت، حتى أنا لم أقل شيئًا. كنت متخمًا بالأفكار والتصورات المختلفة لدرجة أني لم أستطع الحديث. قبل أن ألتقي الرجل ذا البشرة السوداء، وبعد تردد طويل كنت قد توصلت إلى نتيجة مفادها أن كتابات رضا قُلي ميرزا على كل ما فيها من غرابة، كانت حقيقية. والآن أصبح يراودني إحساس أنه ربما كان كل ما جاء في مذكرات رضا قُلي ميرزا حقيقيًا، غير أن المرء لا يسعه إدراك الحقيقة كلها من كلامه. فبجانب رضا قُلي نفسه بل وربما وراءه كان هناك أناس كُثر تأثروا بما وقع له من أحداث، واتخذت حياة كل

منهم مسارًا آخر. وما كان أكثر هؤلاء الذين لم يشر رضا قُلي إليهم في مذكراته بكلمة، كما أن أحداثًا كثيرة وقعت لا تجد أثرًا لها في موضع من مذكراته. قد يكون هو ذاته لا علم له بها. وربما إن قارنا ما جاء في مذكرات رضا قُلي ميرزا بما جاء في مذكرات كافور اتضحت لنا أمور كثيرة. حينئذٍ كان دفتر أبحاث كافور مفقودًا، وغيره من الكتابات والدفاتر الأخرى التي لا نعلم عنها شيئًا.

وعلى هذا النحو راح نطاق الحقيقة يتسع ليصبح أكبر وأكبر، ربما إلى حد أن عقلي أنا والرجل الأسود الذي يجلس أمامي لم يعودا قادرين على أن يستوعبا شيئًا. لكن على كل حال كان علينا أن نبدأ من مكان ما. ينبغي أن يُمسك بطرف خيط الأحداث حيثما كان.

رفعت رأسي والتفت إلى الرجل الأسود قائلًا «سأعطيك مذكرات رضا قُلي ميرزا، كذلك أنت تعطيني مذكرات جدك. وإن مقارنة ما جاء فيهما سيوضح لنا أمورًا كثيرة.»

الفصل السابع والعشرون

في اليوم التالي، إبان الظهيرة كنت أنا ونادر وألماس قد جلسنا منهكي القوى رثاث الهيئة في غرفة نادر بدار التلغراف وإنَّا جميعًا نتكلم. كان ثمة نفر آخر بيننا نفر كنا غاية في السعادة لوجوده بيننا، عالية شقيقة رسول التي كانت جالسة بيننا بملابسها البالية، وقد شطفت وجهها بالماء، تتحدث وتقضم قطعة الخبز في يدها كِسرة كِسرة وهي تنظر إلينا. كنا خلصنا لتونا من استجواب النظمية. كان نادر بدل ثيابه البالية الممزقة، وغسل وجهه، ووضع نظارته على عينيه مرة أخرى، كما نظفت أنا وألماس نفسينا قدر ما استطعنا. والآن حيث كنا نجلس في غرفة دار التلغراف تحوطنا جدرانها الخشبية الدافئة التي كانت تغمر المرء سكينة، وتستحسن آذاننا طقطقة آلة التليغراف اللطيفة، راح ألماس يحدثنا عن كافور وصنيعه الذي فعله ليلة أمس: «إن كافولًا لفطن بأُمولٍ شتى، وما مسحوق التخديل الذي أهاله على أولئك القوم إلا أحدها.»

فسألته: « وما مسحوق التخدير ذاك؟!»

قال ألماس: «ذاك الذي ألقاه عليهم بواسطة المُتفجلة، وتسبب في جعل أحدهم يناحل الآخر. فأيما امرؤ ينفذ إلى منخليه ذاك المسحوق، يضطلب اضطلابًا، ولا يعود داليًا ما

هو بفاعل.»

فقال نادر: «أتذكر؟ ذاك الذي حدثتك عنه تلك الليلة، في رواية شرلوك هولمز....»

فقلت: «...آها... لقد تذكرت.»

أردف ألماس: «أخبلته ليلة أمس أن عليه أن يعاوننا، لننقذ الأطفال. قلت له لا طاقة لنا على أن نتصدى لهؤلاء القوم، وعليك أن تجد لنا مخلجًا، فأخبلني أنه سوف يصنع مسحوق التخديل.»

في عجب حدقت أنا ونادر إلى فم الماس وإنه يتحدث، ورحنا ننصت إلى ما يقوله كلمة كلمة. قال نادر: «ما أصعب تصديق ما رأيته الليلة بأم عيني،... أعني أنه لا مخلوق يسعه تصديق ذلك. كان جنود النظمية أنفسهم مبهوتين، ولا يفتأون يتساءلون لماذا التحموا هكذا مع بعضهم؟!»

كان نادر محقًا. لقد وُجه هذا السؤال إلى ثلاثة ممن نجوا، وما عرفوا له إجابة. بل لم يكن لديهم أدنى فكرة عما حدث. قال ألماس: «في مملكة زنجبال يخبلون كثيلًا من هذه الأمول، لم ألَ بعيني، بيد أني سمعت. أما كافول فقد دلس هنا. أعظِم بكافول من لَجل! إنه فطن بكثيل من الأمول، كذلك فإنه متعلم ويطالع الكتب، لقد شهدت هذا بنفسي.»

فقلت: «يا ليته كان هنا الآن!»

فقال ألماس: «كافول شخص منزوٍ، لقد اعتزل الناس أجمعين، ولاذ عنهم بلُكنِه.»

فقال نادر: «ذات يوم سنقبل عليه زائرين. فكم أتوق لأن أراه من كثب وأتحدث إليه.»

فقال ألماس: «لبما، لكن ينبغي أن يوافق هو أولًا.»

ثم فجأة فُتح الباب، وأدخل الرئيس رأسه من فتحته. كان وجهه ممتقعًا، وغاضبًا. التفت إلى نادر، وقال: «ألم أخبرك يا سيدي، ألم أقل إني بمجرد ما أضع قدمي هنا، سيعم الهرج والمرج بالخارج؟ أقبل لترى ما حدث، أيعقل أن يتولى فرَّاش إدارة هؤلاء الناس؟»

فقال نادر: «دعك من هذا الهرج والمرج، وأخبرني ماذا فعلت؟»

فقال الرئيس: «لقد وجدته يا سيدي، وهل مثلي ينبش عن شيء ويتعذر عليه إيجاده؟!»

ثم تنحى عن الباب، وقدم من ورائه رجل نحيل يتأبط عكازتين، ويتوكأ عليهما. تعرفته على الفور، كان أبا رسول وعالية. فور أن لمحت عالية أباها ضجت فرحًا، وهرعت إليه،

ثم طوقت ساقيه بذراعيها. وما كان من أبيها إلا أن أسند بعناء إحدى عكازتيه إلى الجدار، وانثنى، وعانق ابنته بيد واحدة. نهضت أنا ونادر وقد لاحت علينا أريحية السرور. ثم ما لبث الرئيس أن تقدم مرة ثانية إلى الباب، ودفع إلى نادر بلفافة على شكل أسطوانة مغلفة بالورق البرَّاق، وقال: «لقد استلمت هذا من إدارة البريد. وها قد سلمته إياك سليمًا سالمًا. والآن ائذن لي أن أذهب لئلا تتفاقم الفوضى بالخارج.»

تناول نادر اللفافة من الرئيس، وقال: «هذا رائع! شكرًا لك، اذهب، اذهب أنت لشأنك.»

وسرعان ما ذهب الرئيس. أما نادر وألماس فأعانا أبا عالية على الدخول وأجلساه على أحد الكراسي. ثم قال نادر: «هل أنت بخير؟ وهل اعتنوا بك في المشفى؟»

أجلس أبو عالية ابنته بجانبه، وعاود تقبيلها، ثم قال: «أين كانت هذه البُنية؟ كيف عثرتم عليها؟»

ثم نظر إليَّ، وقال: «ما عساك تفعل هنا؟! ولمَ خلفتنا ذاك اليوم، وأدبرت منصرفًا؟!»

فأجاب نادر نيابة عني قائلًا: «إنها قصة طويلة، الآن أخبرني كيف حالك؟ هل اعتنوا بك؟»

تنفس أبو عالية بشق الأنفس، ثم قال: «حمدًا لله أن

خرجت من هنالك سالمًا، أنت لا تدري ما حدث.»

فقال نادر: «أدري، لقد شهدت ما جرى ذلك اليوم، والآن ماذا صار؟!»

قال أبو عالية: «كانت رجلاي الاثنتان قد كُسرتا، فأصلحوا عظمهما الكسير، وشدوا عليهما جبيرة. لكن لم يكن أحدًا ليعينني على الخروج من هناك، لم يكن هناك من أحد يعبأ بي. كادت تفتك بي دون علتي هذه أسقام شتى وأمراض، لولا أن تداركني عبد الله ذاك... فالله للغريب صاحب. ولما كنت غريبًا عن تلك المدينة، أرسلك الله لي. أمد الله عمرك وأحسن عاقبة أمرك، والآن قل لي أين كانت البُنية؟ وعند من؟»

فقال نادر: «سأخبرك، على رُسلك، دعني أولًا أرى هذا.»

ثم رفع اللفافة المغلفة بالورق البراق التي كان قد أخذها من الرئيس، وفك الرباط من حولها، ونزع غلافها الرقيق. كانت ثمت صحيفة كبيرة وسميكة تحت الغلاف. لمعت عينا نادر فور رؤيتها. ثم إنه قام، ووضع الصحيفة الكبيرة على الطاولة، وفتحها فاردًا إياها بكلتا يديه. حدق إلى الصحيفة بضع وهلات، ثم تنسم نفسًا عميقًا، وقال: «الحمد لله، إنه هو!»

ثم التفت إليّ، وقال: «تعال، تعال يا رضا وانظر،.... انظر.»

قمت، وتقدمت إلى الطاولة، والقيت نظرة على الصحيفة أمامي. كانت ورقة كبيرة تعج بخطوط مستقيمة ومنحنية، وكتابات لا أفقه منها شيئًا. سألته: «ما هذا؟!»

فقال نادر: «مخطط المنطاد، مخطط لإنشاء المنطاد. خطه الميرزا رضا المهندس(26) بناء على طلب مني، فلقد وعدني قبل أن يسافر إلى كاشان أن يعده لي، وها هو ذا قد وفّى بوعده، اعقل الأمر يا رضا، هؤلاء الناس لن يصدقوك إلا أن يروك أمام أعينهم. والآن فإني سوف أصنع منطادًا، وأطير به... اعقل الأمر.»

قلت: «هذا رائع!»

فقال نادر مغتبطًا: «نعم، رائع للغاية، إنه رائع للغاية.»

ثم تصفح وجه ألماس وأبا عالية اللذين كانا صامتين، وينظران إليه في ذهول. ولما رآهما نادر على تلكم الحال، أمسك عن الكلام. رفع يديه عن طرفي الورقة، فالتفت الورقة. ثم إنه أطبق شفتيه، والتفت إلى أبي عالية قائلًا: «سأذهب حالًا وأحضر لك كوب ماء لتشرب، ثم أخبرك أين كانت بُنيتك، وكيف اهتدينا إليها.»

ثم فتح باب الغرفة، وخرج. نظرت إلى عالية وأبيها اللذين

كانا متشبثين ببعضها ويغمرهما الفرح والسرور. كان ألماس ينظر إليهما بعين الرضا، وقد برق ثغره. لكني لم أجد من براثن الأسئلة التي كانت تتلاطم في رأسي فِكاكًا. أسئلة من قبيل كيف نما إلى علم أيّاز ليلة أمس خبر مجيئي أنا وألماس إلى الخندق وأنَّا نحاول إنقاذ نادر؟! وإن جعلت أفكر في أن راضيًا هو من أنبأه، فعليّ حينئذٍ أن أفهم أنى لراضي معرفة ذلك؟ والأهم من ذلك كله لماذا عندما ألقى كافور متفجراته المعبأة بالمسحوق المخدر بين ظَهرَانَي رجال أيّاز لم يمسس راضي ضرٌّ، حتى كان فراره عليه يسيرًا هينًا. كنت أعلم أني لكي أجد إجابات تلكم الأسئلة، حقيق عليّ التفكر في راضي. التفكر في هيئته، وكلامه، وتصرفاته. وحينئذٍ ادّكرت شيئًا مهمًا، ادّكرت أن راضيًا كان ينام ليلًا وعيناه مفتوحتان، تمامًا مثل شكور.

---

(1) لوحة الحكايات هي نوع من العروض الإيرانية. وهذا الفن هو سرد القصص الشعبية بواسطة ستار يعلق على الحائط، حيث يبدأ الحكواتي بنقل الأحداث مشيرًا إلى رسوم ملونة منقوشة على ستار سميك كبير لعدة أبطال يمثلون هذه الحكايات.

(2) الكشك المجفف هو نوع من منتجات الألبان المجففة، ويُصنع الكشك المجفف من اللبن الرائب على شكل كرات يسهل حفظها مدة

أطول، وتخزينها.

(3) القيطان هو نسيج من الحرير أو القُطن أو نحوهما يُبرم فيكون كالحَبل الدقيق. من هنا جاءت تسمية الشارب القيطاني بهذا الاسم، فهو شكل من أشكال الشوارب القديمة في طهران كان يتميز بأنه رفيع مبروم.

(4) مَشْدي هو اختصار لقب مشهدي تخفيفًا للنطق وله استعمالان:

الأول: يطُلق كمظهر ديني مشابه لحج بيت الله الحرام. فكما يطلق على من زار بيت الله الحرام حاج فلان، يسبق اسم من زار في مدينة مشهد مرقد الإمام الرضا الإمام الثامن من الأئمة الإثنى عشر لدى الشيعة الإمامية لقب مَشهدي أو اختصاره مَشدي أو مَشتي أو مَش إجلالًا له. كان من يقبل زائرًا لتلك الأماكن يُنسب إليها، ولذا انتشرت بين الشيعة ألقاب الكربلائي، والنجفي، ومشهدي. أما الذين يحجون إلى مكة والمدينة فلا ينادون إلا بلقب حاجي فلان.

والثاني: أسلوب نداء بصيغة الاحترام فقد درج على ألسنة العامة أن ينادوا بعضهم بعضًا بلقب مَشهدي أو مَشدي أو مَشتي الذي يعني عدة معانٍ مثل: الفتوة، المحترم، النبيل، الكريم، السيد. حسب الموقف الذي قيل فيه. وهذا هو المعنى المقصود هنا بنداء الرجل الهرم وما سيتلوه.

(5) الكوليرا مرض بكتيري عادةً ما ينتشر عن طريق الماء الملوَّث. يتسبَّب وباء الكوليرا في الإصابة بإرهاق شديد وإسهال وجفاف شديد، وقيء وغور العينين، وجفاف الفم، والعطش الشديد، وغثيان. وإذا لم يُعالج، فقد يكون قاتلًا خلال ساعات ومنذ عام ١٨١٧م شهد العالم سبع موجات انتشار شامل للوباء.

وفي عهد ناصر الدين شاه داهم الوباء بلاد فارس غير مرة، وأحيانًا ما صحبه مجاعة. تذكر لنا المصادر أن الأوضاع تفاقمت في البلاد آنذاك في ظل الإهمال،

وثُرك الناس في مهب الريح، وعم الرعب في المدن والقرى، وجن جنون الناس لوفاة ذويهم حتى كان يُسمع صوت النواح في الفضاء الخالي يقرع صداه الآذان، وعمت الفوضى في البلاد وانتشر قطاع الطرق والمجرمون ينهبون ما ينهبون، وارتفعت الأسعار واحتكر التجار القمح واختزنوه. ولما استطال مارد الفقر وضاقت الأحوال هب القرويون يقصدون المدن بحثًا عن لقمة عيش فما كان من الجنود إلا أن هاجموهم وصدوهم خشية انتشار الوباء معهم.

(6) محصلو رسوم الطريق ورسوم الدخول عبر البوابة من الزائرين والمسافرين الذين يدخلون طهران.

(7) كان جوزيف تولوزان (١٨٢٠- ١٨٩٧م) طبيبًا فرنسيًا وخبيرًا في علم الأوبئة، وكان الطبيب الخاص لناصر الدين شاه مدة ثلاثين سنة .

(8) لقب مَش هو اختصار لقب المَشدي. ويقصد هنا بمَش يد الله: المشهدي يد الله، لأنه زار مدينة مشهد حيث مرقد الإمام الرضا فنال هذا اللقب كما ينال حاج بيت الله لقب الحاج فلان.

(9) هو الميرزا علي أكبر خان نفيسي (١٨٤٧- ١٩٢٤م) المُلقب بناظم الأطباء. كان عالمًا كبيرًا وأديبًا وطبيبًا في العصر القاجاري، وكان طبيبًا خاصًا في بلاط مظفر الدين شاه. لعب دورًا مهمًا في إنشاء عدد من المستشفيات في طهران ومشهد. وفي سنة ١٨٧٣م بعد عودة ناصر الدين شاه من رحلته إلى أوروبا عزم على إنشاء مستشفى عام على الطراز الأوروبي واختار الميرزا على أكبر خان نفيسي لهذا الأمر، وأصبح مسؤولًا عن هذا المستشفى الذي عُرف بالمشفى العام، ومن هنا صار يُلقب بالحكيم باشي.

(10) قصر گلستان أو قصر روضة الورد هو مجمع ملكي سابق لسلالة

القاجار الحاكمة في مدينة طهران. يعود تاريخ بنائه إلى القرن السادس عشر. يتكون المجمع من مجموعة من القصور والأبنية والقاعات والممرات وحدائق غناء حافلة بالزهور والأشجار. وقد شُيد وفق معايير معمارية وفنون هندسية فذة تعكس الجمال المعماري في ذلك العصر. يعد قصر جُلستان اليوم من أقدم المعالم التاريخية في إيران وهو الآن متحف يقصده السياح من كل مكان.

(11) هادي نجم آبادي (١٨٣٤- ١٩٠٢م) من أشهر مجاهدي عصره في عصر ناصر الدين شاه ومظفر شاه، إذ كان مؤثرًا في الفكر التجديدي وفيما يتعلق بالقضايا السياسية الإيرانية آنذاك. وقد صاغ أفكاره في كتابه تحرير العقلاء ولعب دورًا كبيرًا في توعية الناس بهذه الأفكار. يعد أقرب رجل دين في إيران إلى جمال الدين الأفغاني وقد التقاه وتأثر به. كان شجاعًا أبيًا انتقد علناً ناصر الدين شاه وآخرين، وجعل من بيته ملاذًا لعظماء مجاهدين مثل حسن خان رشدية.

(12) آخوند كملة فارسية تعني عالم الدين والمعلم تطلق الآن على رجال الدين عامة في إيران وبعض الدول المجاورة مثل أفغانستان وأذربيجان. وفي قديم الزمان كانت لقبًا يمنح للعلماء الأكابر إجلالًا لهم وتعظيمًا لمقامهم.

(13) الإبَّالة: الحُزْمَة من الحَطَب، والضِّغث: قَبْضَة من حشيش مختلطة الرطب باليابس. ومعنى المثل مصيبة على مصيبة وبَلِيَّةٌ على أخرى.

(14) كانت الشرطة آنذاك تسمى بالنظمية. وكان لها قوة إنفاذ القانون في إيران، مع واجبات الشرطة داخل المدن.

(15) أكبر جوجِه هو اسم سلسلة مطاعم شهيرة في إيران، لصاحبها

على أكبر كلبادي نجاد. ويشير اسم أكبر جوجِه أيضًا إلى اسم الطبق الرئيس في هذا المطعم الذي ابتكره صاحبه ويتكون من فرخ الدجاج (جوجِه) الذي يسلق ويتبل بخلطة من البهارات ثم يُقلى في زيت حام. حظيت هذه السلسلة بشهرة واسعة وامتدت فروعها لعدد من الدول العربية.

(16) لقد بُنيت الخنادق في طهران القديمة كإجراء تحصيني لمنع دخول الأعداء في طهران القديمة وشُيدت بجانب هذه الخنادق أسوار وعدد من البوابات على كل منها حارس. واستمر هذا الأمر مُتبعًا في طهران في العصر الصفوي، ثم في العصر القاجاري من بعد. وفي عهد ناصر الدين شاه القاجاري أمر بتوسيع المدينة وتجديد التحصينات بإنشاء اثنتي عشرة بوابة مقسمة على حدود طهران الأربعة، كما حُفرت الخنادق الجديدة. لكن مع الوقت أصبحت هذه الخنادق أوكارًا يجتمع فيها الغوغاء والمجرمون واللصوص والبغايا، ويخرج منها ويدخل طهران بعض الزائرين بدلًا من البوابات هربًا من دفع رسوم الطريق.

(17) من يطوفون بالليل يحرسون الناس ويكشفون اللصوص ونحوهم.

(18) گلستان تعني روضة الورد. وهذا الكتاب يعد من أمهات الكتب في الأدب الفارسي، ألفه الشاعر سعدي الشيرازي سنة ٦٥٦ هـ. وذكر فيه تجربته الحياتية وخبرته بطبائع البشر، وذلك بأسلوب مبتكر زاخر بالصور الشعرية والخيالات.

(19) الشاهنامة تعني كتاب الملوك أو سيرة الملوك. وهي ملحمة تاريخية تتألف من ستين ألف بيت نظمها الشاعر الكبير الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ألف ميلاديًا. ويروي فيها تاريخ بلاد فارس

وملوكها منذ الأساطير حتى الفتح الإسلامي وسقوط الدولة الساسانية. تعد الشاهنامة الملحمة الوطنية لبلاد فارس، حتى لقد أطلق عليها القرآن الفارسي، وهي من أهم الأعمال الأدبية في العالم.

(20) كَل هي اختصار كلمة الكربلائي. ويقصد هنا بكَل قاسم هنا الكربلائي قاسم. أي أنه زار مدينة كربلاء حيث ضريح سيدنا الحسين فنال هذا اللقب كما ينال حاج بيت الله لقب الحاج فلان.

(21) وسيلة كانت تستعمل قديمًا لقياس المسافات، يعادل الجز الواحد ما يقرب من أربعة وعشرين إصبعًا.

(22) لعبة طِر يا غراب لعبة أطفال تراثية في إيران. يقود هذه اللعبة شخص بالغ، ويجمع الأطفال من حوله. تبدأ اللعبة بأن يضع القائد سبابته على الأرض، ثم يضع الأطفال من بعده سباباتهم بالمثل. وبينما يرفع القائد سبابته يقول: «طِر يا غراب.» فيرفع الأطفال سباباتهم بالمثل ويهتفون معًا: «طِر يا غراب.» وتستمر اللعبة على هذا النحو. وفي كل مرة يذكر القائد اسم طائر آخر، ثم يشرع القائد في اختبار نباهة الأطفال فيذكر شيئًا أو حيوانًا كأن يقول مثلًا: «طِر يا حمار». فإن كان الأطفال منتبهين يقولوا معًا: «لا تطر.» أما الذين لم ينتبهوا فإنهم يرفعون أصابعهم، ويُستبعدون من اللعبة. ويظل القائد يهتف بأسماء طيور وحيوانات وجمادات حتى يفوز من بينهم نفر.

(23) اليُديتان(تصغير اليدين) وهما جانبا الحذاء اللذان يصلان مقدمة الحذاء التي تغطي أصابع القدم بالجزء الخلفي منه الذي يغطي الكعب ويمكن أن يتصل بهما رباط الحذاء. وجانبا الحذاء دعامتان تحميان القدمين و تسهلان انتعاله والمشي به. وقد أخذت بلاد فارس هذا القالب من الأحذية عن أوروبا وكان يرتديها غُلية القوم بدلًا عن أحذيتهم التي

كانت من جلد غير مدبوغ، في حين كان منتشرًا بين عامة الناس آنذاك انتعال الكيوة بدون اليُديتين أو النِعال التي لا تستر الكعبين.

(24) زجّت الحواجب : رقّت في طول وتقوس.

(25) المِقْنعة في اللغة ما تستر به المرأة رأسها وتغطيه. وهو نوع من أغطية الرأس في إيران تُغطي به النساء الرأس والشعر والرقبة، ولا يترك سوى الوجه بارزًا، ويكون مفتوحا من الأمام حيث يُربط.

(26) الميرزا رضا خان (١٧٨٩- ١٨٨٢م) درس الهندسة في بريطانيا، ويعد من أوائل المهندسين في العصر القاجاري. في بداية حكم ناصر الدين شاه صمم الميرزا رضا خطة بناء مدرسة دار الفنون. عاش المهندس باشي قرابة قرن من الزمان وكان في ذلك الوقت أشهر مهندسي عصره. وإضافة إلى كونه مهندسًا ومصممًا كان مؤلفًا ومترجمًا وله كتب مؤلفة وأخرى ترجمها إلى اللغة الفارسية عن الإنجليزية.